جامعـة الجزائـر
كليّـة العلـوم الإنسانيـة والاجتماعيـة
قسـم التاريـخ

السلطة والمجتمع بالأندلس في عصر المرابطين
479هـ - 539هـ /1085م - 1144م

مذكـرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الوسيط

إعداد الطالب:
شارف أحمد

إشراف الأستاذ:
د/ إبراهيم بحاز بكير

جامعـة الجزائـر
كليّـة العلـوم الإنسانيـة والاجتماعيـة
قسـم التاريـخ

السلطة والمجتمع بالأندلس في عصر المرابطين

479هـ-539هـ /1085م-1144م

مذكـرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الوسيط

اللجنة المشرفة على المناقشة:

1- الدكتـورة: سامية بو عمران رئيسة ومناقشة
2- الدكتـور: إبراهيم بكير بحاز مُشرفاً ومقرراً
3- الدكتـور: محمد الأمين بلغيث عضواً مناقشاً

إعداد الطالب:
أحمـد شارف

الموسم الجامعي: 1428- 1429 هـ / 2007 - 2008 م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الوالدين الكريمين

إلى أم محمد والشّيماء

إلى إخواني وزملائي في الدراسة والعمل

إلى أساتذتي ومعلمي وكلّ من علّمني حرفاً في هذه الحياة

أقدم هذا العمل

شكر و عرفان

بعد شكري لله تعالى على منه وفضله وكرمه أن وفقني في إعداد هذا البحث، أتقدم بالشكر لكل من ساهم وأعان ووجه في انجاز فصول هذا البحث وأخص بالذكر أستاذي الفاضل الدكتور إبراهيم بكير بحاز الذي لم يدخر جهداً في التوجيه والتصويب، وأشكر أساتذتي الذين أشرفوا على تكوينا في مرحلتي الليسانس والماجستير، وأخص بالذكر كل من الدكتور موسى لقبال والدكتور محمد الأمين بلغيث والدكتور عبد العزيز الأعرج والدكتورة سامية بوعمران

وإلى جانب هذه النخبة من الأساتذة أتقدم بالشكر لإخواني وزملائي الطلبة وأذكر هنا رفيق الدراسة والعمل الأخ عبد الجليل ملاخ، والأخت بلحاج على كل ما أسدوه لي، كما لا أنسى أن أشكر زملائي في العمل خاصة أساتذة اللغة والأدب العربي الذين ساهموا بملاحظاتهم ومنهم: بشير مولاي، حسن فنيط ، بلقاسم غزيل.

إلى جانب هؤلاء أشكر القائمين على المكتبات الذين لم يبخلوا علينا في تقديم ما استطاعوا من كتب وأذكر هنا عمال مكتبات الجزائر العاصمة، مكتبات المركز الثقافي والبلدية ونادي المعلمين بالجلفة ومكتبات دور الشباب بمتليلي.

والقائمة تطول في ذكر كل من له أثر في هذا البحث، وعليه فإنني أعتذر لكل من لم أذكر اسمه، وأقول لهم جزاكم الله خيراً.

مقدمة :

إنّ الواقع الذي يعيشه عالمنا الإسلامي والعربي، اليوم في جميع المجالات، واقع لا نُحسد عليه نجد في يومياته أخبار الضعف والانقسام والتشتت، وفقدان الحرية والإرادة السياسية، وذلك أمام القوى الأخرى التي تعرف تقدماً مستمراً، ولعل هذه القوى كانت عاملاً خارجياً من عوامل الضعف ولكن إلقاء اللوم على الطرف الخارجي هو محاولة للتملص والتهرب من الواقع، وهو ما يؤدي بنا إلى الزيغ عن معرفة الأسباب الحقيقية، والبقاء في الضعف.

وهذا الواقع ليس وليد اليوم، بل يعود إلى قرون من الزمن، تخللتها عدة نكبات، بدأت حلقاتها بسقوط بيت مقدس عمر بن الخطاب بيد الصلبيين (493ه/1099م)وبغداد الرشيد وعاصمة الخلافة الإسلامية بيد هولاكو(656ه/1258م)، أمّا آخر هذه الحلقات التي نشاهدها اليوم فتتمثل في وقوع بغداد وفلسطين من جديد في يد الصليبيين، وهنا نطرح سؤالاً: هل ُيعد هذا الواقع قدراً محتوماً فُنسَلمْ بأن واقعنا صنعه غيرنا؟

الحقيقة التي لا مراء فيها أنّ كل النكبات التي عاشها العالم الإسلامي قديماً وحديثاً، إنما ترجع إلى خلل داخلي، ولعل من أهم الأسباب الداخلية التي تطفو إلى السطح، تكمن في طبيعة العلاقة القائمة بين السلطة والمجتمع، وهو ما قد يمثل قوة للدولة أو ضعفاً فيها، ورأينا ذلك حين تباينت توجهات ومواقف المجتمعات العربية مع سلطاتها، عند احتلال بلاد الرافدين، أي أن العلاقة بين الراعي والرعية تفسر أحوال الدولة.

دوافع الدراسة:

انطلاقاً من ذلك جاءت دوافع دراسة هذه العلاقة من خلال الرجوع إلى مكتبة التاريخ الإسلامي، لأنني أرى ضرورة العودة للتاريخ السياسي لعلاج ما تعانيه الأمة، و لا يتأتى ذلك إلا بعد إعادة قراءة تاريخنا قراءة متأنية موضوعية ناقدة لأخذ العبر؛ وإذا كان هناك من يدعو إلى الدراسات المستقبلية والكف عن اجترار الماضي، فإنّ في ذلك إنكاراً وجحوداً لتجارب سلفنا، التي تعد كنزاً لا يجب تضييعه فهذه التجارب هي بحاجة إلى نفض الغبار عنها بالنقد والتحليل، حتى لا ننطلق من أفكار مسبقة، ولا عاطفة تهوي بصاحبها، حتى يتم الاستفادة من تجارب سلفنا صوابها وخطئها بعد مزج السياسة بالاجتماع، إذ أنّه لا يمكننا أن نخطط لمستقبلنا إلا إذا استفدنا من تجارب ماضينا.

وفي خضم التجارب الكثيرة، لعلاقة السلطة بالمجتمع في التاريخ الإسلامي، اخترت ثنائية **السلطة المرابطية والمجتمع الأندلسي** نموذجاً للدراسة، وكان هذا الاختيار لما يتميز به هذان الطرفان من خصائص، فالمجال الجغرافي الأندلسي يمثل ثغراً من ثغور الإسلام، تضم أكبر حواضره التي كانت

مراكز إشعاع حضاري وعلى الرغم من ذلك، فقد ضاعت من أيدي المسلمين سلطة ومجتمعاً، بعد حكم إسلامي دام ثمانية قرون، ونفهم من ذلك أنه لا يمكن استبعاد مخطط استرداد النصارى لاسطنبول (القسطنطينية) عاصمة الإمبراطورية البيزنطية والأرثوذكس قديماً، إذا وجدوا لذلك منفذاً.

أما المجال الزمني فيشمل فترة حكم المرابطين، وهي فترة تُحدد زمنياً بحوالي ستين سنة ابتداءً من(479هـ/1085م) إلى (539هـ/1144م) واختيار السلطة المرابطية لكونها تمثل نموذجاً واضحاً لدراسة الدولة الإسلامية السنية من خلال المراحل التي مرت بها، فقد مرت بمرحلة من القوة وتمكنت من تحقيق النصر في الزلاقة، بعد أن دبّ اليأس في الأندلسيين، كما عرفت مرحلة الضعف ما أدى إلى سقوط سلطتها في الأندلس، ثم في مراكش والمغرب الإسلامي عموماً.

أهمية الموضوع:

إنّ تجربة المرابطين جديرة بالدراسة، لكونها جاءت في زمن عصيب من الفتن، والاختلالات في الغرب الإسلامي، وهذا الموضوع يرتبط ارتباطًا وثيقاً بواقعنا، يحاول البحث في العلاقة بين العناصر الأساسية المكونة للدولة، ويدور في فلك النظريات الخلدونية السياسية والاجتماعية كنظرية السلطة أو ما عبر عنها بمصطلح المُلك وأسباب قوته وضعفه، وعلاقة ذلك بالمجتمع والاقتصاد والجيش والدين، ومن خلال ذلك يمكننا مطابقة ما نصل إليه من نتائج على واقعنا اليوم، وتفسير العلاقات القائمة بين هذه العناصر، ومنه محاولة المساهمة في علاج ما أمكن من أمراض تنخر جسد الدولة.

ولقد تباينت الآراء حول السلطة المرابطية إذ إننا لا نكاد نجد مؤلفاً إلا وتطرف مدحاً أو قدحاً، فرأيت ضرورة الوقوف موقفاً وسطياً بين من مجد المرابطين إلى أن جعلهم لا يخطئون وبين من سال قلمه حقداً، فنعتهم بكل نقيصة، ولذلك رأيت ضرورة التخلص من الأفكار المسبقة، وعدم الميل إلى اتجاه إلا ما توافق مع العقل والنقل، بهدف تقصي الحقائق، معتمداً على ما جاء في المصادر وتقييم دور المرابطين وانجازاتهم وأخطائهم، إذ لا يمكننا أن نستفيد من التاريخ إذا كان يكتب حسب ما يوافق الأهواء والميول.

الإشكال المطروح:

والإشكال الذي أطرحه في هذا الموضوع، هو: كيف كانت علاقة السلطة المرابطية البربرية ذات المنشأ الصحراوي، بالمجتمع الأندلسي المدني متعدد الاثنيات والديانات؟ وتندرج ضمن هذه الإشكالية عدة أسئلة منها: كيف تأسست السلطة المرابطية؟ وما هي الأسس المعتمدة في التأسيس؟ وما هي الخصائص التي تميز المجتمع الأندلسي من خلال التركيب، والواقع الاجتماعي؟ وكيف كانت تطورات العلاقة بين المجتمع والسلطة، وما العوامل التي أدت إلى ذلك؟

خطة العمل:

للإجابة عن هذه الأسئلة اتبعت الخطة التالية: قسمت البحث إلى مقدمة وثلاثة فصول مسبوقة بفصل تمهيدي، والمقدمة كانت للتعريف بالموضوع وأسباب اختياره وإشكاله، وخطة العمل ونقد أهم المصادر المستعملة، ويليها الفصل التمهيدي وهو عبارة عن توطئة للموضوع إذ يشتمل على ذكر أوضاع المغرب والأندلس التي ظهرت فيها السلطة المرابطية، وذلك من أجل إدراك الواقع الذي ظهرت فيه السلطة، ومدى التغيير الذي ساهمت فيه، إذ لا يمكننا تقييم دورها إلا بعد مقارنة الأوضاع قبل السلطة وأثناء حكمها، وذلك يتعلق بالمغرب والأندلس على حد سواء.

أما الفصل الأول فيتطرق إلى الطرف الأول في العلاقة، وخصصت الحديث فيه بنشأة السلطة المرابطية وأهم أسسها، وذلك لإظهار المرتكزات التي انطلقت منها السلطة، وما مدى مساهمتها في مد نفوذها، وتغطية هذا الفصل شملت بلاد المغرب الأقصى والصحراء موطن الملثمين، فشمل الإطار الجغرافي الذي ظهرت فيه السلطة، والإطار البشري المؤسس المتمثل في قبائل الملثمين، وإظهار دور العصبية في التأسيس، ثم التطرق إلى أثر الدعوة الدينية التي قادها القادة الأوائل، لجمع شمل هذه القبائل، إضافة إلى هذه الأسس الروحية، نذكر أساساً مادياً لا يقل أهمية وهو أثر سيطرة الملثمين على مسالك التجارة في تثبيت دعائم السلطة وتقويتها.

وفي الفصل الثاني، تم فيه الانتقال إلى الأندلس، لإعطاء نظرة سريعة حول المجتمع الأندلسي الذي يمثل الطرف الثاني في العلاقة وذلك من خلال تركيبة عناصره المتعددة، من عرب وبربر ونصارى ويهود وغيرهم، والنظر في أحوالهم وطبقاتهم و خصائصهم، ثم محاولة استنتاج الملامح العامة التي تميز المجتمع الأندلسي، ويساعدنا ذلك في معرفة وتفسير بعض الجوانب في العلاقة، لأن التأثير ليس بالضرورة أن يكون من السلطة، فأحياناً كثيرة يكون من المجتمع.

وخصصت الفصل الثالث بالحديث عن العلاقة القائمة بين الطرفين(السلطة والمجتمع)وأهم تطوراتها وهو بذلك أطول الفصول ومن خلاله يتم البحث في أهم نقاط الالتقاء بين الطرفين فاشتمل على ذكر السياسة المرابطية ومواقف المجتمع منها، وتبيّن أن هذه السياسة تباينت بين مرحلة حكم الجيل الأول التي ميزها الاهتمام بشؤون الرعية،والمرحلة الثانية التي عرفت بعض مظاهر الإهمال لها فبدأت العلاقة تتغير من التوافق إلى التنافر،وبدأت تتكون معارضة داخلية،تحالفت مع القوى الخارجية التي كانت تترصد وتتربص ساعة الانقضاض، فكان الوضع الداخلي مطية للهجومات الخارجية.

وكما جرى العمل في كل الأعمال الأكاديمية أنهيت بحثي بخاتمة لذكر أهم النتائج المتوصل إليها، وألحقت بعد ذلك المذكرة بمجموعة من الملاحق، رأيت أنها تفيد دراستي، وختمت كل ذلك بفهارس البحث.

منهجية البحث:

أمّا المنهجية التي تناولت با الموضوع فقد تراوحت بين السرد التاريخي للأحداث ونقدها وتحليلها ومقارنتها، وكانت عملية السرد اعتماداً على المصادر،وهو منهج لا يمكن الاستغناء عنه في الكتابة التاريخية خاصة حين تكلمت عن تكوين السلطة وتطورات العلاقة بين ا لتمع والسلطة، وفي حالة وجود تباين في الروايات مثلاً كموقع رباط ابن ياسين أو سنة وفاته فإنني اعتمدت الروايات الأقرب للحدث زمانًا ومكاناً والأكثر شهرة، والتي خضعت للمناقشة من قبل المحققين المعاصرين من أمثال حسن أحمد محمود- رحمه الله-

وتخللت عملية سرد الأحداث، منهج التحليل والنقد لهذه الأحداث لإظهار ما أمكن إظهاره من الحقائق والجوانب الخفية، ومن خلال ذلك يمكن معرفة وتفسير الأسباب والعوامل الحقيقية المؤثرة في علاقة السلطة با لتمع.

كما لجأت إلى محاولة تأصيل بعض القضايا، وذلك لإعطاء أحكام حولها متجرداً من الأحكام المسبقة ومتفادياً الوقوع في الخطأ ما أمكن، كما استخدمت أسلوب المقارنة أحياناً لإظهار الفوارق، مثل الحديث عن واقع الأندلس في ظل حكم ملوك الطوائف، والتغيرات التي أحدثها المرابطون، والمقارنة بين واقع أهل الذمة في ظل السلطة المرابطية، وواقع المسلمين في المدن التي خضعت للاسترداد المسيحي.

الدراسات السابقة:

إنّ موضوع السلطة وا لتمع يجمع بين السياسة وا لتمع، وعليه فالدراسات السابقة تخصصت في معالجة أحد الجوانب السياسية أو الاجتماعية، إلا أنه تخللتها بعض صور المزج في ذكر العلاقة بين ا لتمع والسلطة، ويعد بحث حسن أحمد محمود حول" **قيام الدولة المرابطية**" عملاً رائداً إذ إن كل من جاء بعده كان يدين له في اعتماد معلوماته وتحقيقاته وتصويباته، وتبعه في ذلك باحثون أمثال: سعدون عباس نصر الله في كتابه " **دولة المرابطين** في **المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين**" أما من الباحثين الغربيين فقد تخصص الباحث" Vincent LAGARDERE "في كتبه المتنوعة حول دولة المرابطين مثل كتاب Les Almoravides, Le Djihad Andalou وكتاب" Le vendredi de Zallâqa ".

أما في الجانب الاجتماعي فنجد المدرسة المغربية قد اهتمت بذا الجانب، وتعد الكتابات القَيِّمَة للباحث إبراهيم القادري بوتشيش من جامعة مكناس الزيتون من أهم الكتابات التي تخصصت في دراسة المظاهر الاجتماعية، ومنها:

"**مباحث** في **التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس** في **عصر المرابطين**" و" **المغرب والأندلس** في **عصر المرابطين (المجتمع.الذهنيات.الأولياء)**" و " **تاريخ الغرب الإسلامي** (قراءات جديدة في في بعض قضايا المجتمع والحضارة"، وأعمال الباحثة عصمت عبد اللطيف دندش التي تخصصت هي الأخرى في دراسة عصر المرابطين السياسي والحضاري مثل كتاب "**الأندلس** في **نهاية المرابطين ومستهل الموحدين**" بالإضافة إلى هذين الباحثين باحث غربي وهو" PIERRE GUICHARED " في كتابه : Structures sociales, &é « orientale » et « occidentales » dans l'Espagne musulmane .

كانت هذه النماذج سنداً متيناً لتتبع مراحل تطور العلاقة بين السلطة والمجتمع واكتشاف المصادر المتخصصة، وخوض غمار البحث التي لم تخلُ من العقبات.

صعوبات البحث:

وأثناء عملية البحث كانت هناك بعض الصعوبات، فأمام وفرة المصادر المرابطية، لم تكن عملية استخلاص مظاهر المجتمع وسياسة السلطة سهلة، وهو ما تطلب وقتاً معتبراً من القراءة والجمع، ولذلك استعنت بالمراجع السابقة التي توجه وتساعد على قراءة المصادر، ولم أكن أعتمد على مرجع إلا بعد تتبع جميع الإحالات في مصادرها الأصلية للتحقق منها.

وعلى الرغم من تعدد العناوين، إلا أن عملية الحصول عليها لم تكن يسيرة، فهذه العناوين منها ما فُقِد في المكتبات العمومية، أما المكتبات التجارية فلا تتوفر على كل الكتب خاصة التاريخية المتخصصة، فكثير من العناوين كانت غائبة، وعليه تم اقتناء ما أمكن من الكتب المتاحة في الأماكن سابقة الذكر، كما استعنت بأصحاب المكتبات الخاصة من أساتذة وزملاء.

إضافة إلى هذه الصعوبات فقد كانت هناك مشكلة الوقت، إذ أرى أنّ مدة سنة لا تسمح بالاطلاع على كل مصادر البحث ومراجعه، وتحليل الأفكار واستنتاج الخلاصات وهذا ما من شأنه أن يؤدي إلى التقصير في الانجاز.

نقد المصادر والمراجع:

أ - كتب التاريخ

1- **الحلل الموشية في الأخبار المراكشية:** كتاب صغير الحجم،كثير الفوائد، صاحبه مجهول، عاش في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، يظهر من خلال محتواه أنه مغربي عاصر الدولة المرينية في المغرب الأقصى ودولة بني الأحمر في الأندلس، لأن هذه الدول هي آخر ما تكلم عنه، إلا أن الجزء الأهم من كتابه كان قد خصصه للمرابطين، وتكمن أهميته أنه اعتمد على مصادر مفقودة، مثل كتاب ابن الصيرفي" الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية " تميز بالاختصار في إيراد الأخبار خاصة بعد عهد يوسف بن تاشفين، أفادني الكتاب في إيراده لبعض المعلومات التي تخص السياسة المرابطية، خاصة في فترة حكم يوسف بن تاشفين، ومما أورده صاحب الحلل استخدام الأمير يوسف للعبيد السودان وللعلوج في الجيش المرابطي وذلك في عز قوة الدولة وبداية عهدها، وذلك عكس ما ذكره ابن خلدون بأن الدولة تستظهر بجندٍ غيرِ جندها في آخرِ عهدها، كما أورد صاحب الحلل الضريبة التي فرضها الأمير يوسف على اليهود، وفي ذلك دلالة على عدم استقرار في سياستها المالية ولجوئها إلى تحقيق ذلك بالاعتماد على الأثرياء.

2- **المعجب في تلخيص أخبار المغرب:** للمراكشي، أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي(ت647 ه/1250م) خدم الأمير إبراهيم بن يعقوب المنصور والي اشبيلية، خرج عبد الواحد المراكشي من الأندلس في ظروف لم يُبَيِّنْهَا متجهاً نحو المشرق، واتصل بوزير الناصر العباسي ببغداد فكلفه بتأليف كتابه هذا، ومن خلال ذلك يتبين أن هذا المصدر هام في دراسة الحقبة المرابطية لقرب المؤلف لموقع الأحداث،كما أنه كتب كتابه بعيداً عن أي تأثيرات أو ضغوطات، إلا أننا نلمس فيه أحياناً كثيرة ميلاً للموحدين على حساب المرابطين، ومع هذا لا يمكن الاستغناء عنه لما فيه من معلومات، وقد تميز كتابه بالاختصار وغلب عليه الجانب الأدبي في التأريخ للأدباء والكتاب والشعراء، وركز في كتابه على تصوير انتقال المرابطين إلى الأندلس على أنه لم يكن إلا من أجل التوسع والنفوذ، كما أنه ركز على تحميل المرابطين مسؤولية ما آلت إليه الأندلس، فانفرد كتابه بالنقد لسياسة المرابطين، خاصة في عهد علي بن يوسف، وتركيزه على عهد علي بن يوسف يوحي بالتباين بين مرحلتين في سياسة الحكم المرابطي، وهو ما جعلني أعتمد عليه في الخطة التي اتبعتها في هيكلة هذا البحث.

3- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**: خصص ابن عذاري(ت706ه/1306م)الجزء الرابع

من كتابه البيان المغرب، الذي حققه الدكتور إحسان عباس لدولة المرابطين، ويعد هذا الكتاب من أهم مصادر تاريخ المغرب والأندلس، واعتمد ابن عذاري على عدة مصادر يشير إليها في متنه، ومن بينها كتاب ابن صاحب الصلاة المفقود " ثورة المريدين "، وقد أفادني هذا الكتاب في التعرف على ولاة السلطة المرابطية بالأندلس وترتيبهم، كما غطى جانباً من العلاقات بين هؤلاء الولاة والمجتمع، وهو ما يمكننا من استقراء واقع العلاقة بين الطرفين.

4- **المقدمة:** لعبد الرحمن ابن خلدون (ت808هـ/1406م)تعد المقدمة من الكتب التي لازمت البحث في كل فصوله، لاشتمالها على الإشكالات التي يطرحها الموضوع، والمتعلقة بسياسة الملك وعلاقته بالاجتماع، كما أنّ ابن خلدون كتب مقدمته اعتماداً على تجارب الدول عموماً ودول المغرب والأندلس منها خصوصاً، فكان هناك تطابق في تحليل أسباب قوة الدولة وضعفها، على ما لاحظته فيما يخص السلطة المرابطية، واستعنت في قراءة المقدمة ببعض الكتابات التي تطرقت لدراسة أفكار ابن خلدون مثل كتاب " **الفكر الخلدو**ني" لمحمد فاروق النبهان، وكتاب " **فكر ابن خلدون العصبية والدولة**" لمحمد عابد الجابري، وكانت هذه الدراسات قد أفادتني في فهم ما تعلق بأسس قيام الدولة وأسباب سقوطها، متطرقة لذلك بالشرح والتحليل.

ب -كتب الفقه والنوازل

إلى جانب الكتابات التاريخية والفكرية هناك مصدر آخر لا يقل أهمية في رسم الصورة الدقيقة للمجتمع، وهي **كتب النوازل والحسبة** : يعتبر تصويرها لمظاهر الحياة العامة في المجتمع أكثر دقة ووضوحًا من غيرها من المصادر، لتميز أصحابا بالعلم والنظرة الدقيقة، كما أن موقعهم القريب من المجتمع سهّل لهم تصوير يومياته، وأهم القضايا التي تعرض للاستفسار بالإضافة عرضهم لـ اعاتم على أهل الفتيا والحسبة، واستطاعت هذه المصادر الدفينة أن تصور مقاطع هامة من الحياة الاجتماعية في عصر المرابطين، كما أنا تبنت بعض المواقف السياسية للعلاقة التي ميّزت الفقهاء بالسلطة المتغلبة عموماً، والسلطة المرابطية خصوصاً ومن بين الأسماء التي أوردها في هذا التخصص:

5- **فتاوى ابن رشد** للإمام الفقيه،محمد بن أحمد بن محمد، أبو الوليد بن رشد المعروف بابن رشد الجد (ت520هـ/1126م) ويرجع الفضل في جمع مخطوطاتا لمختار الطاهر التليلي تحت اسم " **فتاوى ابن رشد** " لقد صور لنا ابن رشد جانباً من الحياة الاجتماعية، كما تطرق من حين لآخر إلى قضايا أهل الذمة فبين لنا موقف السلطة من أصحاب المذاهب غير المالكية الفقهية

والعقدية، كالمذهب الظاهري والمعتزلة والأشعرية، كما أثبتت هذه الفتاوى تسامح السلطة مع أهل الذمة، حين أدرجت نوازل تثبت التجاور والتعايش بين المسلمين وغيرهم من عناصر المجتمع من نصارى ويهود، وتسامح السلطة معهم، وحماية حقوقهم، ويتجلى ذلك في تراجع الإمام ابن رشد في حكم لصالح نصراني بعد أن ثبت أن الحق لصالحه،كما لا أنسى الأثر السياسي للفقهاء عموماً، ولابن رشد خصوصاً ويظهر ذلك من مواقفه التي كثيراً ما كانت وبالاً عليه، وعلى غيره من الفقهاء؛ ومن أهم القضايا تلك التي تمس ملكية العقار، وهذه الأمثلة على سبيل المثال لا الحصر.

6- "**المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب**": للونشريسي أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد (ت 914 هـ/1514م) قام الونشريسي في المعيار بجمع الفتاوى التي عرفتها بلاد الأندلس والمغرب وافريقية، فكان جهده في الجمع قد أخذ منه شباب عمره ليجمع لنا حصيلة سبعة قرون من الفتاوى والقضايا المطروحة، فكانت موسوعة فقهية للنوازل وأحكام الفقهاء في شؤون الدين والدنيا، وأخذ علماء عصر المرابطين نصيباً وافراً من المعيار، إذ أورد النوازل التي أفتى فيها الفقيه ابن الحاج محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبي المعروف بابن الحاج الشهيد (ت529هـ/1134م) و نوازل ابن سهل(ت 486هـ/1093م) من علماء وقضاة المرابطين، والإمام الفقيه القاضي أبو الوليد ابن رشد الجد، أما فيما يخص ما أفادتني به هذه الموسوعة، فأذكر أولاً أنها سهلت لي الوصول إلى النوازل المعروضة على الفقهاء الذين سبق ذكرهم، والتي تمس ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الأندلس، وخاصة العلاقات بين المسلمين مجتمعاً وسلطة وأهل الذمة، وبيان أحكام الدين فيها، وذلك بعد تأصيل القضايا من الكتاب والسنة، ومما أذكره على سبيل المثال قضية أهل الذمة والتعامل معهم، وما لهم وما عليهم من الالتزامات والحريات والممنوعات، وذلك بعد التفريق بين ما فُتح عنوة وما فُتح صُلحاً، وبينت مادته أوضاع أهل الذمة في الغرب الإسلامي، فكان معيار الونشريسي مصدراً أساسياً انطَلَقَ من خلاله كثير من دارسي المجتمع والتاريخ في الغرب الإسلامي.

ج - كتب الجغرافيا

إلى جانب ما سبق من تخصصات ساهمت في كشف تاريخ الغرب الإسلامي، فإنّ كلّ ذلك ُيعد مبتوراً إذا لم يقترن بمعرفة وافية للأقطار والمدن التي كانت مسرحاً للأحداث فاستعنت بكتابات أهم الجغرافيين الذين كانوا قريبين زماناً ومكاناً لدولة المرابطين، وقمت بإعطاء لمحة جغرافية عن جل المدن والمناطق التي ذكرتها، ومن الكتب التي استخدمتها أذكر:

7- **المسالك والممالك**، للبكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي (ت487هـ/1094م)والكتاب من تحقيق أدريان فان ليوفن و أندري فيري، وهو كتاب في جزأين، اشتمل على ذكر بلاد المغرب، وتكمن أهمية الكتاب في كون مؤلفه كان قريباً من المرابطين، خاصة في مرحلة التأسيس، فكان إلى جانب ذكره لأوصاف البلاد، فإنه كان يسرد الأحداث التاريخية، وانفرد في نقد مؤسس الدولة المرابطية" عبد الله بن ياسين"، ومنهاجه في التأسيس ومما انتقده فيه: أخذه لثلث الأموال المختلطة من أصحاب الأراضي التي فتحوها، والقيام بتأديب كل من يدخل في دعوته على أساس تطهيره من الذنوب، وذلك بضربه بالسوط وضرب كل من يتخلف عن صلاة الجماعة، وكل ذلك لم يكن له أساس في الدين، فلم يمر البكري مرور الكرام مثل غيره على هذه الأعمال، بل لاحظ هذه المخالفات وانتقدها، ولم يقف عند هذا الحد بل وصف ابن ياسين بالجهل لقيامه بأعمال تنافي ما جاء في الدين، ويدل ذلك على روح النقد من جهة، كما يدل على أنه كان يكتب وهو بعيد عن السلطة المرابطية.

8- **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس،** مقتبس **من كتاب نزهة المشتاق** في **اختراق الأفاق** للإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحمودي(ت564هـ/1169م) تقديم إسماعيل العربي واقتبس جل ما له علاقة ببلاد المغرب والأندلس، أفادني هذا الكتاب في إعطاء صورة واضحة عن الأندلس في عصر الملثمين، بوصفه لمدنها ونشاطات سكانها، وارجع الإدريسي النشاط الذي عرفته المدن الأندلسية، إلى سياسة إبطال المكوس، ولعل ابن أبي زرع في كتابه " الأنيس المطرب" اعتمد عليه في ذلك، واستطاع الإدريسي أن يكمل ما كان ناقصاً بالنسبة لكتاب البكري" المسالك والممالك" فيما يخص المادة المتعلقة بجغرافية الأندلس.

د – الدراسات والأعمال الجامعية

لقي تاريخ المرابطين اهتماماً كبيراً من قبل الباحثين والدارسين، و لعل من أهم المراجع التي تتصل اتصالاً مباشراً بالموضوع هي المراجع التالية وأهم خصائصها:

1. كتاب "**قيام دولة المرابطين**" لحسن أحمد محمود –الذي سبق ذكره- ويعد من السابقين الأوائل في خوض غمار البحث فيما يتعلق بالمرابطين، وهذا الكتاب يمثل قاعدة الانطلاق في البحث للتعرف على أطوار تأسيس الدولة المرابطية، كما كان مصدر انطلاق لكل من تكلم عن تاريخ المرابطين، أفادني في التأريخ السياسي لمراحل نشأة الدولة وتطورها، وله الفضل والسبق في قراءة المصادر المرابطية، ونقدها ومقارنتها، فكان قد عبد الطريق في دراسة المرابطين لكل من أراد أن يسلكها.
2. عمل الأستاذ الدكتور محمد الأمين بلغيث بعنوان **"الحياة الفكرية بالأندلس** في **عصر المرابطين":** وهي تثبت أن عصر المرابطين بقدر ما كان عصر السيف كان عصر القلم، وفي ذلك رد على كل من اتهم المرابطين ببعدهم عن العلم والعلماء، فكانت الرسالة ترتكز في دعم أرائها بما أوردته المخطوطات والمطبوعات التي خلفها عصر المرابطين فكانت خير شاهد، قام أستاذنا بعملية مسح لكل ما يتصل بالحياة الفكرية في عصر المرابطين في شتى العلوم والتخصصات، فكانت بمثابة الموسوعة الفكرية لعصر المرابطين، أفادتني الرسالة في تأصيل للقضايا المطروحة، والإحالات للكم الهائل من المصادر والمراجع فكنت أعتمد على الرسالة في إيراد ما لم أصل إليه من هذه المؤلفات، كما أفادني في القضايا الجدلية المتعلقة بقضايا الجدل الديني، بالنسبة للمسلمين وغيرهم، كما وقف أستاذنا على بعض المنتجات الفكرية التي لقيت معارضة من قِبل فقهاء المرابطين، ككتاب إحياء علوم الدين، فرأيت أنّ مثل هذه السياسات قد كانت وبالاً على الدولة، إذ استغلتها الأطراف المعادية لها، ولا يمكننا أن نقول إنها قد صدرت بمعزل عن السلطة، وذلك لأنني أرى أن الأمراء قد منحوا الفقهاء تفويضاً شبه مطلق في إدارة شؤون الدولة.
3. أعمال الباحث الأستاذ الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش القَيِّمَة حول الحياة الاجتماعية في عصر المرابطين، لقد استطاع الباحث أن يسد فراغاً في الجانب الاجتماعي الذي كان ينقص الدراسات السابقة، تميزت أعماله بالرجوع إلى مصادر دفينة ومخطوطات ثرية بدقائق المجتمع فدرس التركيب السكاني، والعلاقات والذهنيات والعادات المنتشرة، وبما أن هذه الأعمال تطرقت لمجتمع المغرب الأقصى والأندلس عموماً، فقد أخذت منها ما يخدم الموضوع بالنسبة للشق الأندلسي، أفادتني أعمال الباحث في رسم خطة العمل لدراسة الفصل الثاني الخاص بالمجتمع وعناصره، كما انه قد ضمّن بحثه صوراً لعلاقة السلطة بالمجتمع خاصة عند حديثه عن أهل الذمة، وكان في ذلك كثيراً ما يعطي مبررات لكل ما قامت به السلطة، وانتقد سياستها

المالية التي توصل إلى أنها تقوم على اقتصاد المغازي الذي لا يعرف ثباتاً، ويخلص إلى أنه أحد أهم أسباب الضعف في آخر الدولة.

4. أعمال الأستاذة عصمت عبداللطيف دندش ومنها **"الأندلس** في **نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني"** رسالة دكتورة، تناولت الباحثة النصف الأخير من عصر المرابطين، وتعرضت إلى جوانب سياسية وحضارية واجتماعية بالدراسة، كما استفدت من رسالتها للماجستير**" دور المرابطين** في **نشر الإسلام** في **إفريقيا"** وركزت في عملها هذا على فترة التأسيس للسلطة، وتوجه اهتماماتها نحو الجنوب لنشر الإسلام، أضيف إلى ذلك كتاب**"أضواء على المرابطين"** وهو عبارة عن قراءة تحليلية لبعض القضايا المطروحة في عصر المرابطي.

وفي الأخير أود أن أقول إنّ هذه مجرد محاولة لا تخلو من تقصير، لإعادة دراسة وتقييم دور السلطة المرابطية وعلاقتها بالمجتمع هذا الدور الذي تباينت الروايات حوله بين قادح ومادح، فأردت من خلال البحث أن أتجرد من كل أفكار مسبقة وأن أحلل جُلّ ما أوردته المصادر ليتجلى ما للسلطة المرابطية وما عليها ولعله هنا تكمن أهمية الدراسات التاريخية التي لا تتنكر للجهود البشرية وارثهم، كما أنها لا تعيد رسم الماضي على أنه صفحة بيضاء، وكل ذلك من أجل أخذ العبر.

وبالله التوفيق

الفَصْلُ التَّمْهِيدِيْ
أَوْضَاعُ المَغْرِبْ الأقصَى وَالأَنْدَلُسْ عَشِيَّةَ ظُهُورِ المُرَابِطِينْ ق (5 هـ / 11م)

المبحث الأوّل : أوضاع المغرب الأقصى عشية ظهور المرابطين

1- المغرب الأقصى جغرافيا وبشرياً
2- الواقع السياسي
3- الواقع الديني
4- الواقع الاقتصادي والاجتماعي

المبحث الثاني : أوضاع الأندلس عشية ظهور المرابطين

1- سقوط الخلافة الأمويّة
2- الواقع السياسي في ظل ملوك الطوائف
3- الواقع الاقتصادي و الاجتماعي

المبحث الأول : أوضاع المغرب الأقصى عشية ظهور المرابطين

إن دراسة موضوع ما دون وضعه في إطاره العام، من بيئة جغرافية وبشرية واجتماعية بالإضافة إلى ماضيه، تجعل الموضوع منفصلاً عن جذوره، ومسبباته ومنه لا يمكننا تحليله تحليلاً صحيحاً ودقيقاً،كما لا يمكننا تقييم نتائجه، وهو عين ما عبر عنه ابن خلدون في قوله:« لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة، وقواعد السياسة، وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب فيها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومن زلة القدم، والحيد عن جادة الصدق »[1]؛ لذلك رأيت ضرورة الوقوف على الأوضاع التي قامت عليها السلطة المرابطية، حتى يتسنى لنا فهم أُسُسِهَا وسياستها، وتقييم نتائجها والتحولات التي أدت إليها .

ونشأة هذه السلطة كانت في الصحراء الواقعة جنوب المغرب الأقصى، وكان امتدادها إلى الشمال أكثر منه إلى الشرق[2]، إذ وصل ذلك الامتداد شمالاً إلى بلاد الأندلس، ولذلك استهل هذا الموضوع بإعطاء صورة عامة ومختصرة عن أوضاع المغرب الأقصى والأندلس قبل ظهور السلطة المرابطية، حتى نتمكن من فهم العلاقة بين الأوضاع السائدة وقيام السلطة المرابطية وتفسير سياسة هذه السلطة، وعلاقتها بالمجتمع الأندلسي .

1/ المغرب الأقصى جغرافيا وبشريا :

تعددت أراء وأوصاف الجغرافيين لحدود بلاد المغرب من الجهة الشرقية، فهل تشمل مصر إلى جانب شمال أفريقيا، أم تشمل فقط إقليم برقة شرقاً، يحدده ابن خلدون - بعد أن يذكر عدة آراء لجغرافيين قدامى قائلاً :« وأما العرف الجاري لهذا العهد بين سكان هذه الأقاليم فلا يدخل فيه إقليم مصر ولا برقة إنما يختص بطرابلس و ما وراءها إلى جهة المغرب »[1].

---

(1) عبد الرحمان بن خلدون(ت808هـ/1406م)، **المقدمــة**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (1426هـ-1427 / 2006 م)، ص23.

(2) توقف الزحف المرابطي نحو المغرب الأوسط في تلمسان، وكانت لهم مناوشات مع الدولة الحمادية في بعض مناطق المغرب الأوسط، أنظر: ابن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1968م، 6/ 360، 381. حسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين** دار الفكر العربي- دون تاريخ الطبع ومكانه-ص 228. محمد الأمين بلغيث، **النظرية السياسية عند المرادي** المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص50.

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ص201 .

وبما أن مصر تُعَدُ من أقاليم المشرق أثناء عملية الفتح، فإن بلاد المغرب تشمل المنطقة الواقعة غرب مصر من طرابلس شرقاً إلى البحر المحيط (المحيط الأطلسي) غرباً، ومن البحر الرومي (البحر المتوسط) شمالاً إلى أواسط الصحراء الكبرى جنوباً [2] .

وأطلق الأوربيون مصطلح الغرب الإسلامي"*l'occident musulmans*"[3]وهو مصطلح يطلق على بلاد المغرب والأندلس معاً.

وبلاد المغرب تقسم إلى ثلاث مناطق: المغرب الأدنى"إفريقية "،والمغرب الأوسط "الجزائر" والمغرب الأقصى موطن نشأة دولة المرابطين، ومركز سلطتها "مراكش" [4].

يصف ابن خلدون المغرب الأقصى بأنه كالجزيرة لموقعه بين البحار والجبال، حيث يقع بين البحر المتوسط شمالاً والمحيط غرباً [5]، يمتد من وادي ملوية[6] وجبال تازة[7] من جهة الشرق، إلى أسفي[8] حاضرة المحيط وجبال درن[9] من جهة الغرب، بالإضافة إلى وادي ملوية الذي ينبع من

---

(2) ابن خلدون، نفس المصدر، ص194 وما يليها.

(3) حسين مؤنس، **تاريخ المغرب وحضارته**، ط1، العصر الحديث للنشر و التوزيع،(1412هـ/1992)،مج1، 1/ 17

(4) ابن خلدون، المصدر السابق،6/ 196، 197.

(5) ابن خلدون، المصدر السابق، ص 196.

(6) نر ملوية ينحدر بين الأطلسين الكبير والمتوسط ويصب في البحر الرومي، سكنت على ضفافه مكناسة ثم زناتة، وهو يقع آخر المغرب الأقصى، أنظر: ابن خلدون، المصدر السابق، 202/6. الصديق بن العربي، **كتاب المغرب**، دار الغرب الإسلامي، دار الثقافة، ط3 (1404 هـ/ 1984م)، ص 186 .

(7) تقع تازة ببلاد المغرب تفصل جبالها بين المغربين الأوسط والأقصى، بنيت عليها مدينة الرباط سكنتها قبيلة مكناسة، أنظر : محمد بن عبد المنعم الحميري، **كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت،1975 128. أنظر: الصديق بن العربي، المرجع السابق ، ص ص 95،94.

(8) أسفي مدينة ذات مرسى تقع على الشاطئ الأطلسي للمغرب الأقصى. أنظر: الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحمودي، **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق**، تقديم إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م، 123. الصديق بن العربي، المرجع السابق ،ص ص 61،60.

(9) درن جبل مشهور بالمغرب، يعرف بسقنفور وهو جبل عظيم في الصحراء مبدؤه من البحر المحيط في أقصى السوس، ويمر باتجاه المشرق مستقيماً حتى يصل إلى جبال أوراس وجبال نفوسة، يفصل بين الصحراء والساحل منه نر نفيس و –

أغمات، أبو عبيد الله البكري، كتاب **المسالك والممالك**، تحقيق أدريان فان ليوفن و أندري فيري، الدار العربية للكتاب قرطاج 1992م، 228/1. أنظر:الحميري، المصدر السابق، ص ص 235،234 .

جبال تازة ويصب في البحر المتوسط، يمر فيه النهر المعروف بوادي أم الربيع[1] منبعه من جبال درن ومصبه في المحيط من جهة الغرب كانت عليه ديار مكناسة وتسكنها قبيلة زناتة[2].

لعب هذا المجال الجغرافي دوراً في رسم مسار تاريخ شعوب بلاد المغرب الأقصى، لخصائص موقعه ومميزات جغرافيته التي فسرت كثيراً من الأحداث، فهي تقع بين ثلاث بيئات تفاعلت معها هي إفريقية والمغرب الأوسط شرقاً،واتصلت ببلاد الأندلس عبر المضيق شمالاً،أما جنوباً فهي تجاور السودان الغربي،فكان لها بذلك تأثير بالغ الأهمية،يتضح في تطورات أحداثها السياسية والاقتصادية .

عند قيام المسلمين بفتح بلاد المغرب، كان المغرب الأقصى يمثل قاعدة مقاومة الفتح، فلم يخضع للمسلمين بقوة السيف بل كان خضوعه بعد أن عرف أهله الإسلام واقتنعوا به فدخلوه طواعية[3]، ثم شاركوا مشاركة فعالة في مواصلة عملية الفتح نحو بلاد الأندلس، وإنقاذها من تحرشات النصارى حيث تم الاستنجاد بالمرابطين.

وفي مقابل ذلك فقد كان المغرب الأقصى أبعد المناطق عن التأثيرات الخارجية، فنجده في القرن الخامس لم يتأثر بمجيء أعراب بني هلال، ولم يتعرض إلى ما تعرضت له إفريقية من دمار، باستثناء ما سُجل من جراء قربه للأندلس، إذ انعكست عليه بعض المؤثرات الأندلسية خاصة في العهد الأموي.

وكان لتطرف المغرب الأقصى في الموقع دوراً في احتواء وقيام بعض الحركات السياسية والدينية معارضة كانت أو مؤيدة للخلافة، كدولة الأدارسة المؤسسة لفاس في الشمال، ودولة بني مدرار الصفرية في سجلماسة، ودولة المرابطين التي ظهرت بوادرها في الصحراء ودولة الموحدين التي ظهرت في جبال درن . وتشمل بلاد المغرب الأقصى ثلاثة أقاليم هي: إقليم التل الخصب المثمر كثير المياه في الشمال ولذلك كان محط أنظار مختلف القبائل، أما الإقليم الثاني فهو إقليم الجبال والهضاب، تسكنه قبائل متنقلة رعوية،أما الإقليم الثالث فهو الإقليم الصحراوي قليل المياه شديد الحر،وهذه الاختلافات الطبيعية أثرت في طبائع وخصائص ساكنيه البربر .

(1) أم الربيع نهر ينحدر من الأطلس المتوسط، يسقي سهول تادلا و دكالة والشاوية، أهم روافده وادي العبيد، أنظر: ابن خلدون، المصدر السابق،ص202، الإدريسي، المصدر السابق، ص140 . الصديق بن العربي، المرجع السابق،ص56.

(2) ابن خلدون، المصدر السابق ، ص 201.

(3) حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص18.

سكن البربر بلاد المغرب منذ القديم، وانتقل إليها العرب إثر عملية الفتح الإسلامي،وفي مراحل تلته بالإضافة إلى أقليات قليلة وُجدت نتيجة ظروف مختلفة منها:الفرس، الصقالبة،السودانيون وأهل الذمة[1] .

وكلمة "بربر" أختلف في أصلها، فهناك من أرجعها إلى أصل روماني، حيث أطلق الرومان كلمة "*Barbar*" على الشعوب الخارجة عن نطاق حضارتنا[2]؛ بينما فسّرها آخرون تفسيراً لغوياً عربيا، أي أن "البربرة" هي اختلاط الأصوات غير المفهومة ومنه يُقال: بربر الأسد، إذا زأر[3] ويبدو من خلال ما تقدم أن معناها يجمع بين الأصوات المرتفعة والتوحش، أطلقها الرومان على سكان المغرب استعلاءً على المغاربة وغيرهم من الشعوب تحقيراً لهم، وإشعارهم بالدونية.

وانقسم البربر إلى البرانس والبتر، وتعددت التفسيرات لذلك، فهناك التفسير الاجتماعي حسب الإقامة والنشاط الاقتصادي، إذ أن هناك قبائل البرانس التي سكنت المدن وامتهنت الزراعة[4] وقبائل البتر البدويون المتنقلون إلا أنه ليس كل البرانس مستقرين، فصنهاجة تنقسم إلى قسمين صنهاجة الشمال مستقرون في المغرب الأوسط أما صنهاجة الجنوب فبدويون يعيشون في الصحاري[5]. وهناك من يطرح فرضية الانقسام الثقافي، فيرى أن االقبائل الشمالية تأثرت بمظاهر الحضارة اللاتينية بحكم الاحتكاك بالرومان، أما قبائل الجنوب فكانت بعيدة عن ذلك[6] .

من خلال ما سبق يبدو أن الاختلاف الاجتماعي والاقتصادي في أنماط العيش والحياة، هو الذي ميز بين هذين العنصرين، فاستقر البرانس خاصة في المناطق الشمالية الساحلية والجبلية، عاشوا مستقرين معتمدين على الزراعة، وكانوا أكثر الناس مقاومة للفتح الإسلامي[7]، أما البتر فهم البدو الرحل، الذين اعتمدوا في عيشهم على الرعي، متنقلين عبر أراضي المغرب، عرفوا بروحهم القتالية[8]

---

(1) إبراهيم القادري بوتشيش، **مباحث** في **التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، دار الطليعة، بيروت ط1، بيروت، 1998، ص 45 .

(2) سعدون عباس نصر الله، **دولة المرابطين** في **المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين**،دار النهضة العربية،ط1(1405ه /1985 م) بيروت، ص11 .

(3) ابن خلدون ، **العبر** ، 6 / 176،177.

(4) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب** في **أخبار الأندلس والمغرب**، تح ج .س.كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، ط2 (1400ه/ 1980م)، 58/2.

(5) ابن خلدون،المصدر السابق،ص310. حسن أحمد محمود، المرجع السابق،ص30.الصديق بن العربي، المرجع السابق،ص196

(6) حسن أحمد محمود، المرجع نفسه .

(7) بوتشيش، المرجع السابق ،ص11.

(8) ابن خلدون، المصدر السابق، ص 119.

يتوزع البربر وقبائلهم عبر كل أراضي المغرب، أما عن المغرب الأقصى، فيورد ابن خلدون في معرض وصفه له بعض القبائل التي سكنته، قائلاً: «...فهي الأغلب ديار المصامدة، من أهل درن وبرغواطة وغمارة ...ومعهم عوالم من صنهاجة ومطغرة وأوربة وغيرهم »[1]. لقد قامت هذه القبائل البربرية بدور أساسي في التاريخ السياسي لبلاد المغرب الأقصى، وهذا ما نلاحظه في الوضع السياسي الذي كان سائداً.

2/الواقع الساسي :

ظهر المغرب الأقصى كقوة سياسية مستقلة ومؤثرة في تاريخ المغرب في ظل دولة الأدارسة التي قامت على سواعد البربر، بمبايعتهم لإدريس بن عبد الله، وتمكن الأدارسة من توحيد المغرب وأسسوا حاضرته فاس[2] .

عرف المغرب في ظل حكم الأدارسة استقرارًا سياسيًا بقضائهم على فتن الخوارج[3] وأصبحت فاس عاصمة للعلم والثقافة، ومهدت لقيام حضارة حتى إن المؤرخين لخصوا دور الأدارسة في أنهم بدؤوا ما أتمه المرابطون والموحدون من حضارة[4].

استمر حكم الأدارسة طيلة الفترة(172-363هـ/788-974م) إلا أن دولتهم سقطت إثر هجومات الفاطميين بقيادة حليفهم "أبو الفتوح بلكين بن زيري بن مناد"[5]، ودخلت بذلك بلاد المغرب عصرًا جديداً[6]، ميزته الفوضى وعدم الاستقرار، وذلك بسبب الصراع السياسي، وتعتبر هذه المرحلة من أكثر وأطول المراحل تدهوراً في تاريخه، وهي المرحلة التي سبقت ظهور المرابطين ودخلت بذلك عصرًا اُصطلح عليه "بعصر العواصف"[7]، الذي دام حوالي قرنين من الزمن، من سنة (296هـ/909م) إلى منتصف القرن (5هـ/11م)[8]، وكانت هذه التسمية لما ميّز هذا العصر من قلق وفوضى وحروب وتخريب ودمار وهجرات، شمل ذلك جميع الجوانب السياسية والدينية والاجتماعية

---

(1) ابن خلدون، المصدرالسابق، ص 119. أنظر: الصديق بن العربي، المرجع السابق،ص75.

(2) أنظر: سعدون عباس نصر الله، **دولة الأدارسة في المغرب** ، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1408، 1987، ص149.

(3) حسن أحمد محمود ، المرجع السابق، ص15.

(4) حسن أحمد محمود، المرجع نفسه.

(5) أبو الفتوح بلكين بن زيري بن مناد الحميري الصنهاجي، ويسمى أيضا يوسف استخلفه المعز بن المنصور العبيدي على افريقية، حكم مابين(361-373هـ) . ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد، **وفيات الأعيان وأنباء الزمان**، تح إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1994م، 1/ 286.

(6) سعد زغلول عبد الحميد، **تاريخ المغرب العربي** ، الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية، 1990، 3/ 501.

(7) حسين مؤنس، المرجع السابق، مج 1،1/ 13.

(8) حسن أحمد محمود، المرجع السابق نفسه.

وأرجع ذلك إلى سياسة الفاطميين في المغرب التي كانت مبنيةً على تحقيق الأطماع الخاصة والتوسع والتدمير، واستغلال سواعد أهل المغرب وثروات بلادهم التي استغلها الفاطميون في توسعهم شرقاً.

وعلى الرغم من انتقال الفاطميين إلى مصر سنة (362هـ/973م) فإن هذه الأوضاع استمرت على حالها، حيث تنازع على بلاد المغرب الأقصى ثلاثة أطراف، تمثلوا في بقايا الفاطميين وممثليهم في بلاد المغرب والأمويون في الأندلس، وقبائل زناته التي بقيت متصارعة إلى أن قامت السلطة المرابطية[1]

ومن مظاهر ذلك الصراع، أنه لما دخل خليفة الفاطميين أبو الفتوح يوسف بلكين بن زيري واستولى على فاس سنة (396هـ/979م) وقتل عاملها، ما أدى إلى فرار بني خزر المغراويين واستنجادهم بالمنصور بن أبي عامر في الأندلس فأجارهم، ومكّن زيري بن عطية الخزري المغراوي من دخول فاس، ودعا لهشام المؤيد وعقد له المنصور بن أبي عامر على المغرب الأقصى وما يليه من المغرب الأوسط[2].

ولما بسط زيري بن عطية نفوذه على المغرب الأقصى،طعن في المنصور بن أبي عامر واستنكر استبداده بحكم هشام المؤيد، وهو ما أدى إلى قيام حرب بينهما، قضت على زيري بن عطية وعلى ملكه وأخضع المنصور حُكم المغرب الأقصى له مباشرة، وولى على فاس واضح العامري[3]وخضع المغراويون من جديد إلى طاعة قرطبة، فولى المنصور بن أبي عامر على فاس المظفر بن زيري، وأخذ ابنه معنصراً رهينة بقرطبة.

لكن ما لبثت الفتنة أن ظهرت في الأندلس، وسقطت الدولة العامرية وتخلص المغاربة من هيمنة العامريين، لكن الأوضاع في المغرب لم تعرف استقراراً، حيث انتقل الصراع من صراع بين المغاربة وغيرهم من الفاطميين والأمويين، إلى صراع داخلي بين قبائلهم، فوقعت حرب بين اليفرنيين والمغراويين، تميزت بحدتا واستمراريتها، الأمر الذي أدى إلى الخوف وغلاء الأسعار وانتشار الماعة وصفها ابن عذارى قائلا:«جرت بين ذلك أمور وخطوب،لا يحسن ذكرها لشناعتها» [4] واستمرت الحرب بين الزناتيين حتى قدم المرابطون نحو الشمال[5]، يظهر من خلال هذه الأحداث أن الوضع

(1) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 656. الصديق بن الغربي ، المرجع السابق، ص17 .

(2) ابن خلدون، **العبر**، ص ص 249، 252. حسين مؤنس، المرجع السابق ، ص 657. سعد زغلول، المرجع السابق،ص ص 363، 498.

(3) ابن خلدون، **العبر**، ص279. حسين مؤنس، المرجع السابق، ص658. سعد زغلول، المرجع السابق، ص ص499 - 501

(4) ابن عذارى المراكشي ، **البيان المغرب**، 3/ 254. أنظر: سعد زغلول، المرجع السابق، ص504.

(5) حسين مؤنس، المرجع السابق ، ص659. سعد زغلول، المرجع السابق، ص 505.

السياسي في المغرب الأقصى لم يعرف هدوءً ولا استقراراً، وانعكس ذلك سلباً على مختلف الأوضاع والجوانب الأخرى، وهو ما جعل فقهاء سجلماسة[1] ودرعة[2] يخاطبون عبد الله بن ياسين[3] لنجدتم، وإقامة العدل فيهم، ورفع الجور الذي ارتكبه أمراء زناته في حقهم .

3/الواقع الديني :

كان المغرب الأقصى قبل النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، يعرف دعوات منحرفة عن الإسلام الصحيح، فظهرت بدع كثيرة تخالف ما جاء به الإسلام، واستطاعت بعض الدعوات أن تُكون كيانات سياسية تحتمي با،فأصبح حال المغرب الأقصى يشبه عصر ملوك الطوائف في الأندلس ومن هذه الكيانات قبائل غمارة في الشمال، وقبائل برغواطة[4] في الغرب، كما وُجدت طوائف الشيعة والرافضة والوثنيين في الجنوب .

امتد توسع غمارة[5] من الشمال إلى فاس جنوبا، وهي بطن من بطون مصمودة، ظهر فيهم المشعوذون، وصفهم ابن خلدون بأنم عريقون في الجاهلية، بل الجهالة، والبعد عن الشرائع بالبداوة والانتباذ عن مواطن الخير[6]، تنبأ فيهم رجل يعرف باسم"حاميم بن من الله"ولُقِّبَ بالمفتري وأجابه أناس كثيرون من غمارة وأقروا بنبوته ووضع لهم شريعة استهوتم برخصها، فجعل لهم الصلاة صلاتين، عند طلوع الشمس وعند غروبا، ووضع لهم قرآناً بلسانم [7]ومن تعاليمه أكل لحم أنثى الخ ير، وأسقط عنهم الحج والطهر بالوضوء، وحرّم عليهم الحوت حتى يذكى وحرّم بيض كل

---

(1) تقع سجلماسة في صحراء المغرب بينها وبين غانة مسيرة شهرين وبينها وبين درعة مسيرة خمسة أيام كثيرة النخل سكنتها أقوام من مسوفة ، يعود تأسيسها إلى أواسط القرن الثاني، بناها بنومدرار الخوارج الصفرية، وأسس با المهدي الفاطمي دولة الفاطميين، فتحها عبد الله بن ياسين، وقضى على أمرائها من بني خزرون. أنظر : البكري المصدر السابق،ص ص 836، 837. الحميري، المصدر السابق،ص ص 305-307. الصديق بن الغربي ، المرجع السابق ص228.

(2) درعة يطلق هذا الاسم على نر درعة، وتعد المنطقة محطة تجارية تشقها طريق القوافل القادمة من السودان في طريقها إلى سجلماسة، با تجار يهود، تكثر با صناعة المعادن، أنظر: الصديق بن العربي، المرجع السابق، ص 134.

(3) هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن علي الجزولي، قائد المرابطين أصله من قبيلة "تماماناوت" في طرف صحراء غانة في أحواز أودغشت، وقُتِلَ أثناء قتاله لبرغواطة.أنظر: البكري، المصدر السابق،859/2.

(4) برغواطة إمارة زناتية تأسست بالساحل الأطلسي، بين وادي أم الربيع ووادي سبو، في أوائل القرن الثاني، من زعمائها طريف وابنه صالح، وغيرهم ممن ارتد عن الإسلام ، وأسسوا ديانة جديدة قضى عليهم المرابطون. أنظر: البكري، المصدر السابق، ص776 وما يليها.الإدريسي، **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس**،ص139.ابن خلدون، **العبر**،428/6 وما يليها.

(5) ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ص 435.

(6) ابن خلدون، المصدر السابق ، ص ص 444، 445. البكري، المصدر السابق، ص776.

(7) ابن خلدون، المصدر السابق ،ص 446. البكري، المصدر نفسه.

طائر، تولى هذه الدعوة بعد مقتله في النصف الأول من القرن الرابع الهجري بأحواز طنجة،أحد أبنائه المدعو"عيسى"وكان مجتمعهم مجتمعاً إباحياً[1] استمرت بدعهم الى حين مجيء المرابطين[2]

أما برغواطة فقد ظهرت في القرن الثاني الهجري، مكونة دولة في إقليم تامسنا[3]حيث اجتمع مجموعة من البربر على شخص يهودي الأصل ادعى النبوة ، اسمه صالح بن طريف ابن شمعون[4] البرباطي نسبة إلى وادي برباط[5]، ثم حُرفَت إلى برغواطي[6]،يرى ابن خلدون أن برغواطة قبيلة مصمودية[7] تمتد لقبائل غمارة مستنداً على نظرية أن التغلب والسيطرة لا تتم إلا إذا كان المتغلب ينتسب إلى عصبية من قومه، واعتقد أتباعه أن "صالح بن طريف" هو المقصود بصالح المؤمنين الذي ورد اسمه في القرآن [8] وادعى زعيمهم أنه المهدي الذي يخرج في آخر الزمان لقتال المسيح الدجال، وأن عيسى بن مريم يكون من أصحابه ويصلي خلفه[9] ومن أهم ما شرعه لأتباعه صوم رجب وأكل رمضان،وفي الوضوء غسل السّرة والخاصرتين وفرض عليهم خمس صلوات في الليل ووضع قرءاناً بالبربرية في ثمانين سورة ،أكثرها منسوب إلى أسماء النبيين، أولها سورة أيوب، وآخرها سورة يونس[10] أباح لهم الزواج بأكثر من أربع نساء وحرّم زواج بنت العم،وزواج المسلمات وأجاز قتل السارق، لا أذان في الصلاة ولا إقامة بل صياح الديوك، ويظهر من تعاليمهم أنا جاءت مستمدة من الفكر اليهودي الذي يعمل من أجل تشويه الإسلام وتدل على ذلك قرائن كثيرة منها

---

(1) البكري، المصدر السابق، ص 779.

(2) ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله ، **الأنيس المطرب بروض القرطاس** في **أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** دار المنصور للطباعة والورق، الرباط، 1973، ص130. احمد مختار العبادي،في **تاريخ المغرب والأندلس**، دار النهضة العربية، بيروت، 1978، ص 278.

(3) تامسنا اقليم واقع بشاطئ المحيط، من نهر أبي الرقراق إلى أم الربيع، كانت مركزاً لدولة برغواطة، منذ القرن الثاني الهجري التي حاربها الادارسة الزناتيون والمرابطون. أنظر: الصديق بن العربي، المرجع السابق، ص 97.

(4) ابن خلدون، المصدر السابق، ص429.

(5) برباط واد بفحص شريش، من بلاد الأندلس، ابن خلدون، المصدر السابق، 435/6.

(6) ابن خلدون ، المصدر السابق، 435/6. العبادي، المرجع السابق، ص 279.

(7) ابن خلدون، المصدر السابق، ص428 .

(8) قال تعالى: إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ سورة: **التحريم**، الآية:4 .أنظر: البكري، المصدر السابق، ص820.

(9) ابن خلدون، **العبر** ، ص429. البكري، المصدر نفسه.

(10) البكري، المصدر السابق، ص824.ابن خلدون، المصدر السابق، ص429. الصلابي، محمد علي، **الجوهر الثمين** في **معرفة دولة المرابطين**، مكتبة الإيمان، القاهرة، ط1، (دون سنة طبع)،ص81 . العبادي، المرجع السابق، ص281.

استعمالهم كلمة "ياكش" التي تعني النبي اليهودي يوشع، وتربية شعورهم على شكل ضفائر، وهي عادة متبعة عند اليهود بالإضافة إلى التعاليم الأخرى كتحريم البيض وتقديس الديك وتقديم النبي موسى على النبي عيسى؛ وبسبب تشويههم للدين الإسلامي، وانحرافهم عنه فقد قاتلهم كل الذين تعاقبوا على حكم المغرب من أمويين وأدارسة وفاطميين وحماديين وزناتيين ولكن لم يتم استئصالهم إلا في النصف الثاني من القرن (5هـ/11م) على يد السلطة المرابطية[1] .

أما الشيعة فأقلية مبعثرة، استوطنوا الجنوب بإقليم السوس في مدينة تارودانت[2] ونواحيها عُرِفُوا بالبجليين نسبة إلى عبد الله البجلي النفطي التونسي، ترجع جذورهم إلى الدولة الفاطمية، كان هؤلاء الشيعة من أتباع الفكر الرافضي الذين تميزوا بعدائهم المستمر لجيرانهم المالكيين وحكوماتهم السنية [3]

من خلال ما تقدم، يمكن القول إنّ المغرب الأقصى مرّ بمرحلة سادت فيها مظاهر الجهل والبدع، وانتشار لأصحاب الفكر والمذاهب المعادية للإسلام من الذين وقفوا ضد عملية الفتح وبقاياهم إضافة إلى الجهلة الذين سهل انقيادهم ضمن طوائف الانحراف الديني الذي أثر في مجتمع المغرب،وكل ذلك يرجع إلى الفراغ السياسي الذي حلّ محله الصراع والتنافس وحالة عدم الاستقرار لعدم وجود سلطة قوية توجه السياسة الداخلية، وانعكس هذا الوضع السياسي على المجال الثقافي فَعُدمت المراكز العلمية والثقافية و خلى الجو لهؤلاء المبتدعة في نشر أفكارهم التضليلية.

4/ الواقع الاقتصادي والاجتماعي:

إن البيئة الصحراوية والموقع الجغرافي تَحكما في نوع النشاط الاقتصادي وأنماط الحياة الاجتماعية في بلاد المغرب الأقصى، حيث يمتد عبر أراضي تقل خصوبتها كلما اتجهنا نحو الجنوب حيث الصحاري والجفاف، انتشرت أنواع مختلفة من الزراعات في الشمال، أما أهل الصحاري يصفهم البكري بإنهم لا يعرفون حرثاً ولا زرعاً ولا خبزاً، وإنما أموالهم الأنعام، وعيشهم من اللحم واللبن [4]،إلا أن الصحراء تتخللها بعض الواحات التي يتجمع حولها السكان فيقومون ببعض الزراعات خاصةً زراعة الشعير، إذ كان طعام أهل المغرب من خبز الشعير [5]ومن أهم هذه الواحات

---

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، 434/6،433. العبادي، المرجع السابق ،ص283. محمد الأمين بلغيث، **الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين،** رسالة دكتورة نوقشت بقسم التاريخ، الجزائر،(1424هـ/2003م)،54.

(2) تارودانت قرية كبيرة جدا ببلاد السوس كثيرة السكر ومنها ينقل الى كل المغرب والأندلس، با جنان وبساتين، وصناعة المعادن، أنظر:الإدريسي، المصدر السابق،ص143. الحميري،المصدر السابق، ص330.

(3) البكري، المصدر السابق، ص852. العبادي، المرجع السابق، ص290 .

(4) البكري، المصدر السابق، ص857. الحميري، المصدر السابق، ص128. ابن خلدون، **العبر**، 370/6.

(5) سعدون عباس، **دولة المرابطين**، ص14.

واحة سجلماسه التي كانت غنية بالنخيل حتى شبهها ابن بطوطة بالبصرة[1]، اهتم أهل المغرب بتربية الأنعام خاصة الإبل التي استخدمت في أعمال مختلفة كالنقل والتنقل،كما يأكلون لحمها ويشربون لبنها[2]ويستفيدون من وبرها، وإلى جانب الزراعة اهتموا بالصناعات المختلفة،فكان أهل الصحراء يعتمدون على أنفسهم في صناعة ضرورياتم من السروج، والأسلحة وذلك لمواجهة خطر الوثنين من السودان وغانة، كما كانت هناك الصناعة الغذائية كاستخراج الزيت للطهي والإنارة، وصناعة السكر من القصب، والألبسة المنسوجة من الوبر والصوف،ومن بين أهم هذه الصناعات في الصحراء استخراج الملح الذي كان له دور كبير في تجارة المغرب مع السودان الغربي.

واعتبرت التجارة من ركائز الاقتصاد المغربي، وذلك لموقعها الرابط بين الشمال والجنوب حيث عرفت عدة مراكز كأسواق تجارية، ساهمت في ظهور المدن، وتوفير الأموال، كما كانت هذه التجارة وسيلة هامة في نشر الإسلام في إفريقيا، من خلال أخلاق وتعاملات التجار المسلمين، فكان يتم تصدير الملح ومقايضته أو بيعه مقابل الذهب، بالإضافة إلى لعب دور همزة وصل بين المشرق والأندلس وبين الأندلس والسودان، حيث عرفت ثلاثة مسالك تجارية، ومن بين أشهر الأسواق أودغشت [3]، أغمات[4]، أسيلا[5] .

أما من الناحية الاجتماعية، فبلاد المغرب، كما ذكرت آنفا، كانت مقسمة إلى قبائل بدوية متنقلة في الهضاب والصحاري يتجهون صيفا إلى الشمال بحثا عن الماء والكلأ ويعودون شتاءً، أما الصنف الآخر فقد استقر في السهول الساحلية ذات المناخ المعتدل والمياه الوفيرة، فكانوا يعتمدون في عيشهم على الزراعة والصناعة . هذا التباين أدى إلى حدوث مواجهات بين البدو المتنقلين سعياً وراء الماء والكلأ وبين المستقرين من أصحاب الأراضي الخصبة، فكان هذا الصراع شديداً بين القبائل، أدى إلى الفتن وعدم الاستقرار والهجرة، ووصل هذا التناحر إلى حد قيام تحالفات بين القبائل ضد

---

(1) ابن بطوطة، **تحفة النظار** في **غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، دار بيروت للطباعة والنشر،(1400هـ/1980م)ص 673

(2) البكري، المصدر السابق، ص857.

(3) أودغشت مدينة بين صحراء لمتونة والسودان منها الى غانة اثنتا عشرة مرحلة انظر: البكري، المصدر السابق،ص ص 848 849. الحميري، المصدر السابق ، ص ص63، 64.

(4) أغمات عبارة عن مدينتين متقابلتين، احداهما تدعى أغمات أوريكة، والأخرى أغمات هيلانة، تقع قرب وادي درعة بينها وبين السوس ست مراحل أهلها تجار مياسير يدخلون بلاد السودان بقناطير الأموال من النحاس و الألبسة والعطر والأحجار أنظر :البكري، المصدر السابق، ص842. الإدريسي، المصدر السابق،ص ص 143، 144.الحميري، المصدر السابق،ص ص 47،46 الصديق بن العربي، المرجع السابق ،ص ص 58،59.

(5) أسيلة (أصيلة) مدينة ساحلية قرب طنجة وهي محدثة، اتخذت رباطا سرعان ما أصبحت مدينة عامرة يقصدها الناس من كل جهة . أنظر:الحميري: المصدر السابق، ص42. الإدريسي، المصدر السابق، ص250.

بعضهم البعض.

واستُغِلّ هذا الصراع من أصحاب المذاهب السياسية والدينية من أجل تحقيق المصالح المشتركة بين القبيلة والمذهب[1] فتكون القبيلة سنداً للدعوة السياسية أو الدينية، حتى ينتهي بنا الأمر إلى قيام الدولة فتؤلف القبائل المنتصرة وتحقق أهدافها وأطماعها، وتقضي على القبائل الأخرى وتخضعها لسيطرتنا، وترغمها على دفع الضرائب؛ وتشكل القبائل المنتصرة الجيش الذي يستفيد من مداخيل الدولة، ويصبح بقاء هذه الدولة مرهونا بقوة هذه القبيلة، فإذا انارت القبيلة، انارت الدولة لتفسح المال لقبيلة أخرى ودولة أخرى، ومن الأمثلة على ذلك التنافس الذي كان بين صنهاجة ومصمودة ما تجلى فيما بعد بظهور دولتي المرابطين والموحدين[2] .

إن الصراع بين القبائل بمختلف أنواعه، سواءً كان بين البدو والحضر أو بين القبائل التي تساعد هذه الدعوة أو تلك، يبقى الصورة العامة التي ميزت المغرب، والتي لم تتخلص منه منذ ما قبل الفتح الإسلامي بين البتر والبرانس، ولما دخل الفاتحون بلاد المغرب اختلفوا في موقفهم، حيث نجد أن زناتة البترية قاومت الفاتحين أول الأمر ثم حالفتهم[3]أما البرانس فقاوموه واستمروا في ذلك حتى تمكن منهم المسلمون، فانتقل الصراع من لون اجتماعي إلى لون مذهبي سياسي، ولما تمكن الإسلام من قلوبهم حالف البتر بني أمية، أما البرانس فتعصبوا للأدارسة، وقامت الدعوة الفاطمية على أكتاف البرانس من كتامة وصنهاجة ولذلك كانت هجوماتهم مستمرة على الزناتيين، وأخذ الصراع طابعًا سياسيًا بين الأمويين والفاطميين فالاختلاف بين البرانس والبتر يفسر كثيراً من الأحداث التي وقعت في بلاد المغرب [4].

وضمن قسمي البرانس والبتر تتعدد القبائل البربرية، فيشمل البتر قبائل من بينها زناتة[5] زواغة، زواوة، نفزة، لواتة، مزاتة، نفوسة، مغيلة، مطماطة، مطغرة...[6] ينتشرون في أرجاء كثيرة من المغرب من طرابلس إلى تازة وفي الأقاليم الجنوبية من غدامس الى السوس الاقصى، ومن أشهر هذه القبائل "زناتة " التي عرفت بروحها الحربية ولذلك لعبت دورا هاماً في تاريخ المغرب[7] ، أما

(1) ابن خلدون، **المقـدمة** ، ص 170 .

(2) ابن خلدون، المصـدر السابق، ص152. حسن محمود، المرجع السابق ،ص27.

(3) محمد بن عميرة، **دور زناتة في الحركة المذهبية في المغرب الإسلامي**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، 32 .

(4) حسن محمود، المرجع السابق، ص32.

(5) محمد بن عميرة، المرجع السابق، ص 17.

(6) ابن خلدون، العبر، 178/6، 179.

(7) أنظر حول دور زناتة في المغرب: محمد بن عميرة، المرجع السابق.

قبائل البرانس فهم أيضا كثيرون ينتشرون عبر أراضي المغرب، تمركزت هذه القبائل في المناطق الخصبة الشمالية وعبر السواحل،كما وُجِدَتْ في الصحاري، ومن بين هذه القبائل أزداجة، مصمودة صنهاجة، كتامة، أوربة، عجيسة، أوريغة، غمارة، برغواطة،لمطة هسكورة كزولة [1]. وتعد صنهاجة من أكبر قبائل البرانس عدداً وقوة، قيل إن قبائلها بلغت السبعين، يصفها ابن خلدون بقوله : « من أوفر قبائل البربر، وهم أكثر أهل المغرب لهذا العهد، وما بعده ولا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط، حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلث من البربر،وكان لهم في الحروب ذكر، وفي الخروج على الأمر شأن » [2]. وتوزعت قبيلة صنهاجة بين المغرب الأوسط كبني زيري في شماله، والملثمين المؤسسين للسلطة المرابطية في جنوب المغرب الأقصى وسنعود للحديث عن هذه القبائل بنوع من التفصيل فهي العنصر البشري والمحرك لأهم أحداث الموضوع مدار البحث .

إضافة إلى الانقسام القبلي نجد انقساماً طبقياً في المجتمع فازدهار التجارة عند سكان المغرب الأقصى أدى إلى ظهور طبقة من الأثرياء تكدست لديهم الأموال، وعلى رأسهم الأمراء، استغلت هذه الطبقة منصبها للحفاظ على مصالحها، وامتلكت الأراضي الزراعية، ومناجم الملح والأنعام وغيرها أما الطبقة الأخرى فهي طبقة العامة من الكادحين والفقراء، تسكن منازل بسيطة، يشتغلون لحساب الطبقة الأولى ويُرغمون على دفع الضرائب .

أما الفقهاء باعتبارهم فئة من فئات المجتمع فقد انقسموا إلى قسمين [3] قسم اهتم بتحقيق مصالحه الخاصة عن طريق وقوفه إلى جانب الأمراء ومساندتهم، وقسم استاء من انتشار الفوضى والفساد والانحراف عن تعاليم الدين فكان يسعى للإصلاح، والبحث عن من يُنجدهم، مثلما فعل علماء سجلماسة بدعوتهم لابن ياسين إمام المرابطين .

توضح لنا هذه الصورة الموجزة عن أوضاع المغرب، أنه بزوال سلطة الأدارسة، تدهور الوضع العام بسبب سياسة الفاطميين وصراعهم مع الأمويين على السلطة، الأمر الذي أدى إلى عدم الاستقرار وعلى الرغم من رحيل الفاطميين إلى مصر، إلا أن الوضع بقي متدهوراً، بسبب استمرار التنافس والمواجهة بين خلفاء الأمويين من العامريين في الأندلس، والزناتيين في المغرب، ثم انحصر الصراع بين الزناتيين أنفسهم بسبب غياب السلطة القوية التي تفرض الأمن والاستقرار، وانعكس هذا الوضع السياسي على المجالات الأخرى سلباً حيث ضعفت السلطة الروحية، وفسح المجال لأهل

---

(1) ابن خلدون، **العبر**، 177/6.

(2) ابن خلدون، المصدر السابق،309/6 .

(3) سعدون عباس، المرجع السابق،ص 18.

البدع والأهواء لنشر فتنهم وتنبؤاتم فحلت محل تعاليم الإسلام الصحيح فأدى ذلك إلى الانحراف الاجتماعي، وظهور معتقدات فاسدة وإباحية في بعض المناطق، كما برزت الطبقية ومنها طبقة الفقراء التي تكدح من أجل نمو ثروة طبقة الأثرياء، وهذا التنافر ساهم في انتشار الفوضى حيث كانت تعم بلاد المغرب الأقصى، وهو ما أدى ببعض رجال الدين للسعي لإنقاذ البلاد، وإصلاح الوضع، من خلال دعوة دينية إصلاحية وحدوية مثلتها سلطة المرابطين .

المبحث الثاني : أوضاع الأندلس عشية ظهور المرابطين.

1/ سقوط الخلافة الأموية:

إن وضع الأندلس قبل حكم المرابطين يشبه إلى حد بعيد الوضع في المغرب الأقصى، خاصة في الجانب السياسي حيث خضعت الأندلس إلى سلطة حكام، أصطلح على تسميتم بأمراء أو ملوك "الطوائف"، ساهم هذا الوضع مساهمة كبيرة في توسيع نفوذ السلطة المرابطية نحو الشمال لتشمل بلاد الأندلس إلى جانب المغرب، وقد لعبت السلطة المرابطية دوراً كبيرا في التصدي لحركة الاسترداد المسيحي، والقضاء على الأوضاع السائدة، وإناء سلطة ملوك الطوائف لتبدأ العلاقة الجديدة بين السلطة المرابطية والمتمع الأندلسي .

إن ضعف الخلافة الأموية فسح الال للصراع السياسي على السلطة واستطاع المنصور ابن أبي عامر أن يحافظ على الخلافة باسم الأمويين، لكن بوادر التنافس، وَتَحُيْنْ الفرص للانقضاض على السلطة تيأت خاصة بعد أن طمع عبد الرحمن بن المنصور في الخلافة،وهو ما جعل الأموين ينقلبون عليه، فخلعوا هشاماً[1] وولوا أحد أحفاد الناصر وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ولقبوه بالمهدي[2] وانتهت دولة بني عامر بمقتل ابنه عبد الرحمن بن المنصور سنة399ه/ 1008م إلا أن الخليفة الجديد لم يتمكن من التحكم في الأوضاع، فكانت هذه الفترة مليئة بالفوضى وعدم الاستقرار وتيأت الطوائف الموجودة عبر أراضي الأندلس إلى الصراع فيما بينها[3] .

(1) هو هشام بن الحكم (أبو الوليد، المؤيد) ، ولي الحكم وعمره عشرة أعوام، تغلب عليه أبو عامر محمد بن أبي عامر المنصور فكان يتولى جميع الأمور إلى أن مات، وتغلب من بعده ابنه ابنه عبد الملك الملقب بالمظفر، وتولى من بعده أخوه عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر وتسمى ولي العهد فقام عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر سنة (399ه/1008م) أنظر: الضبي، **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس**، تقديم وشرح صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، ط1، (1426ه/ 2005 م)، ص29.

(2) تولى الحكم بعد خلعه هشام بن الحكم، ثار عليه البربر عدة مرات حتى قتل. أنظر: الضبي، المصدر السابق،ص 30.

(3) خضعت الأندلس لحكم سليمان بن الحكم المستعين، بدعم من عساكر البربر الذين زاد نفوذهم في الأندلس، وكان من رجاله رجلان ينتسبان إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، أحدهما علي بن حمود الذي ولي سبتة وطنجة، أما القاسم بن

عاشت الأندلس في مطلع ق(5هـ/11م) سقوط الدولة الأموية، في عهد آخر خلفائها هشام الثالث "المعتد بالله"[1] (422هـ/1031م)، على إثر الفتنة البربرية [2]، ويبقى السؤال الذي يُطرح هنا: لماذا انتقلت الأندلس في ظرف وجيز من مرحلة قوة إلى مرحلة ضعف و من وحدة إلى انقسام على الرغم من أنها عرفت خلفاءً أقوياء في العقود الأخيرة من القرن الرابع الهجري، أمثال "عبد الرحمن الناصر" و"الحكم المستنصر" و الحاجب"المنصور ابن أبي عامر" ؟

إن هذا التحول العميق في الواقع السياسي الأندلسي إنما يدل على أن بذور الأزمة كانت قديمة ولكنها مستترة،يرى الأستاذ عبد الله عنان أن هذه الأزمة تمثلت أساسا في التمييز الذي كان بين مختلف القبائل والعصبيات المُشَكلة للمجتمع الأندلسي منذ أن وطئت أقدام الفاتحين أرض الأندلس، واستمرار حركة الوافدين إليها من كل حدب وصوب ومن كل جنس وقوم، ومارس هذا التمييز الخلفاء والولاة بتقريب قبيلة على أخرى، حيث كان كل خليفة يعتمد في حكمه على فئة معينة دون غيرها، ما أدى إلى احتقان العصبيات المهمشة ضد السلطة، ظهر ذلك منذ عهد بني أمية باستئثارهم للسلطة وتميشهم لغيرهم، ومن الأمثلة على ذلك اندلاع ثورة المولدين والعرب في عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن (270- 300هـ/883- 912م) فاستقل العرب والبربر بنواحي كثيرة من الأندلس[3] . وإن استطاع الأمويون القضاء على هذه الفتنة إلا أنهم زرعوها من جديد، حيث اعتمد عبد الرحمن الناصر على الموالي الصقالبة، ومنحهم المناصب العليا، فأدى ذلك إلى تخاذل القبائل العربية في نصرته في موقعة الخندق سنة(327هـ/938م)[4]وحذا حذوه المنصور بن أبي عامر،

حمود فولي الجزيرة الخضراء، ثم دخل علي بن حمود مالقة، وزحف إلى قرطبة، وقضى على سليمان بن الحكم، وتسمى علي بن حمود بالناصر، وبقي على قرطبة شهرين إلى أن قتله الصقالبة سنة(408هـ/1017م) وترك من الولد يحي وإدريس، فولي بعده أخوه القاسم وتلقب بالمأمون وبقي إلى سنة(412هـ/1021م)ودخلت الأندلس في صراع أهم أطرافه البربر فيما بينهم إلى أن عاد الأمر إلى البيت الأموي في عهد عبد الرحمن بن هشام المستظهر. أنظر الضبي، المصدر السابق،ص31.

(1) هو أبو بكر بن هشام بن محمد المعتمد بن عبد الملك بن الناصر، بويع سنة(418هـ/1027م) ، تلقب بالمعتد، جرت في فترة حكمه فتن كثيرة، إلى أن قامت فرقة من الجند بخلعه، فكان آخر الحكام الأمويين. أنظر الضبي، المصدر السابق،ص37.

(2) الفتنة البربرية: بدأت بوادرها مع محاولة شنجول(تصغير شانجة) عبد الرحمن الابن الثاني للحاجب المنصور، أن يجمع في شخصه الخلافة والحجابة، فكان ذلك سبباً هاماً في اندلاع الفتنة في قرطبة، وعاشت على إثرها الأندلس في حرب أهلية دامت حوالي ربع قرن أهم أطرافها الحزب الأندلسي والحزب البربري، انتهت بسقوط الخلافة سنة(422هـ/1030م) ومن أهم نتائجها تفكك البلاد وتوغل النصارى فيها.أنظر: عبد الواحد المراكشي، **المعجب** في **تلخيص أخبار المغرب** شرح صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، ط1، (1426هـ/ 2006م)، بيروت،ص40 وما يليها.

(3) عبد الله بن محمد كان وادعا لا يشرب الخمر، في عهده امتلأت الأندلس بالفتن،تولى من بعده ابنه عبد الرحمن الناصر. أنظر الضبي، المصدر السابق، ص 25 .

(4) محمد عبد الله عنان، **دول الطوائف**، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثانية،(1389هـ/1969م)، ص11.

فقد همش العصبية العربية، وآثر قلة من الصقالبة العامريين، أما البربر فقد استغلهم في بسط نفوذه في المغرب الأقصى؛ إن هذه السياسة في التعامل مع العصبيات مهدت إلى بداية تمزيق الأندلس، وأدت في الأخير إلى القضاء على وجود الإسلام والمسلمين الذي دام قروناً من الزمن في الأندلس، وذلك بعد تغييب أساس من الأسس التي قامت عليها حضارة الإسلام، وأرساها النبي ﷺ لما دخل المدينة، ألا وهي المساواة بين المسلمين والقضاء على فتنة التعصب .

2/ الواقع السياسي في ظل ملوك الطوائف:

على اثر سقوط الدولة الأموية،دخلت الأندلس مرحلة جديدة ميزها الانقسام السياسي عرفت بعصر الطوائف، ودامت حوالي نصف قرن (422/487هـ-1031/1094م) فبعد أن كانت الأندلس جزءاً واحداً قُسمت إلى عدة إمارات تغلّب عليها، ولاة وأمراء ووزراء، وفقهاء،وذلك حسب طوائفهم عرباً، بربراً وصقلبياً، ومن أهم هؤلاء الأمراء[1] :

تغلب بنو ذو النون على طليطلة وأعمالها بقيادة أبي الحسن يحي بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن ذو النون وتلقب بالمأمون، أما قرطبة فملكها جهور بن محمد بن جهور، وملك بنو عباد اشبيلية وأعمالها، وأولهم القاضي أبو القاسم محمد ابن إسماعيل بن عباد اللخمي.

أما العامريون فملكوا الجهات الشرقية حيث تغلب زهير العامري على المرية، ثم ملكها خيران[2] ومن بعدهما أبو يحي محمد بن معن بن صمادح المتلقب بالمعتصم، واستولى مجاهد العامري على دانية وأعمالها وهو مولى لأبي عامر محمد بن أبي عامر، ثم من بعده ابنه علي بن مجاهد، وتغلب بنو هود على الجهة الشرقية من طرطوشة وأعمالها من سرقسطة، أما البربر فملكوا مالقة والجزيرة الخضراء، واستولى محمد بن عبد الله بن الأفطس المتلقب بالمظفر ومن بعده ابنه المتوكل على الجهة الغربية للأندلس من أعمال بطليوس ويابرة وشنترين والأشبونة.

تَسَمّى هؤلاء الأمراء المتغلبون بأسماء الخلفاء كالمتوكل والمعتضد والمعتمد والمعتصم والمستعين والمقتدر[3] وغيرها، حتى وصفهم ابن رشيق ساخراً منهم، متأسياً لما آلت إليه حال الأندلس قائلا:

---

(1) المراكشي، **المعجب**، ص ص60،61. انظر: ابن عذارى، المصدر السابق،155 وما يليها. ابن بسام، أبو الحسن علي الشنتريني،**الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، ط1(1419هـ/1998م). ص268. محمد الأمين بلغيث، **الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين**، ص72. الصلابي، المرجع السابق، ص105

(2) خيران وزهير العامريان مولا المنصور بن أبي عامر، ملكا المرية بعد الفتنة،(405-429) طبقا سياسة العدل والإحسان ودعم أسوار المدينة. ابن سعيد، علي المغربي، **المُغرب في حُلي المغرب**، تح تع شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ج1، ط3 1953م، 194/2،195. السيد عبد العزيز سالم، **تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس**، ص58

(3) ابن الكردبوس ، **تاريخ الأندلس**، تحقيق أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، 1971م، ص89.

مـا يزهدني في أرض أندلس سماع مقتدر فيها و معتضـد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاضا صولة الأسد

كما يصف ابن الخطيب الوضع الجديد قائلا: « و ذهب أهل الأندلس من الانشقاق والانشعاب والافتراق إلى حيث لم يذهب كثير الأقطار، مع امتيازها بالمحل القريب والخطة المجاورة لعباد الصليب، ليس لأحدهم في الخلافة إرث، ولا في الإمارة سبب، ولا في الفروسية نسب، ولا في شروط الإمامة مكتسب، اقتطعوا الأقطار، واقتسموا المدائن الكبار، وجبوا العملات، وجندوا الجنود وقدموا القضاة، وانتحلوا الألقاب، وأنشدهم الشعراء ودونت بأسمائهم الدواوين، وشهدت بوجوب حقهم الشهود، ووقفت بأبوابهم العلماء، وتوسلت إليهم الفضلاء، وهم ما بين مجنون وبربري مجلوب ومجند غير محبوب، ما منهم من أحد يحب أن يسمى ثائرًا، ولا لحزب الحق مغايرا، وقصارى أحدهم يقول: أقيم ما بيدي حتى يتعين من يستحق الخروج به إليه، ولو جاءه عمر بن عبد العزيز،لم يقبل عليه، ولا لقي خيرا لديه، ولكنهم استوفوا في ذلك آمالا وأعمارا، وخلفوا آثارا، وإن كانوا لم يبالوا اغترارًا »[1] .

وانقطعت الدعوة للخلافة، فلم يُذكر اسم خليفة على منبر من المنابر[2]، تميز هذا العصر بالصراع والانقسام السياسي بين ملوك الطوائف، وصل إلى درجة استنجادهم بالنصارى ضد بعضهم البعض وتنافس هؤلاء الأمراء على مظاهر الترف والثراء، بعد أن كانت تقتصر على قصر الخلافة في قرطبة، وأصبحت كلها كالعواصم في مظاهر الترف والتبذير، ولم يكتفوا بذلك بل وصلوا إلى حد المجون في القصور بانتشار المحظيات والجواري والخمور، فالمعتضد صاحب اشبيلية احتفظ بحوالي سبعمائة أو ثمانمائة محظية[3]، وإذا فرضنا أن هذا الرقم فيه مبالغة فإنه مهما قَلّ فهو يبقى يدل على الكثرة والمبالغة في المجون والتفسخ وما عرفه المعتضد ينطبق على معظم الأمراء في هذه الفترة.

أما الفقهاء فقد غضوا الطرف، ولم ينكروا ذلك بل كانوا حجة الأمراء في طغيانهم واستبدادهم وتبذيرهم للأموال في الترف ومحاربة بعضهم البعض، وكان ذلك موقف أكثر الفقهاء الذين لهم صيت في مجالس الحكم وعجت بلاطات الأمراء بشعراء الطمع الذين لم يتورعوا في مدح ومسايرة منكرات ومخالفات أسيادهم، وشجعوهم على التمادي في ذلك.

---

(1) أنظر: عبدالله عنان، **دول الطوائف**، ص 15.
(2) الضبي، **بغية الملتمس**، ص39. المراكشي، **المعجب**، ص51.
(3) بلغيث، **الحياة الفكرية**، ص63 .

3/الواقع الاقتصادي والاجتماعي:

يُعَدُّ الجانب الاقتصادي من أكثر الجوانب التي تضرر منها المجتمع، خلال عصر الطوائف بسبب عدم الاستقرار السياسي فسادت الفوضى والفتن، وهو ما تُصوره إحدى النوازل أن المجتمع الأندلسي تعرّض للنهب في أرزاقه، مثال ذلك أنّ أحد الثوار يدعى "سعيد بن ريغل" ثار بحصن شقورة واستولى عليه وعلى جميع جهاته وخلال ذلك اصطنع كل مظاهر العسف والظلم على الرعية وأنك كاهلهم بالمكوس والضرائب الباهظة، واستولى على غلاة تلك المنطقة أعواماً كما اغتصب أموال بيت مال المسلمين وأملاكه وأثرى ثراءً فاحشاً ما انعكس سلبا على حياة الأفراد(1).

ومن المغارم والضرائب التي فرضها ملوك الطوائف ضريبة المعونة(2)، وهي ضريبة تُفرض من حين لآخر على من يشاؤوا، أما المكوس فتشمل التجارة المارة من مدينة إلى أخرى ومن إقليم لآخر بالإضافة إلى مغارم الإقطاع التي يفرضها ملوك الإقطاع تنمية لثرواتهم، وتحقيقاً لرغباتهم وهناك المُتقَبل الذي وصفه ابن عبدون بشر خلق الله الذي خُلِق للضرر ويسعى لضرر المسلمين لا للنفع(3).

وصاحب الفساد السياسي والاقتصادي، انتشار الانحلال الخلقي والفساد في عناصر المجتمع من مظاهر ذلك انتشار الخمور وشيوع الزنا، مما جعل بعض العلماء ينكرون ذلك على المجتمع وحكامه، واتهموا الأمراء بالتسبب في هذه الحالة، ومن بينهم "ابن حزم" الظاهري الأندلسي(4) الذي يصف الأندلس مُشَخِصًا الداء قائلا : « أما إذا سألتم عنه من أمر هذه الفتنة، وملابسات الناس بها مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض، فهذا أمرٌ امتحنا به نسأل الله السلامة، هي فتنة سُوء أهلكت الأديان، إلا من وقى الله تعالى...،وعُمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن، في شيء من أندلسنا

---

(1) الونشريسي، أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب**، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، (1401هـ /1981م) 9/ 538. كمال السيد أبو مصطفى **دراسات أندلسية في التاريخ والحضارة**، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، 1996م ، ص 34.

(2) ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله ، **الأنيس المطرب**، ص100.

(3) ابن عبدون، محمد بن أحمد بن عبدون التجيبي الاشبيلي. **رسالة** في **الحسبة** (ضمن ثلاث رسائل في آداب الحسبة والمحتسب) تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955، ص 210.

(4) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب، أبو محمد(ت456هـ/ 1063)كان حافظاً عالماً بعلوم الحديث والفقه، مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة، متفنناً في علوم جمة، وله تواليف كثيرة منها "الإيصال في فهم الخصال" و "الأحكام لأصول الأحكام"و" الفصل في الملل والأهواء والنحل"، كان شافعياً ثم ظاهرياً، زاهداً في الدنيا بعد الرياسة، كان كثير الوقوع في العلماء، فتعرض له العلماء. أنظر: ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك، **كتاب الصلة**، تقديم وشرح صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية،ط1، (1423هـ/2003م).333/2. الضبي، **بغية الملتمس**، ص386. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، 325/3. ابن سعيد، **المُغرب** في **حلي المغرب**، 354/1.

أولها عن آخرها محارب لله تعالى ورسوله، وساعٍ في الأرض بفساد للذي ترونه عياناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية ...، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي ينقضون على أهلها ضاربون المكوس والجزية والضريبة على رقاب المسلمين مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين، في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام...،غرضهم منها استدام نفاذ أمرهم ونهيهم والمنتسبون إلى الفقه اللابسون لجلود الضأن، على قلوب السباع،المزينون لأهل الشر شرهم الناصرون لهم على فسقهم »[1].

وهو عين ما لاحظه ابن حيان[2] في تحميله المسؤولية الكاملة للأمراء والفقهاء في ما آل إليه المجتمع إذ قال:« ولم تزل آفة الناس مذ خلقوا في صنفين كالملح فيهم الأمراء والفقهاء فبصلاحهم يصلحون، وبفسادهم يفسدون، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه، من اعوجاج صنفيهما، لدينا بما لا كفاية له، ولا نخلص منه فالأمراء قد نكبوا بهم عن نهج الطريق، زياداً عن الجماعة، وجريا إلى الفرقة وأئمتهم صموت عنهم، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم وخابط في أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم آخذا بالتقية في خدمتهم »[3].

وفي ظل هذا الاستبداد، والتنافس الداخلي والتدهور الاجتماعي، من جراء المجاعة والقحط تمادى النصارى، في تحرشهم بالمسلمين، وبكى الشعراء هذا الواقع، الذي آلت إليه حالهم بعد أن عاشوا الأمن والاستقرار في عهد الخلافة، ومن ذلك ما قاله الفازاري[4] ومن مظاهر هذا التحرش التي تدل على الاستخفاف بالمسلمين وأحوالهم، تعرض بربشتر[5]عام(456هـ/1064م) لهجوم النصارى

---

(1) نقلا عن بلغيث، المرجع السابق ، ص75 ، من رسالة ابن حزم المسماة "رسالة التلخيص لوجوه التخليص" .

(2) أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد بن حيان بن وهب بن حيان مولى الامير عبد الرحمن بن معاوية من علماء قرطبة(337هـ-469). أنظر: ابن بشكوال، **الصلة**، 183. الضبي، **بغية الملتمس**، 253. 117/1. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، 218/2.

(3) ابن عذاري ، **البيان المغرب**،254/3، عبد الله عنان، المرجع السابق، ص21.

(4) هو ابو عبد الله محمد بن يخلفتن بن احمد الفازاري، فقيه وأديب ،كتب للخلفاء الموحدين ،تولى قضاء مرسية أنظر: المراكشي، **المعجب**، ص ص229، 238 .

يقول الفازاري:

الروم تضرب في البلاد وتغنم	والجور يأخذ مابقي والمغرم
والمـال يورد كله قشتالـة	والجند تسقط والرعية تسلم
وذو التعيين ليس فيهم مسلم	ولا معين في الفساد ومسلم
أسفي على تلك البلاد وأهلها	الله يلطف بالجميع ويرحم

وردت الأبيات عند الحميري، **الروض المعطار**، ص483.

(5) بربشتر مدينة ثغرية حصينة، غزاها على غرة وقلة عدد من أهلها وعدة أهل غاليش والروذمانيون، فحاصروها أربعين يوما حتى افتتحوها سنة ست وخمسين وأربعمائة، فقتلوا عامة رجالها، وسبوا ذراري المسلمين ونساءهم، ما لا يحصى كثرة

المتحالفين النورمانديين والأراغونيين الذين عاثوا فيها فسادا، وتمكن يحي بن هود صاحب سرقسطة من الذود عنها، في وسط تخاذل غيره من الأمراء، وإن باءت محاولة استرداد النصارى لبربشتر بالفشل، فإنّ طليطلة راحت ضحية هذا الواقع حيث تمكن الفونسو السادس من الاستيلاء عليها في السابع والعشرين من محرم (478هـ/1085م) واتخذها حاضرة لملكه[1]، وكان لسقوط طليطلة وقعاً كبيراً في نفوس المسلمين مجتمعاً وسلطةً وعلماءً ، ظهر ذلك في أدب المعاصرين لهذه المحنة[2].

إن زوال سلطة الخلافة الأموية في الأندلس، فسح المجال لظهور العصبيات المختلفة التي كانت تشكل وتمثل عناصر المجتمع من خلال استيلاء وسيطرة ممثلي الخلافة المندثرة على الأقاليم التي كانوا ولاة وأمراء وقضاة عليها؛ لكن هؤلاء لم يحفظوا هذه المسؤوليات، بل ما إن أتيحت لهم الفرصة حتى سارعوا إلى الانقضاض على ما أمنوا عليه، فجمعوا الأموال واقتنوا كل ما له علاقة بالترف والمجون من قصور وضيعات وحدائق تملؤها النساء الحسان والجواري الشقراوات والخدم وصل ذلك إلى حد التنافس فيما بينهم؛ وفي مقابل هذا البذل والتفنن في العيش في حياتهم الخاصة أهملوا شؤون المجتمع واستغلوه في إذكاء الحروب فيما بينهم، ولذلك وجدنا ابن حزم لا يخشى في تحميل الأمراء مسؤولية ما آلت إليه الأندلس ويعتبر سقوط طليطلة دليلا قاطعا على هذا الوضع من الانقسام والضعف والخضوع. لقد انتقلت الأندلس من عصر سلطة الدولة إلى عصر محدود وهو سلطة القبائل والعصبيات فأصبحت مقسمة إلى وحدات إقطاعية[3] تخضع كل واحدة لسلطة الأسرة الأقوى التي لا تراعي في سياستها شؤون الرعية،ولا تهديد النصارى بل اكتفت بتحقيق مصالحها الخاصة، وتعزيز سلطانها ضد الأمراء الآخرين مستغلة أموال وسواعد الرعية وهو ما أدى إلى التخاذل في إنقاذ طليطلة.وبعد هذا المصاب، لم ينتظر الأندلسيون أمراءً وعلماءً ومجتمعاً، بل بدؤوا يسعون إلى إيجاد مخرج لهم من هذه الأزمة التي تهدد مصيرهم، وأجمعوا على الاستنجاد بالسلطة المرابطية المغربية.

ويذكروا أنهم اختاروا من أبكار جواري المسلمين وأهل الحسن منهن خمسة آلاف فأهدوهن إلى صاحب القسطنطينية وأصابوا فيها من الأموال ما يعجز عن الوصف. أنظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص90. ابن عذاري، المصدر السابق 225/3.

(1) ابن خلدون، **العبر**، 382/6. ابن عذارى، **البيان المغرب**، 225/3 .الحميري، المصدر السابق ، ص ص 91،90 .

(2) يقول ابن عسال في ذلك :

يا أهل أندلس حثوا مطيكـم فما المقام بها إلا مـن الغلـط
الثوب ينسل من اطـرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

أنظر : أحمد بن محمد المقري، **<u>نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب</u>**، شرح وضبط مريم قاسم الطويل و يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1،(1415هـ/1995م)، 154/2. ابن سعيد، **المغرب** في **حلي المغرب**، 21/2

(3) عبد الله عنان، المرجع السابق، ص418.

وفضلوا الخضوع للمرابطين على الاستسلام لألفنسو السادس، على حد قول المعتمد ابن عباد .

ومهدت هذه الأوضاع الأندلسية والمغربية المتدهورة، الطريق للملثمين لبسط نفوذ دولتهم لتلعب دور المنقذ للبلاد المغربية والأندلسية مما أصابها من وهن وضعف داخلي، بسبب الصراع على السلطة، والتهديد الخارجي، واستطاعت أن تحمل راية توحيد بلاد المغرب الإسلامي.

فما هي الأسس والمنطلقات التي انطلقت منها السلطة المرابطية حتى تمكنت من تحقيق ما لم يتحقق لغيرها؟ وما دور البيئة الصحراوية والقبائل البدوية في قيام هذه السلطة ؟ ما هي العوامل التي ساعدت على ظهورها؟ وما مكانة الدعوة الدينية في قيام السلطة و استمراريتها؟

الفصل الأول
السُلْطَةُ المُرَابطِيَّةُ نَشْأَتُهَا وَأُسُسُهَا

المبحث الأوّل : الإطار الجغرافي والبشري لنشأة السلطة المرابطية

1- الإطار الجغرافي

2- الإطار البشري

المبحث الثاني : مرحلة الإعداد والتكوين لظهور السلطة

1- جهود يحي بن إبراهيم الجدالي

2- جهود عبد الله بن ياسين

3- إقامة الرباط

المبحث الثالث : ظهور السلطة المرابطية في الصحراء وامتدادها إلى المغرب

1- الدعوة والجهاد في الصحراء

2- امتداد السلطة المرابطية إلى المغرب الأقصى

3- السلطة المرابطية في عهد أبي بكر بن عمر

4- السلطة المرابطية في عهد يوسف بن تاشفين

5- أسس قيام السلطة المرابطية

المبحث الأوّل: الإطار الجغرافي والبشري لنشأة السلطة المرابطية

تقوم الحياة على الأرض بتفاعل عنصرين أساسيين هامين، هما الإنسان والأرض، فيؤديان إلى تغيير صورة الأرض حيث ينعكس فكر الإنسان على سطحها، ومن تفاعل الإنسان بالأرض جاءت صناعة الحضارة الإنسانية.

والموضوع مدار الدراسة يلقي الضوء على السلطة المرابطية المغربية البدوية، ذات المنشئ الصحراوي وعلاقتها بالمجتمع الأندلسي، ولذلك رأيت وجوب إعطاء نظرة عن البيئة الجغرافية والبشرية التي ظهرت فيها هذه السلطة، وأهم خصائصها الطبيعية، وحدودها وتركيبها البشري عِلما أنّ ما جاء في الفصل التمهيدي السابق من حديث عن الجانبين الجغرافي و البشري، إنما هو نظرة عامة عن بلاد المغرب الأقصى، وكنت قد تركت الحديث عن ما يتصل مباشرة بالبيئة الجغرافية والبشرية التي ظهرت فيها السلطة المرابطية إلى هذا الفصل، وهي البيئة الصحراوية الواقعة جنوب المغرب الأقصى وسكانها الملثمين من صنهاجة الجنوب .

1/ الإطار الجغرافي:

إنّ قيام السلطة المرابطية يرجع أساساً إلى قبيلة صنهاجة الجنوب، وخاصة قبائلها الكبرى التي يطلق عليها مصطلح "الملثّمين"، وهي كل من لمتونة و جدالة ومسوفة، ولمطة [1]، ومنه فإنّ تحديد المجال الجغرافي سيشمل مضارب هذه القبائل وحيزها الجغرافي الذي شغلته .

يمتد موطن هذه القبائل من غدامس[1] جنوب طرابلس، إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن جبال درن شمالاً إلى نهر السنغال ومنحنى النيجر جنوبا[2]. ويصف ابن خلدون الملثمين وموقعهم قائلاً:« هذه الطبقة من صنهاجة هم الملثمون، الموطنون بالقفر، وراء الرمال الصحراوية، أبعدوا في المجالات هنالك، منذ دهور قبل الفتح، لا يعرف أولها فأصحروا عن الأرياف، ووجدوا بها المراد وهجروا التلول وجفوها، واعتاضوا منها بألبان الأنعام ولحومها، انتباذاً عن العمران، واستئناساً

---

(1) مجهول ، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة،دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء ط1 (1399هـ/1979م)، ص17 . أنظر مواقع هذه القبائل في الخريطة رقم1، ص 154

(1) غدامس منطقة كبيرة مسكونة حيث القصور العديدة والقرى المأهولة، على بعد نحو ثلاثمائة ميل من البحر، سكانها أغنياء لهم بساتين نخل، وأموال لأنهم يتّجرون مع بلاد السودان، ويرتفع ثمن القمح واللحم في هذا المكان. أنظر: حسن الوزان **وصف إفريقيا**،ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ،الرباط، الشركة المغربية لدور النشر المتحدة، 1980م، 1/ 146.

(2) عصمت دندش، المرجع السابق، ص 33

بالانفراد وتوحشاً بالعز من الغلبة والقهر، ف لوا من ريف الحبشة، جواراً وصاروا ما بين بلاد البربر والسودان حجزاً، واتخذوا اللثام شعاراً بين الامم »[3].

وتمتد لمتونة من وادي نون[4] على المحيط الأطلسي و تتوغل شرقاً حتى تصل إلى الطريق الرابط بين سجلماسة وغانة[5]، وعلى هذا الامتداد تقع مدينة أزكي [6] معقل لمتونه[7]، حتى قيل إنّ أرضهم تمتد على مسافة شهرين طولاً وشهرين عرضاً[8]، ويفسر لنا هذا الموقع والامتداد للمتونه الدور الرئيسي لها في ظهور و قيادة السلطة المرابطية.

وإلى الجنوب من هذه الأراضي نجد قبيلة جدالة، التي تمتد من حدود لمتونه شمالاً إلى نر السنغال جنوباً، فهي تشغل مجالا واسعاً جعلها أكثر حيوية وأوفر مالاً كما إّنها قريبة من مملكة غانة ومنحنى النيجر، ومركز جدالة مدينة أوليل [1] التي تتوفر على الملح الذي يسوّق شمالاً وجنوباً أما مسوفة فهي تتوسط المنطقة الرابطة بين سجلماسة شمالاً وأودغشت جنوباً أي أنا تقع على طريق تجاري نشيط يربط بين مركزين تجارين هامين، وهي منطقة قاحلة جرداء [2].

ولقد تميزت صحراء إفريقيا الغربية في العصر الوسيط بالحيوية والنشاط، خاصة في ا ال التجاري على عكس ساحل المحيط الأطلسي، الذي لم يعرف أيّ نشاط حتى بداية العصر الحديث

---

(3) ابن خلدون، **العبر**،370/6، 371.

(4) وادي نون(نون لمطة) ويعرف بنول ، وهو من الأودية الكبرى في المغرب يصب في المحيط، تقع عليه مدينة نول أنظر: البكري ، **المسالك والممالك**، ص854. الإدريسي، **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس**، ص125. الصديق بن العربي **كتاب المغرب**، ص194.

(5) غانة اسم غانة من لقب ملوكها، يرجّح أنّ مملكة غانة قامت ما بين القرن الثالث الميلادي إلى القرن الثالث عشر، كونت قوة بفضل تمكن شعبها من استعمال الحديد كسلاح، قبل غيرها من شعوب إفريقيا الغربية، ازدهرت اقتصاديا بفضل موقعها التجاري بين مناجم الذهب في بامبوك و بوري إلى الجنوب ومناجم الملح في الشمال. أنظر : البكري، المصدر السابق، ص871. أبو حامد الغرناطي، **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**، تح إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية، الجزائر 1989م ص 35. الإدريسي، المصدر السابق، ص38 وما يليها. عبد القادر زبادية، **الحضارة العربية والتأثير الأور**بي في **إفريقيا** المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص12.

(6) أزكي من بلاد مسوفة ولمطة، وهي الباب الشمالي إلى السودان،وهي مدينة ليست كبيرة، ولكنها متحضّرة، با عشرون ألف نخلة. أنظر: البكري، المصدر السابق، **ص**861. الإدريسي ، المصدر السابق، ص32.

(7) البكري، المصدر السابق نفسه.

(8) البكري، المصدر السابق، ص857.

(1) أوليل جزيرة بالبحر، على مقربة من الساحل، با ملاحة، ولا ُيعلم في أرض المغرب ملاحة غيرها.أنظر: البكري، المصدر السابق، ص867. الإدريسي، المصدر السابق، ص31.

(2) البكري، المصدر السابق نفسه.

إذكان بوّابة الحركة الاستعمارية الأوربية، وتجار النخاسة من الأوربيين الذين استعبدوا العباد و احتلوا البلاد [3].

وعلى الرغم من امتداد الصحراء، و قساوتا الطبيعية[4]، إلا أنّها كانت تمثل همزة وصل بين العالم الإسلامي مشرقه ومغربه نحو إفريقيا جنوب الصحراء الشّرقية والغربية، وعن طريقها عبرت الحضارة العربية الإسلامية وانتشر الإسلام في كثير من مناطقها، فما هو السّر في هذا الدور الذي لعبته الصحراء ؟

إنّ أهمية الصحراء تكمن في نشاط الحركة التجارية عبر مسالكها، عُرفت تجارتا بتجارة القوافل التي تنقل السلع والبضائع المختلفة،والمؤثرات الحضارية من أصقاع العالم نحو ما يعرف ببلاد السّودان، ومن بلاد السودان نحو العالم، ويدل ذلك على كثرة التجار وتنوع بضائعهم، والفوائد التي يجنيها التجار بعد مشاق الرحلات التجارية إضافة إلى ذلك استفادة الملوك الذين تعبر عن طريقهم هذه التجارة من جباية الضرائب عنها، واستفادة هذه الشعوب الإفريقية من سلعها، وتسويقهم لمختلف منتجاتم حيث ترد إلى إفريقيا مختلف المعادن والعطور والتمور والحرير والقمح، بينما يأخذ التجار معهم التبر والعبيد والتوابل.

إنّ الصحراء التي تقع عليها بلاد الملثّمين بقدر ما كانت قاحلة لا تنبت الزرع في غالبها إلا أنّها جادت على أهلها بكل ما تدّره التجارة وقوافلها كجباية الضرائب وتنشيط التجارة الداخلية وظهور المراكز التجارية ونمو المدن وتوفر الأعمال حيث تصبح الحياة أكثر يُسْراً[1]والمسالك التجارية التي كانت تمر بأرض الملثمين هي[2]:

- المسلك الساحلي : يبدأ من تارودانت على نر السوس يصل إلى نول، ثم يمتد جنوبا إلى أن ينتهي إلى أوليل .
- المسلك الأوسط : يمتد من سجلماسة فيصل إلى درعة، وينتهي إلى أودغست .
- المسلك الثالث : يمتد من أرض السودان إلى جبل نفوسة وطرابلس .

أدت هذه المسالك التجارية إلى ظهور عدة مدن هامة تجارياً وحضارياً،فكان المسلك الأول يشمل المراكز التالية :

---

(3) عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص27 .

(4) أنظر حول خصائص صحراء الملثمين وعلاقة ذلك بتأسيس الدولة: بلغيث، **الحياة الفكرية**، ص23 وما يليها.

(1) عبد القادر زبادية، **الحضارة العربية والتأثير الأوربي**، ص28 .

(2) عصمت دندش، **دور المرابطين في نشر الإسلام في إفريقيا**، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى،(1408هـ/ 1988م) ص ص48-51. عبد القادر زبادية . المرجع السابق، ص ص29،30 .

تارودانت مركزاً لصناعة السكر، والأكسية والثياب، وهي مدينة خصبة، كثيرة الزراعة والحيوان[3]، أما مدينة نول فتكثر بها المراعي ويعيش أهلها على الألبان واللحوم من الأبقار والأغنام اشتهرت بصناعة الدروق اللمطية التي تصنع منها التروس الجلدية للمحاربين،فهي صلبة وخفيفة الوزن [4]،والمدينة الثالثة في الطريق الساحلي هي مدينة أوليل هي جزيرة قريبة من الساحل، غنية بمعدن الملح، فهي مصدره، فلا يعلم ببلاد السودان ملّاحة غيرها[5].

أما المسلك التجاري الأوسط فيشمل: سجلماسة وهي أقدم رؤوس طرق القوافل التجارية في المغرب[6]، تقع على وادي يجري ماؤه في الصيف أكثر ويعتمد عليه في الزراعة[7]، يكثر فيها التمر والحنّاء والكروية و الكمون، وهي زراعات تجارية، ومدينة درعة تقع على وادي درعة يشبه موقع سجلماسة، أما أزكي فهي على بلاد مسوفة ولمطة فهي باب الشمال نحو غانة [8]، وتعتبر أودغست من أكثر المراكز التجارية أهمية بدليل التنافس المستمر حولها بين قبائل الملثمين ومملكة غانة، وهي المحطة الأخيرة التي تصلها القوافل، وعندها تكون قد أشرفت على منحنى النيجر وهي مدينة كبيرة آهلة بالسكان رملية، حولها بساتين النخل، يزرع فيها القمح ويسقى بالدلاء[1] وسوقها عامرة لا يسمع الرجل فيها كلام جليسه لكثرة جمعه وضوضاء أهله، تبايعهم بالتبر [2].

تبين لنا من هذا الامتداد الكبير لقبائل الملثمين، وتربعها على كل المنطقة الرابطة بين المغرب والسودان الغربي وهيمنتها على كل مسالك التجارة التي تعبر بمجالها، استفادة الملثمين من هذه التجارة فكانت مصدرا للثروة والسلطة والقوة وانعكس ذلك على أوضاعهم الداخلية وعلاقاتهم الخارجية، فنجد تهديدات مملكة غانة من الجنوب وصراعها المستمر مع الملثمين على أودغشت وضغوطات القبائل الزناتية من الشمال، وهو ما يفسر التحالفات التي قام بها الملثمون من حين إلى آخر؛ فمن هم هؤلاء الملثمين وما هي خصائصم ؟ وكيف هو تكوينهم الاجتماعي القبلي؟ وما هي طموحاتهم التي جعلتهم يمثّلون العنصر البشري للسلطة المرابطية ؟

---

(3) الإدريسي، **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس** ، ص130 وما يليها.

(4) الإدريسي، المصدر السابق، ص59. أنظر: البكري، المصدر السابق، ص866. أبو حامد الغرناطي، **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**، ص 36.

(5) البكري، المصدر السابق، 866. الإدريسي، المصدر السابق، ص ص31،32.

(6) دندش، المرجع السابق، ص49.

(7) الإدريسي، المصدر السابق، ص ص128، 129 .

(8) البكري، المصدر السابق، ص861.

(1) البكري، المصدر السابق، ص ص848، 849 .

(2) البكري، المصدر السابق نفسه. الإدريسي، المصدر السابق، ص38.

2/الإطار البشري :

كما ذكرت في الفصل السابق أن المجتمع المغاربي يتكون من قبائل موزعة على قسمين هما: البرانس والبتر، وللقبيلة مكانة هامة في تاريخ العرب والبربر، جاء ذكرها في المصادر الإسلامية فذكرت في القرآن الكريم ، قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ [3] كما ورد المصطلح في الأحاديث النبوية وأشعار العرب .

وظهور القبيلة في المجتمعات منذ القديم، إنّما جاء نتيجة شعور الأفراد والجماعات بضرورة ذلك خاصة في البادية من أجل تجاوز المشاق والصعوبات التي تواجه الإنسان في الحياة من تأمين للعيش، ودفع للعدو خاصة وأنّ مناطقها تكون بعيدة عن السلطة ولا تتوفر على مايحميها من أسوار وحصون[4]، بالإضافة إلى ذلك فإنّ قحط الطبيعة يدفعهم للإغارة، وعبّر ابن خلدون عن كل ذلك بعبارة« الحماية و المدافعة والمطالبة »[5]وهو ما يفسر قيام النظام الاجتماعي في المغرب على القبيلة[6]

ونجد هذه الخصائص في قبائل الصحراء، التي لا تتوفر لا على ماء ولا على زرع، وبسبب ذلك فهم يعتمدون على الإغارة في عيشهم، وهو ما جعلهم يسعون إلى تكوين القوة لتحقيق أهدافهم الاقتصادية، ومنه تتطور إلى أهداف سياسية تتمثل في وصول القبيلة إلى السلطة، وهو ما ينطبق على الملثمين، والسلطة المرابطية التي من أهم مظاهرها الاهتمام بالجيش، والقيام بالتوسعات بسطاً للنفوذ وجهاداً للعدو، وجمعاً للأموال والغنائم [1].

وأهم العناصر التي تقوم عليها القبيلة هي الأرض والنسب والعصبية[2]، حيث تمثل الأرض موطن القبيلة وهي مصدر الرزق زراعة أو رعياً أو أهمية تجارية، مثلما هو الأمر بالنسبة للملثمين ولذلك تقوم القبيلة بالدفاع عن أرضها،أما النّسب فهو الانتماء إلى جدٍ واحدٍ مثلما تنتسب صنهاجة إلى صنهاج بن عبد شمس [3]، ونتج عن هذا الانتساب وهذه القرابة، ظهور العصبية وهي العنصر الثالث للقبيلة، وأضيف هذا العنصر لأنّ النسب أحيانا لا يحقق الانتماء التام للقبيلة عند بعض الأفراد

---

(3) سورة **الحجرات**، الآية 13

(4) بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي**، ص 218.

(5) ابن خلدون، **المقدمـة**، ص152.

(6) بلغيث، المرجع السابق، ص 35.

(1) بوتشيش، المرجع السابق، ص218.

(2) بوتشيش، المرجع السابق، ص221.

(3) ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج4، تحقيق ومراجعة إحسان عباس، دار الثقافة بيروت ط2 (1400ه/1980م)، 46/4.

الذين استقلوا بشخصيهم عن القبيلة لسبب أو لآخر ولذلك جاءت العصبية لتحقيق الانتماء وتعني الدفاع الطبيعي الفطري ضد كل ما يمس القبيلة أو أفرادها أو مبادئها والعصبية رابطة اجتماعية يشعر من خلالها الفرد بالانتماء للجماعة، إلى درجة أن يفقد الشخص شخصيته في ظل شخصية القبيلة ويجعل ابن خلدون العصبية من الدوافع والعوامل المؤدية للوصول إلى السلطة[4] ومنه فالغاية من العصبية هو ليس تحقيق القرابة بقدر ما هو الرغبة في تحقيق أهداف أكثر ُبعداً وأهمية.

على ضوء ما تقدم جاءت تعريفات القبيلة على أنّها ظاهرة سياسية اجتماعية سعت إلى الحفاظ على الذات ومواجهة التدخلات الأجنبية، وتحقيق الأمن الداخلي[5]، ويعطي الجابري تعريفاً أشمل مفاده أنّ القبيلة رابطة اجتماعية وسيكولوجية وشعورية ولا شعورية معا، تربط أفراد جماعة ما قائمة على القرابة ترتبط ربطاً مستمراً يبرز ويشتد عندما يكون هناك خطر يهدد هذه الجماعة وأفرادها فيصبح شعورا اجتماعيا[6].

وعلاقة القبيلة بالسلطة تختلف من دولة إلى أخرى، فأحيانا تكون علاقة سطحية لا تتجاوز التبعية الاسمية ونجد ذلك لمّا تبعد المسافة بينهما، بينما الذي نجده في المغرب عموماً وفي السلطة المرابطية خصوصاً أنّ قبائل الملثمين هي المؤسِّسة للسلطة ونواتها، لكن علاقات السلطة بالقبائل الأخرى فتتمثل في إلزامها بدفع الضرائب، ومساهمة أفرادها في تكوين الجيش المرابطي، مقابل ذلك منحت السلطة أشياخ هذه القبائل " أمغارن" نفوذاً واسعاً في تمثيل قبائلهم لدى السلطة، وتظهر وصية يوسف بن تاشفين[1] لابنه علي بألا ُيهّيج أهل جبل درن ومن ورائه من المصامدة، ويظهر من خلال ذلك المرونة التي ميزت التعامل بين الطرفين [2] .

وفي مقابل الإبقاء على سلطة القبيلة والتعامل المرن معها، فقد أبدت القبائل ولاءها من خلال توافد شيوخها في بداية عهد كل أمير جديد اعتلى السلطة لتقديم البيعة له [3]، فحين تولى يوسف بن تاشفين السلطة، أحضر أشياخ لمتونة وخلع له أبو بكر نفسه السلطة، وتمت مبايعته وشهد

---

(4) ابن خلدون ، المصدر نفسه.

(5) محمد فاروق النبهان، **الفكر الخلدوني من خلال المقدمة**، مؤسسة الرسالة، ط1،(1418هـ/1998م)ص156 وما يليها.

(6) محمد عابد الجابري، **فكر ابن خلدون، العصبية والدولة**، دار الطليعة، بيروت، ط 3، ، 1983، ص267وما يليها.

(1) يوسف بن تاشفين بن ابراهيم بن تورقيت بن ورتاقطن بن منصور بن مصالة بن مانية بن ونمالي، الصنهاجي الحميري، وفي إبراهيم يجتمع مع ابني عمه الاميرين الذين كانا قبله، أبي زكريا، وأبي بكر ابني عمر بن ابراهيم بن تورقيت، كنيته أبو يعقوب، وبنوه أبوبكر سير، وابراهيم، وعلي، وأبو الطاهر تميم، والمعز. أنظر: مجهول، **الحلل الموشية**، ص24. محمد عبد الله عنان، **تراجم شرقية وأندلسية**، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (1390 هـ/1970م) ص227.

(2) بوتشيش، المرجع السابق، ص244.

(3) بوتشيش، المرجع نفسه.

على ذلك العدول والأعيان[4]، ويبين ابن عذاري مظاهر أخرى من مظاهر الولاء كطلب أشياخ القبائل من يوسف بن تاشفين أن يتلقب بلقب الأمير[5].

لقد تعددت الأرآء حول القبيلة فهناك النظرية الغربية التي تجتمع على فكرة أنّ القبيلة المغربية قامت على مبدإ التضامن والمساواة وانعدام التراتب الاجتماعي [6]، وهي تنفي بذلك الحيوية و التطور والتغيير والاجتهاد، لكن الدراسات التاريخية والاجتماعية أثبتت عكس ذلك، فالقبيلة لعبت دورًا هاماً في استمرار السلطة، وذلك من خلال ما تقدمه من دفاع عن الأرض وحماية للسلطة وجباية للضرائب وغيرها من الأعمال، وخير مثال على ذلك قبائل الملثمين المكوّنة للسلطة المرابطية والدور الذي قامت به في توحيد المغرب وإنقاذ الأندلس، التي ذهبت ضحية عبث الصراع والتنافس على المصالح الخاصة بين الموالي والغرباء والطامعين [7].

ويوصف المجتمع القبلي بالبداوة، لكن ما هي خصائص هذه البداوة وهل هي قابلة للتطور والتغيير وما نتائج ذلك، يصف ابن خلدون البدو قائلاً : « هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم و الحضر هم المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم، والبدو أقرب إلى الشجاعة والكرم، وأهل الحضر الذين انغمسوا في الملذات والمفاسد وأوكلوا أمر حياتهم إلى مواليهم واستناموا وراء أسوار تحيط بهم »[1]. ويرى ابن خلدون أنّ البدو هم أصل المجتمع وبداية نشأته[2] ويعني ذلك أنّ البداوة هي أصل المدنية.

ويورد أحد الباحثين[3] نظرية التقاء الحضر بالبدو، من خلال الاحتكاك الذي يتم بين الطرفين فيتم التأثر والتأثير بينهما، فينتقل البدو إلى الحواضر وينقلون معهم أصالتهم، ويأخذون من فكر أهل المدن وهذا التفاعل هو الذي يجسد النظرة الشمولية للإسلام عبر التعارف والاحتكاك ونرى ذلك في هجرة الملثمين نحو حواضر المغرب والأندلس والمساهمة في البناء الثقافي والفكري

---

(4) ابن عذاري، المصدر السابق، 4/ 25.

(5) ابن عذاري، المصدر السابق، 4/ 27. حول لقب أمير المسلمين أنظر: مجهول، **الحلل الموشـية**، ص29، حسين مؤنس، **سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين**، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، القاهرة،ط1،(1420هـ/2000م)ص ص12 . 14

(6) بلغيث، المرجع السابق ، ص34 اعتمادا على: Abdel Wedoud ouled cheikh, *la tribu comme volonte et comme representation , AL-ANSAB(la quete des origins qntrpologie historique de la socite tribale arabe ,p: 201.*

(7) بلغيث، المرجع السابق، ص37.

(1) ابن خلدون ، **المقدمـة**، ص136.

(2) النبهان، المرجع السابق، ص150.

(3) إبراهيم حركات، **المجتمع الإسلامي والسلطة في العصر الوسيط**، إفريقيا الشرق، بيروت،1998، ص19.

للحضارة الإسلامية خاصة والحضارة الإنسانية عامة، ومن مظاهر ذلك الإنتاج الثقافي الذي كان في عصر المرابطين[4].

وينتمي الملثمون إلى صنهاجة الجنوب، وقبيلة صنهاجة محل خلاف حول أصلها أَعَرَبِيٌّ حميري أم يرجعون إلى أصول مغربية؟ جل المصادر العربية تنسب صنهاجة إلى الأصل العربي، فيرون أنّ صنهاج بن شمس بن وائل بن حمير، ورجّح هذا النسب الباحث بوتشيش[5]بإعطاء عدة قرائن للدلالة على ذلك منها :

- اتفاق العديد من الروايات على هذا الأصل العربي.
- اقتصار عدد قليل من النسّابة على غير هذا الأصل العربي أمثال ابن حزم الأندلسي.
- لو أن أصل صنهاجة غير عربي، لما توانى الموحدون والمرينيون من بعدهم في دحض هذا النسب وهم الذين تعمدوا ذكر مثالب المرابطين، وطمس آثارهم.

وهناك من الباحثين من استغرب من نسب صنهاجة للعرب، إذ يقول : « من الغريب أن تنسب هذه القبائل المغربية إلى العرب، ولا نستطيع أن نعلل ذلك إلا لأنّها أرادت أن تكون على قدم المساواة مع القبائل العربية »[1] ، لكن هذه الحجة غير كافية لإلغاء النسب العربي لصنهاجة فالإسلام قام على المساواة فلا فرق بين عربي ولا أعجمي إلّا بالتقوى .

وتعتبر صنهاجة من أكبر القبائل المغربية عددا وقوة، إذ لا يكاد قطر من أقطاره يخلوا من بطن من بطونا في جبل أو بسيط[2] ولعلّ ذلك ما سهّل عملية انتشار السلطة المرابطية في أراضي المغرب بالتفاف العصبية الصنهاجية حول بعضها دعما للسلطة.

وتتفرق صنهاجة إلى حوالي سبعين قبيلة [3] من بينها قبائل الملثمين، كما أنّ صنهاجة تنقسم إلى قسمين رئيسيين هما صنهاجة الشمال المتمركزة في إفريقية والمغرب الأوسط وهي تشكل دولتي بنو زيري و بنو حماد أما صنهاجة الجنوب فيصفها البكري [4] أنّهم لا يعرفون حرثاً ولا زرعاً ولا ثماراً، وإنّما أموالهم الأنعام، وعيشهم اللبن ، وصنهاجة الجنوب هي نواة السلطة المرابطية، وهناك تفسيرات عديدة لهذا التقسيم، فيرى البعض أنّ صنهاجة الجنوب كانت في الشمال في إفريقية لكنها أخذت منذ القرن الثالث ميلادي تجر مواطنها نحو الجنوب وسبب ذلك استخدام الإبل منذ العهد

---

(4) أنظر : بلغيث، **الحياة الفكرية بالأندلس** في **عصر المرابطين**.

(5) بوتشيش، المرجع السابق ، ص ص13، 14.

(1) حسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص27.

(2) ابن خلدون، **العبر**، 6/ 309

(3) ابن عذاري، المصدر السابق ، 4/ 60.

(4) البكري، المصدر السابق، ص857.

الروماني، ولما جاء الفتح الإسلامي ساهم في زيادة هذه الهجرة نحو الجنوب، حيث أنّ موسى بن نصير لمّا أوغل في الصحراء وجد قبائل صنهاجية في أطراف الصحراء وجبال درن[5] .

لقد قامت السلطة المرابطية على سواعد الملثمين من صنهاجة الجنوب، وعرفوا بالملثمين لارتدائهم اللثام[6] ولهذا اللثام تفسيرات متعددة فهناك [7] من أرجعه إلى الضروف الطبيعية القاسية من حر وبرد فاتخذوا اللثام ليقيهم ذلك، وهناك من قال إنّ قوماً من أعدائهم كانوا يُغيرون على ديارهم عند غيابهم، فيأخذون أموالهم ويسبون نساءهم، فأشار عليهم بعض مشائخهم على اتخاذ الرجال اللثام بدلا من النساء، لتمويه العدو على أنّهم نساء حتى إذا غار عليهم انقضوا عليه، ويرى ابن رشد[8] أنّ اللثام شعار تميز به المرابطون عن سائر الناس، وكرّه نزعه لأن ارتداءه ارتبط بدعوة المرابطين الإصلاحية،كما أنّه ارتبط بيبتهم ومكانتهم،في نصرة الدين وعزة المسلمين علىالمشركين[1] فكان اتخاذ اللثام عادة جرت عليها القبائل العربية، ولكن إطلاق اسم الملثمين على صنهاجة الجنوب ارتبط بظهور الدعوة الإصلاحية، ووصولهم إلى الحكم فلما ملكوا ضيقوا لثامهم ليتميزوا به[2]، ومن خلال ذلك يتبين أنّ اللثام كان في بداية الأمر تقليداً سارت عليه بعض القبائل الصحراوية، ثم أصبح في ظل الدولة المرابطية يرمز للسلطة.

ارتبط تأسيس السلطة المرابطية ببعض القبائل أهمّها لمتونة وجدالة ومسوفة ولمطة وذلك لتعداد أفرادها وموقعها وتنافسها على الزعامة، ودورها في المنطقة فكانت هذه القبائل ذات أهمية سياسية واقتصادية لموقعها بين المغرب والسودان وإشرافها على بعض الطرق والأسواق التجارية، أمّا الزعامة على هذه القبائل فغالباً ما كانت للمتونة، وقيادة لمتونة لبني ورتنطق التي ينتسب إليها أمير المرابطين يوسف بن تاشفين[3] تميزت لمتونة بموقعها فهي معبر التجار والدعاة نحو السودان حيث كان هناك نشاط للدعوة الإسلامية وساعد على ذلك ظهور بعض الإمارات التي قامت في المغرب وحملت لواء الدعوة كإمارة بني مدرار الصفرية وإمارة تاهرت الإباضية . وظهور بعض المدن التي أصبح لها

---

(5) ابن عذاري، المصدر السابق،1/ 27.

(6) ابن خلدون، المصدر السابق، 370/6 . البكري، **المسالك والممالك**، ص865. أنظر: بلغيث، المرجع السابق، ص49.

(7) ابن خلكان، **وفيات الأعيان و أنباء الزمان**، 129/7.

(8) محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، أبو الوليد(450هـ-530هـ) قاضي الجماعة بقرطبة، له تواليف كثيرة منها " المقدمات" و" البيان والتحصيل" و" الفتاوى"، كان أوحد زمانه في طريقة الفقه، أنظر: ابن بشكوال، **الصلة**، ص518. الضبي، **بغية الملتمس**، ص50. ابن سعيد، **المغرب** في **حلي المغرب**، 162/1. ابن خلكان، المصدر السابق، 316/5.

(1) ابن رشد، **فتاوى ابن رشد**، ثلاثة أجزاء، تحقيق المختار الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت (1407هـ/1987م) ، ص ص963، 965.

(2) بوتشيش، المرجع السابق، ص78.

(3) ابن خلدون، المصدر السابق، 6/ 373.

شأن في تاريخ وحضارة المغرب مثل سجلماسة التي تأسست في(140هـ/757م)[4]؛ وينقسم مجتمع الملثمين إلى طبقتين هما الطبقة الحاكمة تتكون من السّادة وطبقة المحكومين وهم رقيق لكن لا يباعوا ولا يشتروا، ويقومون بكل الأعمال من رعي وحراسة وخدمة للأسياد الذين يشرفون على قيادة القبيلة وإدارة شؤونا وجمع الأموال [5] .

أمّا عن إسلام هذه القبائل، فقد كان عقبة بن نافع أوّل فاتح وطئت أقدامه أرض صنهاجة، حيث وصل إلى تارودانت ونشر الإسلام با وبنى مسجد ماسة[6].

لكن هذه القبائل ارتدت إثر رجوع عقبة واستشهاده، واستمر ذلك الحال حتى جاء عهد موسى بن نصير فسلك طريق عقبة إلى أن وصل وادي درعة ، واتّبع سياسة مغايرة لسياسة عقبة ألا وهي التقرب من البربر أكثر لتحقيق العدل بينهم وبين العرب وإشراكهم في الإدارة فاشرأبت قلوبم حب الإسلام[1] ونشر تعاليم الدين فيهم، وبنى المساجد وبدخوله درعة وبلاد السوس، أنشأ مسجد أغمات و أعلن الملثمون إسلامهم [2].

بعد أن أسلمت هذه القبائل لم تخضع سياسيا لحكم الدول التي قامت في المغرب فكانت بعيدة عن الأمويين والفاطميين وحتى الأدارسة قبل ذلك، وموقعها الذي أبعدها عن هذه الدول فرض عليها واقعا آخرا يتمثل في صراع مع طرفين معاديين لها عداءً تاريخياً سياسياً واقتصادياً.

تمثلت هذه الأطراف في قبائل زناتة ومصمودة شمالاً، ومملكة غانة جنوباً، وذلك يفسر لنا سياسة الأحلاف التي جمعت قبائل الملثمين، ولعل هذه الأحلاف هي التي مهدت الطريق لنشأة الدولة المرابطية على الأقل من حيث الفكرة والتجربة، حتى لا نقول أن هذه السلطة نشأت من فراغ.

والدور الذي أنشئت من أجله هذه الأحلاف ينطبق تماما على ما ذكرناه حول الدوافع التي أدت إلى ظهور القبيلة وهي الحماية والمدافعة والمطالبة، خاصة أنّ منطقة غرب إفريقيا أصبحت محل تنافس وصراع شديد بين هذه القوى الثلاثة على التحكم في مسالك التجارة ومراكزها[3]، فهي تزيد من قوة السلطة وثراء الأغنياء واكتفاء البسطاء، فلا يمكن لأي طرف من هذه الأطراف الثلاثة أن

---

(4) بلغيث، المرجع السابق، ص40.

(5) عصمت عبد اللطيف دندش، **دور المرابطين في نشر الإسلام**، ص34.

(6) واد ممتد في أقصى السوس، تنتشر القرى حواليه، با أقدم رباط بالمغرب. أنظر:الصديق بن العربي، المرجع السابق، ص176

(1) ابن عذاري، المصدر السابق،27/1.

(2) ابن عذاري، المصدر السابق،34/1.

(3) أنظر حول أثر ذهب السودان في الصراع بين هذه الأطراف وتكوين الأحلاف. بلغيث، المرجع السابق، ص47.

يتنازل عن رغباته ولذلك ظهرت أحلاف الملثمين التي جمعت بين لمتونة وجالة ومسوفة ولمطة وهما حلفين[4] :

الحلف الأول قادته لمتونة ورئيسه "تيولوتان" وحّد القبائل على أسس دينية لنشر الإسلام في السودان الغربي[5]، وتمكن من إخضاع ممالكه ، وإرغامهم على دفع الجزية، واستولى على مدينة أودغست واتخذها عاصمة له ووصل إلى نهر السنغال، فملك الصحراء وملوكها وعاش تيولوتان حوالي ثمانين عاماً وتوفي سنة (222هـ/836م) لكن هذا الحلف فقد وحدته على إثر خلافات وقعت بين أحفاد تيولوتان واستمر ذلك حوالي قرن من الزمن لتظهر بعد ذلك معالم الحلف الصنهاجي الثاني.

الحلف الصنهاجي الثاني قاده " أبوعبد الله" بن تيفاوت الذي يعرف بتارسنا اللمتوني[6] تميز هذا القائد بالفضل والعلم والدين، وحّد الملثمين وحارب قبائل يهودية في تاتكلاتين، ولكن هذا الحلف سرعان ما انتهى باستشهاد قائده بعد ثلاث سنوات من حكمه، الذي كان في سنة (426هـ /1034) [1] .

واستغلت مملكة غانة إستشهاد إبن تيفاوت وتفرق الحلف، فاستعادت مدينة أودغست ولم تستطع قبيلة لمتونة الإستمرار في رياسة الحلف ومواجهة الخطر الجنوبي لموقعها البعيد في الشمال فانتقلت بذلك القيادة لقبيلة جدالة[2] فهي أقدر القبائل على المقاومة لكونها الأقرب موقعا والأعرف بالعدو، كما أنها أغنى القبائل وأقواها بسبب اشتغالها بتجارة الملح والتبر والرقيق[3]،أما حكم القبيلة فقد آل إلى يحي بن ابراهيم الجدالي صهر أبي عبد الله بن تيفاوت اللمتوني[4].

---

(4) دندش، المرجع السابق، ص52.
(5) البكري، المصدر السابق، ص857.
(6) البكري، المصدر السابق، ص858.
(1) البكري، المصدر نفسه.
(2) دندش ، المرجع السابق، ص55.
(3) حسن محمود، المرجع السابق، ص103.
(4) البكري ، المصدر نفسه .

المبحث الثاني : مرحلة الإعداد والتكوين لظهور السلطة المرابطية :

إنّ تحقيق السلطة المرابطية لنفوذها في الصحراء، وتوسعها على المغرب، وانتقالها إلى الأندلس، لم يكن عملية سهلة لولا الصرامة الشديدة من القيادة، والالتزام التام للمرابطين في مرحلة الإعداد والتكوين التي دامت لسنوات.

والعوامل التي من شأنا أن تعيق هذا الظهور عديدة كالبيئة الصحراوية وانتشار البداوة إلا أنه في الحقيقة على العكس من ذلك، فقد كانت عوامل مساعدة على الإعداد الجيّد لظهور سلطتهم وتمكينها فاستطاعوا أن يقضوا عدة سنوات في تكوين جيل يكون قادراً على حمل لواء هذه الدعوة الجديدة وهم في رباطهم في منأى في من أيّ خطر أو تديد.

كما أنّ طبيعتهم البدوية كانت تطمح إلى التخلص من واقعهم الاجتماعي، الذي سادت فيه الطبقية، والظلم والواقع السياسي والاقتصادي الذي فرضته وتحكمت فيه التحديات الخارجية لقبائل زناتة ومصمودة في الشمال وممالك السودان في الجنوب، حيث كان الملثمون في عمليتي مد وجزر مع هذه القوى تنافساً على النفوذ والمصالح السياسية والاقتصادية، فظهرت تلك التحالفات التي كانت تقوم بين قبائل الملثمين؛ وكان هدفها المُلك والدولة وتحقيق السيطرة[1] لكنها كانت فاشلة لأنها مافتئت تتفكك، وإن دل ذلك على شيء إنّما يدل على هشاشة أسسها، حيث استمر الصراع والتفكك بين هذه القبائل، وهنا كانت الضرورة ملحة للتفكير في أسس أخرى أكثر صلابة وأبعد تأثيراً في نفوسهم، فتوحدهم وتمنحهم القوة وتعمل على استمرارية ذلك وعدم ارتباطه بزمان أو مكان أو شخص.

هذه الأسس هي التي تبنتها السلطة المرابطية حيث ارتكزت على نشر العلم، والتزام تعاليم الدين الإسلامي في حياتم، والعمل على توحيد القبائل والقضاء على الفرقة، ولعلنا نجد أنّ الانحراف عن هذا النهج في الجيل الثاني من المرابطين هو الذي فكك سلطتهم، ويرجع الفضل في اختيار نج العلم والدين لتوحيد تلك القبائل ومحاربة كل مظاهر الانحراف[2] والفساد، إلى يحي بن إبراهيم الجدالي. فكيف كان ذلك؟

---

(1) ابن خلدون، **المقدمة**، ص152 .

(2) يحدد ابن خلدون عمر الدولة بثلاثة أجيال، ويقول : الجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط، فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ سورة:**الأحقاف**، الآية 15، أنظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ص182.

1/ جهود يحي بن إبراهيم الجدالي:

هو زعيم قبيلة جدالة، صاحب البذرة الأولى للسلطة المرابطية[3]، تمّيز بروح المسؤولية والنظر البعيد، يتبين ذلك في إنكاره لواقع مجتمعه من الملثمين، رأى أنّ إصلاح الأوضاع وتوحيد القبائل المتفرقة لا يكون إلا على أساس من تعاليم الدين الإسلامي الصحيحة، ولعله كان يدرك ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية من تقدم في القرن الرابع الهجري ومطلع القرن الخامس الموافق للقرنين العاشر والحادي عشر ميلادي، حيث انتشرت العلوم في حواضر الإسلام شرقا وغربا، في حين أنّ الملثمين لم يعرفوا من الإسلام إلا اسمه، واستمروا في جاهليتهم وبعدهم عن الدين [4].

إنّ هذا التفكير كان يصحب يحي بن إبراهيم حتى في حجه، وتباينت الروايات حول السنة التي حج فيها فهناك من يرى أّنه خرج سنة (445هـ/1053م)[5] بينما آخرون رأو أّنه خرج سنة (448هـ/1056 م) ورجح الأستاذ حسن أحمد محمود [6] أنّ الرواية الأقرب إلى الصحة هي التي ترى أنّ خروجه كان ما بين (427و429هـ/1035و1037م)[1]ذلك لأنّ يحي بن إبراهيم لقي أبا عمران الفاسي وهذا الأخير توفي سنة(430هـ/1038م) وأثناء رحلته كان يـ ل إلى طلب العلم، ومن الحواضر التي توقّف فيها أثناء عودته مدينة القيروان فلقي عالمها أبا عمران الفاسي[2]، وكان أبو عمران[3] عالماً فقيهاً تعددت مشاربه ومصادره من علماء الأندلس ومصر ومكة والعراق، ودرّس في القيروان فتخرج على يديه كثيرٌ من علماء المغرب المالكيين.

وهناك تساؤلات تطرح حول علاقة الدين بالسياسة في رحلة يحي بن إبراهيم للحج هل كانت رحلة دينية صرفة أم أنا ذات بعد سياسي، وهل كان لقاؤه بأبي عمران الفاسي مخطط له وما هي أهداف ذلك ؟

---

(3) البكري، المصدر السابق نفسه.

(4) البكري، المصدر السابق، 858. أنظر: بلغيث، المرجع السابق، ص49.

(5) ابن عذاري، المصدر السابق، 3/ 242.

(6) حسن أحمد محمود ، المرجع السابق، ص108.

(1) ابن أبي زرع ، المصدر السابق، ص122.

(2) ابن خلدون، **العبر**،374/6.البكري، المصدر السابق، ص858.

(3) أبو عمران الفاسي هو موسى بن عيسى الغفجومي، أصله من فاس ، ونسبه با مشهور، ولهم عقب، وفيهم نباهة، درس على يد أبي الحسن الفاسي، وحضر مجالس الفقيه أبي بكر بن الطيب في بغداد، درّس بفاس إلى أن توفي با سنة(430هـ/ 1038م) أنظر: ابن عذاري، نفس المصدر، 286/1، الحميري، نفس المصدر، ص435

قد يكون اللقاء بين الطرفين يسعى إلى بعث الإسلام في المنطقة خاصة وأنه ظلّ سطحياً حتى المائة الرابعة، وهناك من يربطها سياسياً بواقع المنطقة فيرى أنّ اللقاء هو تتويج لحلف صنهاجي جديد[4].

وبالاعتماد على الطروحات الخلدونية، وانطلاقاً من الواقع السياسي العام للعالم الإسلامي وعلاقته بالعالم المسيحي، وما آل إليه في تغير موازين القوى، حيث ساد الضعف في بلاد الإسلام شرقاً وغرباً وظهور التهديد المسيحي، فإنّ هناك ضرورة ملحة تتطلب ظهور قوى جديدة للحفاظ على التوازن، فكان السلاجقة في المشرق والمرابطين في المغرب[5]، أما العامل الثاني فهو اقتصادي يرتبط بتحول طرق التجارة نحو صنهاجة الجنوب بعد أن طُمس طريق مصر غانة بسبب الرمال إضافة إلى الزحف الهلالي نحو المغربين الأدنى والأقصى، فتركزت المسالك في إفريقيا الغربية [6] وهذه الهيمنة الاقتصادية مهدت لهيمنة سياسية فاستغل يحي بن إبراهيم ذلك في كسب سند ديني يقوم عليه المشروع الصنهاجي ويتجلى ذلك في لقاء الأمير يحي بالإمام أبي عمران الفاسي الذي يرى في إحياء المذهب السني في الصحراء هو امتداد لمحاصرة المذهب الشيعي الذي تقلص فعلاً مع ظهور السلاجقة شرقا والمرابطين غربا[1]، ومواجهة الخطر الصليبي.

حضر يحي بن إبراهيم دروسا لأبي عمران الفاسي، ويبدو أن الإمام هو الذي بادر إلى لقاء الأمير ويظهر ذلك من سؤاله له عن واقعهم، حيث يذكر البكري ذلك قائلاً: « فسأله أبو عمران عن بلده وسيرته وما ينتحلون من مذاهب، فلم يجد عنده علم بشيء إلا أنه كان حريصا على التعلم صحيح النية، فقال له ما يمنعكم من تعلم الشرع على وجهه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[2] وتحتوي عبارات أبي عمران عن دلالات الرغبة في إصلاح الوضع السياسي والاجتماعي الموجود في المغرب الأقصى في ظل الحكم الزناتي الذي يعد أباعمران أحد ضحاياه في فترة شبابه، ويتضح من خلال كل ذلك أن اللقاء بين الرجلين لم يكن عفويا وأن الهدف منه هو إقامة دولة سنية مالكية في المغرب[3] .

---

(4) محمد عبد الله عنان ، **دول الطوائف** ، ص ص300، 301.

(5) بوتشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي قراءات جديدة** في **بعض قضايا المجتمع والحضارة**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت 57، 1994.

(6) بوتشيش، المرجع السابق، ص ص57، 58.

(1) بوتشيش، المرجع السابق، ص59

(2) البكري، المصدر السابق، ص858. بلغيث، **النظرية السياسية عند المرادي**، ص50.

(3) بوتشيش،المرجع السابق، ص60.

فعرض يحي بن إبراهيم أوضاع قومه، وما يعانونه من عزلة عن العلم والعلماء، وسيادة للجهل والجهال واصفاً له رغبة قومه في التعلم قائلا له : « إننا في الصحراء منقطعين لا يصل إلينا إلا التجّار الجهّال، حرفتهم الاشتغال بالتجارة، وفينا أقوام يحرصون على تعلم القرآن وطلب العلم ويرغبون في الفقه والدين لو وجدوا إلى ذلك سبيلا » وطلب منه النصح والتوجيه بإرسال من يتولى نشر العلم في قومه [4] .

إنّ بصيرة أبو عمران الفاسي رأت أن يوجه يحي بن إبراهيم إلى عالم وفقيه يكون أقرب وأدرى بقبائل الملثمين حتى يتمكن من الدعوة والإصلاح، دون مشقة فوجهه إلى فقيه السوس وهو أحد تلامذته الذين تخرّجوا على يديه، وهو وجاج بن زلّو اللمطي[5]وهو فقيه مالكي من ملثمي قبيلة لمطة، فلما اطلع وجاج على رسالة شيخه التي قال له فيها : « ابعث إلى بلده من تثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته، ليعلمهم القرآن وشرائع الإسلام ويفقههم في الدين، ولك وله في ذلك الثواب والأجر العظيم، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا »[6]، وبعد أن جمع وجاج طلبته وقع اختياره على من كان يرى أنّه كفؤ وقادر على تحمّل مسؤولية الدعوة ومشاقها، فكان الاختيار على الإمام عبد الله بن ياسين [1].

2/ جهود عبد الله بن ياسين :

هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن علي الجزولي، أصله من قبيلة "تاماناوت" في طرف صحراء غانة في أحواز أودغشت[2]، وهناك من يرى أنّه قد يكون من جدالة[3] الواقعة حدودها على حوض السنغال، وأنّه من السهل أن يُحرف الرّواة اسم الجدالي إلى الجزولي، فيكون ذلك خطأ في النسخ أو التحقيق، واختيار موقع الرباط على حوض السنغال يدعم هذا الرأي، أن ابن ياسين أكثر من يعرف المنطقة .

ولا تذكر المصادر إلا إشارات مقتضبة حول هذا الفقيه، من أنّه أقام سبع سنين بالأندلس في عصر ملوك الطّوائف، يطلب العلم كما أنّه تعلّم على يد الفقيه وجاج بن زلّو اللمطي، ويعتبر ابن

---

(4) البكري المصدر السابق نفسه.

(5) وجاج بن زللو اللمطي فقيه السوس الأقصى ، رحل إلى القيروان وأخذ العلم عن الشيخ أبي عمران الفاسي ، بنى دارا في مدينة نفيس لتعليم القرآن سمّاها دار المرابطين . أنظر: ابن خلدون، المصدر السابق، 6/ 374. ابن عذاري، المصدر السابق، 165/4. البكري، المصدر السابق، ص 859. الصديق بن العربي، المرجع السابق، ص132.

(6) البكري، المصدر السابق نفسه.

(1) ابن أبي زرع ، **الأنيس المطرب**، ص123.

(2) البكري ، المصدر السابق ، ص859.

(3) حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص113.

ياسين الزعيم الروحي للسلطة المرابطية، حيث رسم لها طريقها للنجاح، فبسط المرابطون نفوذهم في عهده على كل من سجلماسة والسوس وأغمات ونول ولمطة،استشهد في قتاله لبرغواطة سنة(451 هـ /1059 م) [4] .

دخل عبد الله بن ياسين رفقة يحي بن إبراهيم أراضي الملثمين، فكان الأوّل يمثل السلطة الروحية والثاني يمثل السلطة الزمنية، وكانت لمتونة أوّل القبائل التي يلتقونها، ولعلّ ذلك لموقعها في مقدمة القبائل الأخرى، وكان لقدومه ترحيب كبير من الملثمين لشعورهم بالحاجة الماسة لأهل العلم والفضل.

وشرع ابن ياسين في إلقاء دروسه فكثر مستمعيه، وانتهج منهج الإصلاح لعقيدتهم، وقام بنشر فقه الإمام مالك، ودعاهم إلى تقويم أخلاقهم، خاصة لمّا رأى الفساد والظلم في المجتمع، فسعى إلى تطبيق المساواة بين السادة وغيرهم في المسكن والملبس،وأنكر عليهم مظاهر القتل والسرقة وعادة الزنا[5]وغيرها من العادات السيئة التي أَلِفَهَا مجتمع الملثّمين، لكن مواقفهم تباينت من هذا الإصلاح فهناك من أقبل على دعوته ونهل من علمه، من المتحمسين للتعلم والإصلاح، وهناك من أعرض خاصة من السادة والأغنياء، الذين رأوا أنّ هذه الدعوة تحدّ من حرّياتهم وشهواتهم وَتَمَيُّزِهِمْ فقاوموا دعوته، وهدموا داره وطردوه [1].

وبعد أن لقي ما لقي من الإعراض والمقاومة، همّ بالرجوع إلى السوس حيث شيخه وجاج لكن الأمير يحي بن إبراهيم أبى عليه ذلك[2] وألحّ عليه أن يصحبه إلى الجنوب إلى قبيلته جدّالة قائلا له: « إنّي لا أتركك تنصرف، إنّما أتيت بك لأنتفع بعلمك في خاصة نفسي وما عليّ من ضل من قومي » وهو ما يشير إلى الإصرار على القيام بحركة إصلاحية في أوساط الملثمين، وإخراجهم من الوضع الذي يعيشونه.

3/ إقامة الرباط :

---

(4) البكري ، المصدر السابق ، ص863. الحميري، **الروض المعطار**، ص46.

(5) ابن الأثير ، أبو الحسن علي،**الكامل في التاريخ**، دار صادر، بيروت، (1399هـ / 1989م) 9/ 619. البكري ، المصدر السابق ، ص859.

(1) البكري ، المصدر السابق نفسه. ابن خلدون، **العبر**، 374/6.

(2) يذكر البكري أن ابن ياسين عاد إلى شيخه وجاج، فأمره بالعودة إليهم، وأن كل من خرج عن دعوته خرج عن الجماعة. أنظر : البكري، المصدر السابق، ص860.

توجه الإمام إبن ياسين والأمير يحي بن إبراهيم إلى جدالة قبيلة الأمير وعشيرته، ووافق الإمامُ الأميرَ في فكرته في الاعتزال والتعبد بإنشاء رباط متبعاً في ذلك سنة معلّمه وجاج مؤسس رباط نفيس[3] الذي تخرج منه ابن ياسين، ولذلك سميت هذه الدولة بدولة المرابطين .

وكلمة رباط[4] جمعها "رُبُطٌ" وتعني لغة ما يربط به الخيل أو المكان الذي يرابط فيه الجيش ويكون متاخماً للعدو، ورد مصطلح رباط في القرآن الكريم في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [5] وفي السّنّة النّبوية قول النبي ﷺ :﴿ رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها ﴾[6]، وفسّر الإمام الطرطوشي[7] الآية بقوله الجهاد وانتظام الصّلوات[1].

انتشرت الربط على ثغور البلاد الإسلامية المتاخمة للأعداء خاصة في بلاد المغرب، ساهمت الربط في تحصين البلاد وحراستها، كما ساهمت في إعداد الأنفس ومجاهدة شهواتا بمعنى أّنها كانت أمكنة للّتعبد والجهاد ولكن هذا الدور تطّور فيما بعد، فشمل كل مظاهر الحياة كالّتعليم مثل ما رأينا في رباط نفيس الذي أنشأه وجاج في السّوس وما سنرى عن رباط ابن ياسين في حوض السنغال بالإضافة إلى التعليم نجد أداء الّنشاطات الاقتصادية كالزراعة والصناعة والمساهمة في عجلة الحضارة وذلك ما دعا إليه الدّين الإسلامي الذي جمع بين العناية بالجانب الرّوحي الإيماني والجانب المادي

---

(3) موضع كثير الأنار والثمار، لا يوجد في ذلك القطر موضع أطيب منه ولا أجمل، وهي قديمة، أنظر: البكري ، المصدر السابق، ص851. الإدريسي، المصدر السابق، ص132.

(4) ابن منظور(محمد بن مكرم) **لسان العرب**، دار صادر ، بيروت، ط3، 1994م،302/7. حول الرباط أنظر: محمد الأمين بلغيث، **الربط بالمغرب الإسلامي ودورها** في **عصري المرابطين والموحدين**، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي جامعة الجزائر، معهد التاريخ، 1987م.

الصديق بن العربي، **كتاب المغرب**، ص ص142،143.

(5) سورة **آل عمران**، الآية 200.

(6) البخاري، **صحيح البخاري** ، المكتبة الثقافية، بيروت،102/4.

(7) أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الفهري الطرطوشي الأندلسي الفقيه العالم الزاهد (451 هـ -520) ، المعروف بابن رندقة، صحب أبا الوليد الباجي بمدينة سرقسطة، وسمع منه وأجاز له، رحل إلى= =المشرق سنة 476 هـ ،ودخل بغداد والبصرة، له سراج الملوك و الحوادث والبدع. أنظر: ابن بشكوال، المصدر السابق 449. الضبي، المصدر السابق، 127. ابن خلكان، المصدر السابق، 262/4.

(1) الطرطوشي، سراج الملوك ، ص97 نقلا عن محمد الأمين بلغيث، **الحياة الفكرية بالأندلس**، ص132.

الحياتي[2]؛ ولعلّ من العوامل التي ساعدت على انتشار الربط في بلاد المغرب هو انتشار المذهب المالكي، الذي شجع على حياة التّعبد والزهد ومجاهدة العدو والنفس.

لقد تمّ اختيار موقع الرباط من طرف يحي بن إبراهيم الذي أشار على الإمام قائلا :« إنّ هاهنا في بلدنا جزيرة في البحر ندخل إليها فنعيش فيها، فقال عبد الله بن ياسين هذا حسن فهلمّ بنا ندخلها باسم الله تعالى »[3] وابتنى بها رباطا.

واختلفت الرّوايات حول موقع هذا الرباط، بين أنّه في تارودانت في الشّمال أم في الجنوب إلا أنّ كلّ المعطيات تدعم الرّأي القائل أنّه في الجنوب على حوض السنغال[4]، وابن خلدون لا يذكر حوض السنغال بالاسم، بل يذكر حوض النيل وهو لا يعني نهر النيل، ومن المعطيات المدعمة للرأي الثاني، أنّ الأربطة تكون على الثغور المحاذية لغير المسلمين، وثغر الجنوب هذا على حدود ممالك السودان،كما أنه لا يُعقل أن يكون قريبا من لمتونة التي أخرجت ابن ياسين[5]ولذلك الرواية الأقرب للصحة هي التي تحدد موقع الرباط بحوض السنغال وهو يوافق وصف ابن خلدون أنّه -الحوض - « ضحضاحاً في الصيف، و غمراً في الشتاء »[6] وينطبق ذلك على حوض السنغال.

بدأت الحياة في هذا الرباط ببضعة أفراد من لمتونة وجدالة وهم من المقربين للأمير، وكان نمط الحياة في هذا الرباط على غرار ما عرفه ابن ياسين في رباط نفيس الذي تعلم فيه من حياة العبادة والدين وسرعان ما بدأت الوفود تنخرط في هذا الرباط وأعدادها في تزايد، إلا أن ابن ياسين وضع شروطا للانخراط فإذا اجتاز المترشح هذه الشروط تم قبوله، منها أن يعلن إسلامه من جديد، وذلك بتوبته عن جميع ما اقترف من الذنوب التي يُقام عليه حدودها، فقام عبد الله بن ياسين يعلمهم الكتاب والسنة وفق المذهب المالكي،وكان يطبق الحد على كل من ضيع صلاة الجماعة بخمس ضربات لكل ركعة[1].

وأخذت أعداد المرابطين تتزايد حتى وصل عددهم إلى حوالي ألف مرابط[2]، واعتمدوا في عيشهم على صيد البر والبحر، واكتفوا بالقليل من الأكل وبساطة الملبس وذلك لتفرغهم للعلم والعبادة، ويظهر لنا أنّ الإعداد شمل جانبا آخر إلى جانب التكوين الروحي والعلمي لهؤلاء المرابطين

---

(2) محمد الأمين بلغيث، المرجع السابق، ص133.
(3) ابن خلدون، المصدر السابق،ج6 /374.
(4) ابن خلدون، المصدر السابق، 6 /374.
(5) حسن محمود، المرجع السابق، ص126.
(6) ابن خلدون، المصدر نفسه.
(1) البكري، المصدر السابق، ص864.
(2) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص134.

ويتمثل في التكوين الجسدي، والتدريب العسكري وبناء الجيش، والدليل في ذلك أن هؤلاء المرابطين اتبعوا منهج الدعوة حتى إذا أعرضت القبائل جاهدوهم بالسيف، والمعارك التي خاضها المرابطون لتدُل دلالة قاطعة أنم أخذوا نصيبهم من التدريب العسكري.

رأى ابن ياسين أن هؤلاء المرابطين الذين كثر عددهم، قد أخذوا نصيبهم من التكوين والإعداد، وجاء دور الخروج بذه الدعوة، لنشرها في الصحراء وما يليها، فخطب فيهم قائلا:« يا معشر المرابطين إنكم جمع كثير وانتم وجوه قبائلكم، ورؤساء عشائركم، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى الصراط المستقيم، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم، وتأمروا بالمعروف، وتنهوا عن المنكر، وتجاهدوا في سبيل الله حق جهاده »[3]،فقالوا له:« أيها الشيخ المبارك مُرنا بما شئت تجدنا سامعين مطيعين، ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا»[4]، ولما رأى منهم ذلك الولاء التام له ولدعوته أمرهم بالخروج والدعوة في سبيل الله قائلاً: « اخرجوا على بركة الله ، وأنذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله، وأبلغوهم حجته، فان تابوا ورجعوا إلى الحق، و أقلعوا على ماهم عليه، فخلّوا سبيلهم، وإن أبوا من ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانم، استعنا بالله تعالى عليهم، وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين »[5]

المبحث الثالث : ظهور السلطة في الصحراء وامتدادها إلى المغرب :

1/ الدعوة و الجهاد في الصحراء :

بدأت عملية الدعوة بإرسال الرسل إلى القبائل لدعوتم إلى الالتزام بتعاليم الديني الإسلامي وترك العادات المنافية له، واّتبعوا في ذلك أسلوب الترغيب في الجنة والترهيب من النار، ولما رأى هؤلاء الرسل إعراض أقوامهم بعد وعضهم ودعوتم، خرج إليهم عبد الله بن ياسين وجمع أشياخ قبائلهم وأعيانا ودعاهم إلى التوبة، وأقام ينذرهم في ذلك سبعة أيام يرغّبهم في الجنة ويخوفهم من النار، فلما رأى نأيهم وصدودهم قال لأصحابه: « قد أبلغنا في الحجة و أنذرنا و أعذرنا وقد وجب علينا الآن جهادهم فاغزوهم على بركة الله »[1].

لم يبدأ عبد الله بن ياسين حركته التوسعية حتى أعد العدد والعدة، حيث بلغ عدد الجيش ثلاثة آلاف مقاتل[2]، وجمع الأموال [3] لشراء الأسلحة، أما القيادة فتولى هو القيادة الروحية، إذ

---

(3) ابن خلدون، المصدر السابق، 375 ، ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص125.

(4) ابن أبي زرع ، المصدر السابق، ص129 .

(5) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص125.

(1) ابن أبي زرع ، المصدر السابق نفسه.

(2) ابن أبي زرع، المصدر السابق نفسه.

كان يقول لهم:« إنما أنا معلم لكم دينكم »[4] بينما القيادة الزمنية فكان صاحبها الأول يحي بن إبراهيم الجدالي المؤسس الأول للدولة.

ويظهر لنا ملمح آخر من ملامح سياسة ابن ياسين وإستراتيجيته في أمر تولية القائد، وذلك بعد وفاة يحي بن إبراهيم، فقد حاول الجداليون الاستئثار بالسلطة لفضلهم في قيام ونجاح الدعوة ومكانتهم وقوتم، إلا أنّ عبد الله بن ياسين قضى على فتنة كادت تحدث بسبب التعصب للقبيلة فتعصف بذه الجهود الدعوية الوحدوية الإصلاحية، وهو ما يعود بالملثمين إلى سالف عصرهم من الانقسام والتشتت.

أقام السلطة الجديدة على مبدإ الأفضل والأصلح والأقدر على حمل المسؤولية، فاعتمد نظام الشورى، وجمع مجلساً من وجوه القوم، وقضى على الفتنة باختيار القائد الجديد من قبيلة لمتونة يتمثل في شخص يحي بن عمر، الذي عُرف بالدين المتين والورع والزهد في الدنيا والصلاح لأمر الجهاد [5] وأخذ البيعة ليحي ين عمر.

تمكن ابن ياسين بذه السياسة أن يحقق عدة أهداف منها منح فرص متكافئة لهذه القبائل على أساس من الكفاءة فعلّمهم مبدأ التداول على السلطة باختيار الأصلح، بالإضافة إلى أنه لماّ جعل القيادة في لمتونة قد كسب تأييد هذه القبيلة القوية مالاً وجيشاً، فقد كانت تسيطر على جزء مهم من مسالك التجارة، كما أنه كان لها السبق في رئاسة قبائل الملثمين، إضافة إلى أنا تقع في الطريق الذي يربط الصحراء بالمغرب ولذلك كان هذا الاختيار اختياراً موفقا[1] .

بعد أن أعدوا العدة وقسمت المهام بدأت عملية التوسع، فكانت الوجهة الأولى قبيلة جدالة سنة (434هـ/1042م) وأعدت جدالة نفسها للقتال، فيروي البكري أنّ جيشها بلغ ثلاثين الفاً[2]، ولو فرضنا أن هذا العدد مبالغ فيه إلا أننا نجد أنه يشير إلى كثرة جيش جدالة، فقاتلهم ابن ياسين حتى قُتِل منهم الكثير، واستسلم الباقون، وأعلنوا إسلامهم من جديد، وأدّوا ما فُرِضَ عليهم من أموال .

إن هذا الانتصار الذي افتتح المرابطون به حياتم الجهادية، هوّن كثيرا من الصعاب ومهد لإخضاع الصحراء، و واصلوا إخضاع قبائل الملثمين الأخرى مسوفة ولمطة وجزولة.

---

(3) البكري، المصدر السابق، ص864.

(4) مجهول، **الحلـل الموشيـة**، ص21.

(5) البكري، المصدر السابق، ص861. محمد فاروق النبهان، **أبحاث إسلامية**، مؤسسة الرسالة، ط1، (1406هـ/1986م) بيروت، ص260.

(1) حسن محمود، المرجع السابق، ص148.

(2) البكري، المصدر السابق، ص862.

تمكن عبدالله بن ياسين من بسط سلطته على كافة الصحراء، واستسلمت له جميع قبائلها وزادت أعداد الملتحقين إلى جيش المرابطين، وذلك بعد إعلان توبتهم بإقامة الحدود عليهم وتصحيح نيتهم كما زادت الموارد المالية للدولة بسيطرتم على تجارة الصحراء، ووحد القبائل في حلف جديد مبنيا على أسس متينة من الدين، وحكم الصحراء وفق أحكام الشريعة من تنظيم للحياة الاجتماعية بتطبيق المساواة ومحاربة البدع،وإلزام الـتمع بدفع ما عليه من زكاة وأعشار،وألغى المكوس والضرائب التي لا أساس لها في الدين، وساد العدل والأمن ونشطت الحركة التجارية وتيسرت أحوال الناس.

2/ امتداد السلطة المرابطية إلى المغرب الأقصى :

تناقل التجار أخبار الـتمع الجديد، وما تميز به من مظاهر العدل والمساواة والُيسر في ظل سلطة المرابطين، فانتشر ذلك في أرجاء المغرب، حيث يعيش الناس تحت هيمنة رؤساء قبيلة زناتة وانتشار الظلم السياسي والفساد الاجتماعي، فسبقت أخبار المرابطين إلى قلوب أهل المغرب، قبل أن تطأ أرجلهم أرضه، ودليل ذلك مكاتبة فقهاء سجلماسة ودرعة لابن ياسين يطلبون نجدته من جور الحكام وفساد الأحوال(3)فجمع عبد الله بن ياسين شيوخ قومه وشاورهم في الأمر، فأشاروا له بالسير قائلين: « أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا ويلزمك فسر بنا على بركة الله »(1)،وسار المرابطون إلى سجلماسة(2)وانتصروا على حاكمها "مسعود بن وانودين بن خزرون" المغراوي، ومن سجلماسة شقت السلطة الجديدة طريقها نحو كل أرض المغرب الأقصى واجتيازه نحو الأندلس، وخروج دعوتم من الصحراء هو خروج الملثمين من هامش الحياة،واحتلال موقع هام من صفحات التاريخ والحضارة .

إن دخول المرابطين للمغرب الأقصى، هو ليس فقط استجابة لدعوة المضطهدين سياسياً واجتماعياً بل إننا نجد أن طموح ابن ياسين يتجاوز حدود الصحراء، إذ يذكر صاحب الحلل الموشية(3) أنّ عبد الله بن ياسين، لما رأى استقامة لمتونة واجتهادهم أراد أن ُيظهرهم، ويملكهم بلاد المغرب، وقال لهم إنكم صبرتم، ونصرتم دين رسول الله ﷺ وقد فتحتم ما كان أمامكم، وستفتحون إن شاء الله ما وراءكم، فأمرهم بالخروج من الصحراء وقد يظهر أن العلاقات القديمة بين صنهاجة

---

(3) ابن خلدون، **العبر**، 190/6، البكري، المصدر السابق، ص861، ابن عذاري، المصدر السابق،4/ 10.

(1) ابن أبي زرع ، المصدر السابق، ص127.

(2) البكري ، المصدر السابق، ص861.

(3) مجهول، المصدر السابق، ص22.

البرانس مع زناتة البترية[4] هي دافع الغزو، إلا أن العامل الأساسي هو إصلاح ما كانت عليه بلاد المغرب من فساد وهو ما يتبين في سياسة السلطة في إدارة شؤون البلاد.

يذكر ابن عذاري أنّ عملية فتح المغرب الأقصى كانت سنة(447هـ/1055م) [5]ولم يسلك المرابطون الطريق الساحلي في فتح المغرب الذي يصل جبال درن ثم الطريق الذي سلكه عقبة بن نافع وموسى بن نصير، بل نجد أنّ المرابطين تتبعوا فتح المناطق الصحراوية الواحدة تلوى الأخرى، وذلك لتتبع مضارب زناتة والقضاء عليها، وتمكنوا من فتح سجلماسة ودرعة وانتصروا على مسعود المغراوي واستولوا على الأموال والدواب والأسلحة، فأخرج ابن ياسين الخُمس، وفرقه على فقهاء سجلماسة ودرعة، وقسّم الباقي على المرابطين [6] وأصلح ما أمكن إصلاحه من أحوال سجلماسة فقضى على متاجر الخمر، وأزال المكوس ومنع المعازف وغيرها من مظاهر المجون.

وعلى إثر نبإ استعادة غانة لأودغست،ترك ابن ياسين حامية من المرابطين في سجلماسة ليعود إلى الصحراء لاسترجاع أودغست [7]لكن الزناتيين قاموا ضد حامية المرابطين وقضوا عليها [8]،إنّ هذه العملية أذكت في المرابطين روح قتال زناتة أكثر من ذي قبل فجمعوا قواتهم واكتسحوا إقليم الواحات فلم يبقوا لزناتة أثراً فيها .

وفي الوقت الذي حقق فيه المرابطون توسعاتهم في إقليم الواحات كان يحي بن عمر قد استشهد إثر هجوم قامت به جدالة سنة (448هـ/1056م)[1]، وبسبب شروع المرابطين في توسعاتهم نحو المغرب الأقصى فإن ابن ياسين عجّل في اختيار القائد الجديد، فاختار الأمير أبو بكر بن عمر، ليخلف أخيه، وأخذ له ابن ياسين البيعة من شيوخ القبائل وقلده أمر الحرب[2]، والأمير أبو بكر له سبق في كل المراحل التي مرّ بها المرابطون من بداية الدعوة وإقامة الرباط كما أنه من الذين دعوا إلى الجهاد والتأسيس للدولة، وهو أمير لمتونة، تولى أمر درعة عند فتحها، وساهم في إخضاع سجلماسة وثوارها، إلى جانب هذه الشخصية بدأت تظهر شخصية يوسف بن تاشفين إبتداءً من هذه المرحلة من مراحل الفتح [3] .

---

(4) محمد بن عميرة، المرجع السابق، ص236.

(5) ابن عذاري ، المصدر السابق، 3/ 243.

(6) البكري، المصدر السابق، 168. مجهول، المصدر السابق، ص21.

(7) البكري، المصدر السابق، ص861 .

(8) البكري، المصدر السابق ، ص167. ابن عذاري، الصدر السابق ، ص13.

(1) البكري، المصدر السابق، ص862. ابن عذاري ، المصدر السابق، 14/4

(2) ابن خلدون، المصدر السابق، ص183.

(3) حسن أحمد محمزد، المصدر السابق، 219 وما يليها.

وتوجه المرابطون إلى مضارب مصمودة في السوس الأقصى، إلا أن هذه القبيلة لم تبد مقاومة للمرابطين وسيطروا على بلادهم(4)، ولعل السبب في ذلك هو العداء الشديد بين مصمودة وزناتة فرأو في المرابطين حليفا للقضاء على الزناتيين (5)، وتمكن المرابطون من الاستيلاء على جزولة وماسة، وتارودانت عاصمة الإقليم، وفيها قضى على طائفة من الشيعة الروافض البجليين(6)،وتتبعوا قبائل السوس حتى أخضعوها وعين عليها عُمالا، يمثلون السلطة ويقومون على شؤون الرعية بتطبيق العدل ويقومون بجباية الزكاة والأعشار ويلغون غيرها من المغارم(7)، ومن السوس توجه إلى أغمات وكان يحكمها حينها "لقوط بن يوسف بن علي المغراوي"، وكانت أغمات حصناً منيعاً أمام أيّ حركة تجاه فاس، فحاصرها بشدة ما أدى إلى فرار أميرها إلى منطقة تادلا(8)، ولما تمكن المرابطون من فتح أغمات أقاموا با، واتخذوها أول حاضرة لهم وانقضوا على تادلا فقتلوا الأمير المغراوي لقوط وبذلك بسط المرابطون قوتم على كل إقليم الجنوب.

ومن أغمات سارت قوات المرابطين إلى إقليم تامسنا حيث توجد إمارة برغواطة(1)وكانت هذه الإمارة متجذرة في الجاهلية والبدع المنافية لتعاليم الإسلام، حاربا الأدارسة والأمويون، وحاربا الحماديون أثناء حملتهم على المغرب، لكن كل هذه القوى لم تفلح في القضاء عليهم واستئصالهم حتى جاء المرابطون فخاض الطرفان معارك شديدة أدت إلى استشهاد عبد الله بن ياسين إثر إصابته بجروح سنة(451ه/1059م) (2) .

(4) البكري ، المصدر السابق، ص863.

(5) حسن محمود، المرجع السابق، ص196.

(6) سبق ذكر هذه الطائفة في الفصل التمهيدي .

(7) البكري ، المصدر السابق، ص 858. ابن عذاري ، المصدر السابق، 13/4

(8) تادلة(تادلا): تقع على وادي أم الربيع، ويعرف اقليمها بفزاز، وبا تم تأسيس مدينة داي، تبعد على أغمات أربعة أيام، با معدن النحاس الخالص، تبعد عن مدينة داي مرحلة، ومنهما يحمل النحاس إلى سائر البلاد، وبا يزرع القطن، ومنها يسافر إلى كل الجهات، وباتين المدينتين أرزاق ومعايش وخصب، وأهلها أخلاط من البربر، أنظر : الادريسي، المصدر السابق، ص144.الصديق بن العربي، المرجع السابق، ص91.

(1) البكري، المصدر السابق، ص776 وما يليها. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص130. أنظر: الإدريسي، **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس**، 139. ابن خلدون، **العبر**، 428/6 وما يليها.

(2) انقسم المؤرخون إلى فريقين حول السنة التي أستشهد فيها عبد الله بن ياسين ، فنجد أنّ البكري و ابن عذاري و ابن أبي زرع يرون أن سنة الوفاة كانت(451ه /1059م) .أنظر:البكري، المصدرالسابق، ص863، ابن عذاري، **البيان المغرب** 16/4، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص130 . بينما يرى ابن خلدون أنّ سنة الاستشهاد كانت(450ه /1058م). أنظر: ابن خلدون، **العبر**،376/1، والمرجح هو سنة 451ه وذلك بالنظر إلى جريان الأحداث وتوسع المرابطين، فنجد أنم دخلوا أغمات سنة 450ه ، ومكثوا با مدة ثم هاجموا تادلة، ثم عادوا للاستقرار وقتال برغواطة يتطلب الاستعداد

وكان قد أوصى المرابطين و هو يحتضر قائلاً : « يا معشر المرابطين إني ميت في يومي هذا وأنتم في بلاد أعدائكم، فإياكم أن تجبنوا فتفشلوا و تذهب ريحكم، وكونوا ألفة أعوانا على الحق وإخوانا في ذات الله تعالى، وإياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرياسة فإن الله تعالى يؤتي ملكه من يشاء ويستخلف في أرضه من أحب من عباده، وإني ذاهب عنكم فانظروا من ترضونه لأمركم يقود جيوشكم ويغزوا أعداءكم ويقيم فيكم زكاتكم وأعشاركم » [3].

يتبين لنا من هذه الوصية إخلاص ابن ياسين لمبادئه، وحبه لأتباعه، وصدقه في أدائه لرسالته لإقامة المجتمع المسلم ، وزهده في الدنيا، وخوفه على ضياع ما بنى ،كان متشدداً في تطبيق تعاليم الدين، يذكر أنّ شيخه وجاج لما وصلته أخبار شدته أنكر عليه ذلك فأجابه أنّ هذه الأمة التي أرسلتني إليها أمة جاهلة، يخرج أحدهم ابنه وابنته لرعي السّوام، فيغربان في المرعى فتأتي المرأة حاملاً من أخيها، ولا ينكرون ذلك وليس دأبهم إلا الإغارة بعضهم على بعض، وقتل بعضهم لبعض لا دية لهم في الدماء، ولا حرمة عندهم للحريم، ولا توقي منهم في الأموال، فأخبرتهم بالمفروض عليهم والمسنون لهم والحدود فيهم، فمن قبل واليته، ومن تولى أرديته، وما جاوزت حكم الله ولا تعديته لكن البكري يصف بعض أعمال ابن ياسين بالتجاوز والجهل[1]

3/ السلطة المرابطية في عهد أبي بكر بن عمر:

بعد استشهاد ابن ياسين كان الشخص المرشح لخلافته أبوبكر بن عمر فقد اختاره الإمام ابن ياسين لخلافة يحي بن عمر بعد وفاته، وهو من السابقين الأوائل والمؤسسين لهذه السلطة، شارك في الدعوة منذ بدايتها وحكم درعة عند فتحها، وساهم في استرجاع سجلماسة وتأديب الزناتيين فتم الإجماع على اختياره ومبايعته لإيمانه وعمله وبلائه، فتمت مبايعته من طرف أشياخ القبائل وجمع أبوبكر بن عمر بين السلطتين الروحية والزمنية، وعبأ جنده لقتال برغواطة، وتمكن منهم قتلاً وتفريقاً وسبيا، فتفرقت برغواطة في الصحراء وأذعن من بقي بالطاعة وأسلموا إسلاما جديدا، وتم استئصال هذه الطائفة[2].

للمعركة ، فلا يعقل أن ينقل ابن ياسين قوات المرابطين لقتال برغواطة وهو أعلم الناس بشدتهم .ولا يعقل أن كل ذلك جرى سنة 450هـ .

(3) ابن ابي زرع، المصدر السابق، ص132.

(1) من الأمور التي انتقد فيها البكري ابن ياسين: أخذه ثلث أموال المناطق التي توسّع فيها، واعتبار أنّ كل من دخل في دعوتهم مرتكباً للذنوب، وضربه مائة سوطاً حداً للزنا، وثمانين سوطاً حداً لشرب الخمر، وعشرين سوطاً لمن تخلّف عن صلاة الجماعة، ومن فاتته ركعة يجلد خمسة أسواط، حتى أنّ البعض يضطر للصلاة دون وضوء حتى لا يتخلّف عن الجماعة فيجلد. أنظر: البكري، المصدر السابق، ص864.

(2) دندش، المرجع السابق، ص97.

ورجع أبوبكر بن عمر إلى أغمات ، وزادت الوفود إقبالا عليه، فرأى ما آلت إليه أغمات من الضجيج فأشاروا عليه بمكان متوسط بين هيلانة وهزميرة، يناسب طبيعة المرابطين وطموحاتم قالوا له :« قد نظرنا لك أيها الأمير موضع صحراء رحب الساحة، يليق بمقصدك، يكون وادي نفيس جناتنا، وبلاد دكالة[3]فدانا » ووجدها مرعا خصبا لأنعامهم، فشرع في بناء العاصمة الجديدة مراكش سنة(462هـ/ 1069م)[4].

وفي هذه الفترة وفد رسول إلى الأمير أبي بكر بن عمر من الصحراء، يخبره بنشوب قتال شديد بين جدالة ولمتونة [5]، وتزايد أطماع غانة في الجنوب، مستغلة أوضاع المرابطين في الصحراء وانشغالهم بالفتح في الشمال، لذلك رأى أبو بكر بن عمر أن يتولى بنفسه إصلاح الأوضاع والقضاء على الأطماع واختار لخلافته ابن عمه يوسف بن تاشفين، وأقره على ذلك أشياخ المرابطين،ـ لماّ رأو من يوسف من تقوى وشجاعة وصلاح وحزم، وأمره بالاستمرار في قتال مغراوة وبني يفرن وزناتة وطلّق الأمير زوجته زينب النفزاوية وأوصى ابن عمه يوسف بالزواج منها لسداد رأيها، وصحب الأميرمعه نصف الجيش[1]، وتوجه به إلى الجنوب ليقضي على الفتنة ويوحد الصفوف ضد تديدات غانة.

إن هذه الأعمال التي قام بـا أبوبكر بن عمر تنبئ عن شخصية سياسية سامية، فرأى أنّ أمر الفتنة قد يؤدي إلى القضاء على المرابطين فتولى بنفسه عملية القضاء عليها،كما أنّ أهمه أمر إخوانه الذين سيتركهم فلم يبرحهم حتى كلف من يتولى شؤونم، كما أنّ تحمله مشاق الصحراء دليل على الشجاعة والقوة وفي نفس الوقت زهده في حب السلطة، ولو كان متمسكا بـا لما ترك عاصمته ولكلّف غيره في تولي شؤون الصحراء[2].

وقاد يوسف بن تاشفين المرابطين في قتال الزناتيين، فانقضوا على ديار بني يفرن فهزموهم وفروا إلى فاس، يتحصنون عند أمرائهم، وفتح المرابطون فازاز[3]، ولواتة، ومكناسة [4].

---

(3) دكالة يطلق الاسم على مجموعة القبائل المقيمة على ساحل الأطلنطي عند وادي أم الربيع، وهي منطقة خصبة، أنظر: الإدريسي، المصدر السابق، ص143. الصديق بن العربي، المرجع السابق، ص ص134، 135.

(4) مجهول، المصدر السابق، ص ص15، 16. أنظر تباين الروايات حول سنة تأسيس مراكش: بلغيث، المرجع السابق،ص57

(5) ابن عذاري، المصدر السابق ،ص ص 18- 21 . مجهول، المصدر السابق، ص16. دندش، المرجع السابق ، ص100.

(1) حامد محمد خليفة، **يوسف بن تاشفين موحد المغرب وقائد المرابطين ومنقذ الأندلس من الصليبيين**، دار القلم، ط1 سوريا 1424هـ/2003، ص78.

(2) حامد محمد خليفة، المرجع السابق، ص ص 78، 79.

(3) فازاز بطن من بطون زناتة، سكن منطقة تادلا إلى مكناس وملوية، ساهم أهلها في حروب المرابطين، أنظر: الصديق بن العربي، المرجع السابق، ص207.

(4) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص134.

وهنا لا نغفل ذكر ظهور العصبية القبلية المنتشرة في المغرب، حيث تتوزع هذه العناصر البترية والبرنسية ومن مظاهر ذلك قيام بلكين الحمادي من المغرب الأوسط يهب لنصرة أبناء عمومته من صنهاجة الجنوب في معاركهم ضد زناتة[5]، دخل بلكين دولة فاس، وطعن الزناتيين من الخلف ولكنه سرعان ما ارتد إلى المغرب الأوسط[6] .

وقام يوسف بن تاشفين بتنظيم الجيش وإعداده ليواصل الزحف، وهذه المرة على فاس حصن زناتة المنيع وبدأ السير إليها، فاجتاز جميع الحصون التي كانت في طريق فاس، ودخل المرابطون إليها سنة(455هـ/1063) [7]، وعجّلوا خروجهم منها، وتركوا بها حامية ضئيلة، واتجهوا شمالا نحو بلاد غمارة، وهنا بدأت هجومات الزناتيين فاقتحموا مدينة فاس، وقتلوا الحامية، ولما جاءت نجدة المرابطين وقعت معركة خارج أسوار المدينة، حقق فيها الزناتيون انتصاراً ، لكن المرابطين لم ييأسوا فجمعوا قواتهم وضربوا حصارا على المدينة وعزلوها عن القبائل التي تحيط بها حتى استسلمت[1] ودخل جيش المرابطين المدينة، فنكلوا وقتلوا من ُوجد فيها من الزناتيين، وفر منهم من بقي إلى المغرب الأوسط.

كان الاستيلاء على فاس إيذانا لخضوع المغرب الأقصى للسلطة المرابطية، فهي عاصمته الأولى ومركز قوته فاستولى المرابطون على السهول الساحلية، ووصلوا إلى الساحل الذي ُيَعَدُ بوابة المغرب الأقصى، نحو العالم فقضوا على بقايا زناتة، وتتبعوا من فرّ منهم إلى المغرب الأوسط، فاستولوا على وادي ملوية، ومدينة وجدة واقليم تازة حتى وصلوا تلمسان فضموها إلى سلطتهم [2] .

4/ السلطة المرابطية في عهد يوسف بن تاشفين:

تمكن أبو بكر بن عمر من تحقيق القضاء على الفتنة بين قبائل الملثمين في الصحراء، وواجه تديدات غانة، ورجع إلى المغرب الأقصى سنة(465هـ/1072م)[3]ونزل في أغمات، ولقي يوسف بن تاشفين وهنا اختلف المؤرخون في تصوراتم لطبيعة اللقاء والعلاقة بين الرجلين، فهناك من ُيصور يوسف بن تاشفين مغتصبا للحكم، وأنّ أبا بكر بن عمر لما سمع ذلك هبّ مسرعا لاسترداد حكمه

---

(5) ابن عذاري، المصدر السابق، 1 /265.
(6) حسن محمود، المرجع السابق، ص 200.
(7) حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 203.
(1) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص139.
(2) مجهول، المصدر السابق، ص28.
(3) مجهول، المصدر السابق، ص14.

ليخلع يوسف بن تاشفين ويٌعين غيره[4] ولكن القرائن التي لدينا تبين أنّ ما ذُكر بعيد كل البعد عن الحقيقة وما هو إلا تويل و إضفاء المسحة الأسطورية على الرواية.

انطلاقاً من تعيين أبي بكر بن عمر ليوسف، ليخلفه في المغرب فهو نائبه ويقوم بجميع أعماله وما تعيينه إلا حفاظاً على مصلحة السلطة والتمع المرابطي، وأن يستمر في عملية الفتح واستطاع يوسف بن تاشفين أن يوحد صفوف المرابطين وأن يدك تجمع الزناتيين في فاس، فبفضل شجاعته وفروسيته تمكن من بسط سلطة المرابطين على كافة أرض المغرب، وبعد كل هذا فلا يغرب أن يتخذ لنفسه مظاهر الملك[5] وذلك عين ما كان يريده أبوبكر بن عمر من خليفته، ودليل ذلك أنّه لما رجع أقرّه في السلطة، ولو كان يريد استرداد الحكم لجاء مهاجماً، خاصة وأننا ذكرنا أنّه أخذ معه نصف الجيش، وكل القبائل بايعته دون معارضة تذكر، ومعنى ذلك أنّ ما قام به يوسف لو كان انقلاباً لحدث انشقاق في صفوف المرابطين وأدى إلى صراع على الحكم، ولكنهم كانوا أسمى من أن يتطاحنوا على السلطة ويدمروا ما تمّ التخطيط له و إنجازه قبل أكثر من ثلاثين سنة - منذ لقاء يحي بن إبراهيم بأبي عمران الفاسي - وبذلك يكونوا قد خالفوا وصية إمامهم عبد الله بن ياسين .

فلما قدم أبوبكر بن عمر من الصحراء، استقبله يوسف بن تاشفين بـدية كبيرة[1] ، تليق بمقام الأمراء، فبعد أن رأى ما آلت إليه أرض المغرب الأقصى وسره ذلك، ورأى توفيق يوسف في حكمه وقيادته، فلم يشأ أن يطلب السلطة مؤثراً ابن عمه على نفسه، وآثر هو أن يرجع إلى الصحراء وقبل انصرافه أحضر شيوخ المرابطين وأشهدهم تخليه عن السلطة له، وقال له: « لا غنى لى عن الصحراء وما جئت إلا لأسلم الأمر إليك و أهدنك في بلادك وأعود إلى الصحراء مقر إخواننا ومحل سلطاننا »[2] وبذلك أصبحت سلطة المرابطين بيد يوسف بن تاشفين، بعد أن تنازل له الأمير أبو بكر عنها عن رضى وقناعة، غير مكره، و هذا يبين مدى زهد الأمير في الحكم، وآثر مواصلة حياة الدعوة والجهاد في الصحراء، و لو فرضنا أنّ الأمير أبوبكر كان راغباً في السلطة، ووجد يوسف أمامه، ولو كان هذا صحيح فإنّ تنازله عن السلطة لا يحط من قيمة الرجل، بل يزيده رفعة لأنّ نفسه لم تنازعه على ضرورة استرداد ملكه، ورأى أن لا تسفك دماء المسلمين من أجل مصلحة خاصة، ولو حدث ذلك لضاعت دولة المرابطين، بين قبائل زناتة .

---

(4) حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص224.

(5) حسن أحمد محمود، المرجع نفسه.

(1) مجهول، المصدر السابق، ص27.

(2) مجهول، المصدر السابق ، ص26.

وعلى الرغم من هذا التنازل فقد بقي يوسف بن تاشفين معترفاً بسلطة أبي بكر بن عمر أميراً على المرابطين بدليل أنّ اسمه بقيّ يضرب على الدينار المرابطي حتى توفي سنة(480هـ/1087)[3] وهذا السلوك من يوسف أيضا يبين حنكة الرجل وحكمته السياسية، كما يبن هدفه من السلطة، فهو لا يريد مالاً ولا شهرة ولو كان يريد ذلك لنسب السلطة إليه من أول يوم تقلّدها، ولمنع تداول اسم أبا بكر بن عمر ولألغى ضربه على العملة، لذلك بقي الناس يذكرون أميرهم،وهو اعتراف ضمني في قلوب المجتمع ورسمي في السلطة القائمة،وإن دلّ هذا على شيء إنّما يدل على أنّ هذه الشخصيات السياسية التي حكمت السلطة المرابطية لم يكن همها الاسم والمنصب وجمع الثروة بقدر ما كان يهمها ما تقدمه للرعية، والسهر على مصالحها، ولعلّ خير دليل على ذلك هو استجابة يوسف بن تاشفين لأهل الأندلس سنة(479هـ/1086م) حين استنجدوه ضد حملات الصليبيين فنجده استشار أهل العلم من العلماء وما إن أفتوه بوجوب نصرتهم قاد جيش المرابطين إلى الأندلس، وحقق انتصاره الكبير الذي أوقف الزحف الصليبي وجعل من جيشه حامياً لثغور الغرب الإسلامي، أجاز له العلماء القضاء

على حكم ملوك الطوائف وإلحاق الأندلس إلى حكمه بالمغرب وموافقة الخليفة العباسي على ذلك [1].

5/ أسس قيام السلطة المرابطية :

السلطة المرابطية سلطة سياسية، حكمت المغرب والأندلس طيلة فترة تقدر بعمر جيلين كما عبّر عن ذلك ابن خلدون، استطاعت خلالها أن تبسط نفوذها من الأندلس شمالاً إلى السودان الغربي حتى حوض السنغال جنوباً، ومن المحيط الأطلسي غرباً، إلى تلمسان في المغرب الأوسط شرقاً تمكن المرابطون خلال هذا المجال الزمني والجغرافي أن يُغَيِّرُوا الأوضاع تغييرًا جذريًا، فأنهوا ذلك الظلم السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي سلّطه أمراء زناتة على أهل المغرب الأقصى، متّبعين في ذلك نهج الإصلاح الديني، في النّظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي طُبق في المغرب، وفي الأندلس قام المرابطون بنجدة المجتمع الأندلسي من خطر الصليبيين شمالا ومن تسلط وظلم ملوك الطوائف الذين كادت أن تضيع الأندلس بسببهم، فساد الأمن والعدل و الازدهار، ونشطت الحركة التجارية فانتشر الرخاء، ووجهت قوة الجيش إلى الدفاع عن ثغور الأندلس، فتم للمرابطين تحقيق الملك على المغرب والأندلس فما هي أهم الأسس التي حققت هذا الملك؟

---

(3) حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص225.

(1) أبو بكر بن العربي، **الرسائل** ، نشر وتحقيق عبد اللطيف دندش، (ضمن كتاب دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا)ص ص 202، 203.

أ- الأساس القبلي والعصبي :

بدأت أول جذور السلطة المرابطية بتفاعل كبير بين عدة أسس أدت إلى تأسيس السلطة وأول هذه الأسس القبيلة وما ينتج عنها من عصبية، وحسب النظرة الخلدونية(2) أنّ العصبية غايتها الملك لما فيه من شرف المنصب،واشتماله على الخيرات، ولذلك هو محل نزاع وتنافس، ولا يكون ذلك إلا للعصبية، فنشأت السلطة المرابطية على العصبية، مثلما ضّيع أهل الأندلس حكمهم بتفرق عصبياتم، وتمثلت عصبية المرابطين في بدو الصحراء من صنهاجة الجنوب، و إذا كان البدوي معروف بالشجاعة والتغلب والغزو، فبدو الصحراء أكثر شجاعة وتغلباً بسبب ما ينعكس عليهم من خصائص صحاريهم، ومن خصائص صحراء الملثمين ما ذكره الوزان قائلا: « صحراء شديدة الجفاف، لا يوجد فيها ماء إلا على مائة أو مائتي ميل وهو مالح مر في آبار عميقة »(3)قساوة الصحراء أكسبت الملثمين خصائص التماسك والتعاون والوحدة والقوة حتى يتجاوزوا مشاق الطبيعة كما جبلتهم الصحراء على التحمل والصبر.

ونظراً لعيشهم في الصحراء، واعتمادهم على الألبان واللحوم في غذائهم، فإنّ أخلاقهم كانت أبعد عن الانحراف، وأذهانم أثقب في المعارف والإدراك(1)، لكن هل تمكنت هذه العصبية من تحقيق غايتها في الملك، إذا رأينا تجربة الملثمين قبل ظهور سلطة المرابطين فإّنهم لم يحققوا ملكا كبيرا، كل ما تذكره المصادر أّنهم كانوا في مد وجزر مع مملكة غانة في الجنوب وقبائل زناتة في الشمال، والسبب في ذلك يرجع إلى تكافؤ هذه القوى فهي كلّها عصبيات، ومن جهة أخرى فإنّ روح العصبية من حين إلى آخر تضعف وتتفرق بسبب الصراعات الداخلية لأسباب سياسية تتعلق بالتنافس على القيادة، وكنا نرى ذلك ما بين لمتونة وجدالة ولأسباب اقتصادية، بسبب التنافس على مسالك التجارة بالإضافة إلى المشاكل الاجتماعية التي لا تجد نظاما محكماً يحلها، ولذلك كانت العصبية وحدها قاصرة عن تحقيق الحكم وهي بذلك تحتاج إلى قوة تستطيع من خلالها أن تتجاوز خلافاتا وُتدّعم قوتا وتوحد صفوفها وترسم طريقها وتوضح أهدافها، وهذه القوة هي التي سعى يحي بن إبراهيم إلى إقامتها في مجتمع الملثمين وتمثلت في الدعوة الدينية الإصلاحية التي قادها عبد الله بن ياسين.

---

(2) ابن خلدون، **المقدمـة**، ص 152.

(3) حسن الوزان ، المصدر السابق،148/2.

(1) ابن خلدون ، المصدر السابق، ص103.

ب- الأساس الديني الإصلاحي :

يرى ابن خلدون [2] أنّ العرب مثلما هو الشأن بالنسبة للبربر لا يكون لهم الملك إلا بدعوة دينية،وذلك لما يتميزون به من طبائع هم مجبولون عليها، ومن هذه الطبائع مثلا الغلظة والأنفة فلا ينقادون لبعضهم البعض إلا إذا كان هناك وازع الدين، وفي هذه الحالة يكونون أسرع الناس انقياداً للدين لفطرتم ، فالدين قوّم أخلاق هؤلاء الملثّمين، ووحدهم، ووجه قوتم نحو أهداف دقيقة تتمثل في إقامة الـتمع الإسلامي القوي، والقضاء على الأنظمة الهزيلة في المغرب والأندلس .

فالسلطة المرابطية قامت على أساس دعوة دينية، وفق المذهب السني المالكي، بمسعى من علماء المغرب لإنقاذ البلاد والعباد، خاصة وأنّ الأخطار[3]كانت تدد العالم الإسلامي شرقاً وغرباً منذ مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر ميلادي) حيث بدأت أطماع أمراء الإقطاع في الغرب المسيحي تتجه أنظاره إلى الشرق فظهرت الحروب الصليبية، وبدأت الممالك النصرانية تجنح إلى الوحدة السياسية، وبداية ما يسمى بحملات الاسترداد المسيحي، ويقابل هذا بالنسبة للعالم الإسلامي كل مظاهر الانقسام والفوضى السياسية والمذهبية فكانت سلطة الخلافة العباسية في مرحلة ضعف وظهور بعض القوى المتغلبة كتسلط النفوذ البويهي الشيعي عليها [1] من الشرق، والفاطمي من الغرب أما بلاد المغرب فما إن تخلصت من صراع العبيديين والأمويين حتى وقعت في فوضى شملت كل الـالات [2] .

على إثر ذلك أدرك علماء الإسلام وجوب إنقاذ الأمة مما آلت إليه وأنّه لا يتم ذلك إلا بالإصلاح الديني، يظهر ذلك جلياً في المغرب في العلاقة التي ربطت كل من عالم القيروان أبي عمران الفاسي وفقيه السوس وجاج بن زلّو اللمطي وتلميذه عبد الله بن ياسين، الذين رأو أنه لا يصلح أمر المغرب خاصة وبلاد الإسلام عامة إلا بدعوة دينية إصلاحية تؤسس لدولة سنية تقوم على فقه مالك،ولذلك نجد أنّ النظام العام الذي قامت عليه السلطة المرابطية هو نظام ديني سني مالكي طُبّق في جوانب الحياة المختلفة، وتظهر هذه الممارسة خاصة في ميدان الجهاد والجباية، فلا يمكن أن تستطيع دولة أن تحمل شعار الإسلام إذا لم تكن قوية قادرة على الدفاع عن الإسلام والمسلمين مُهابة من أعدائها، فالسلطة المرابطية قامت على منهج الآية الكريمة في قوله تعالى : وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا

---

(2) ابن خلدون، المصدر السابق، ص 163.

(3) بوتشيش، المرجع السابق، ص56

(1) بنو بويه أسرة فارسية، شيعية، حكمت بغداد من سنة (334هـ/945م)، أسسها أبو شجاع بويه و أولاده الثلاثة، تحكمت في سلطة الخلافة العباسية إلى أن استردها السلاجقة الأتراك. أنظر : ابن الأثير، **الكامل** في **التاريخ**، 448/8.

(2) حسين مؤنس، المرجع السابق ، مج 1/1 /13.

اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ [3]فهي آية تحث على تقوية الدولة حتى تكون ذات رهبة وتؤدي واجبها الجهادي فنشرت الإسلام في إفريقيا الغربية وأوقفت زحف الصليبيين على الأندلس ولم تتأت هذه القوة إلا بتأمين الدولة لمواردها المادية والمالية ويعتبر ذلك أحد أهم الأسس التي قامت عليها السلطة المرابطية .

ج- الأساس المالي الاقتصادي :

إنّ الاختلال في موازين القوى السياسية بين العالمين الإسلامي والمسيحي صحبه اختلال في الموازين القوى الاقتصادية، ويظهر الاختلال في فقد المسلمين لشرايين الملاحة البحرية في المتوسط وانفلات دور الوساطة التجارية من يدها [4]، وعرف العالم المسيحي إرهاصات النهضة البرجوازية التجارية [5] حيث لعبت الجمهوريات الإيطالية دور الوسيط في التجارة بين الشرق والغرب .

إنّ هذا الاكتساح الاقتصادي،كان إلى جانب التهديد السياسي، مُنّبهاً شعر من خلاله أولو العلم من المسلمين بخطورة الموقف، وهو ما يتطلب استغلال ما أمكن من الإمكانات الاقتصادية المتاحة، لاسترداد المكانة السياسية والهيمنة التجارية، وهنا تفطّن علماء المغرب إلى إستراتيجية منطقة السودان الغربي وحيويتها التجارية التي تقطنها قبائل الملثمين، خاصة وأنّ تجارة القوافل التي اكتست أهمية دولية منذ القرن الثالث الهجري، عرفت تحولات في النصف الأول من القرن الخامس في مسالكها، لتتركز في صحراء الملثمين ويرجع ذلك إلى عوامل منها[1]، غمر الرمال للطريق الرابط بين مصر و غانة ، إضافة إلى الاجتياح الهلالي الذي أفقد المسالك الشرقية حتى المغرب الأوسط أهميتها الأمنية، فتركزت مسالك التجارة في السودان الغربي، واستفادة الملثمين من ذلك المورد الهام للمال من جباية للضرائب وتنشيط للتجارة الرابطة بين العالم الإسلامي وإفريقيا الغربية، فكانت هذه الاستفادة المادية عاملا من عوامل قيام السلطة المرابطية، ثم أساساً من أسس بناء قوّتا للدولة، هذه القوّة التي صُرفت إلى الغزو والجهاد حتى سمي اقتصاد الدولة المرابطية باقتصاد المغازي[2] وبدأت تسترجع شطراً مهماً من الوساطة التجارية في البحر المتوسط، أمّا تجارة القوافل الصحراوية فكانت كلّها بيد المرابطين، فاستفادت من معدن الذهب الذي سُكّ منه الدينار المرابطي، فأشتهر عالمياً

---

(3) سورة : **الأنفال**، الآية 60.

(4) محمود إسماعيل، **دراسات في الفكر والتاريخ الإسلامي** 3، سينا للنشر،ط1، 1994، ص30.

(5) بوتشيش، المرجع السابق، ص59.

(1) بوتشيش، المرجع السابق، ص57.

(2) بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي**، ص 204.

كعملة قابلة للصرف، حيث وُجد هذا الدينار في أوربا ومصر والقسطنطينية (3) وهذا التعامل هو اعتراف ضمني بقوة المرابطين الاقتصادية إلى جانب قوتها السياسية، واستطاعت أن تعيد التوازن بين ضفتي البحر.

خلاصة كل ذلك بعد أنّ تتبعنا مراحل قيام السلطة المرابطية وانتشارها، وبالنظر إلى الإطار العام الذي ظهرت فيه هذه السلطة يتبن أنّها قامت على عدة أسس هامة ومتكاملة من شأنها أن تحافظ على استقرار الدولة واستمراريتها، وهذه الأسس هي أساس سياسي يتمثل في طموح القبيلة والعصبية وأهل العلم لإقامة الدولة، وأساس ديني على ضوئه سارت السلطة،وأساس اقتصادي كان عاملاً قوياً في تحقيق السلطة لأهدافها، وامتزجت العوامل الروحية الدينية والبشرية بالعوامل المادية الاقتصادية لتنشأ الدولة المرابطية؛ لكن هذه الدولة لم تعمر طويلاً مقارنة بغيرها من الدول، وهو ما يجعلنا نتساءل عن سبب ذلك هل هو في أسس الدولة؟ التي رأينا من خلال نظرتنا السريعة أنها أسس متكاملة، أم أن ذلك راجع إلى تغير في سياسة الدولة؟ أم رفض المجتمع لها؟

لا يمكننا أن نجيب عن هذه الأسئلة إلا بعد أن نتعرف على المجتمع الأندلسي وخصائصه، ثم نتتبع العلاقة بين الطرفين (المجتمع والسلطة) وبعد ذلك يمكن لنا أن نجيب باطمئنان عن هذه التساؤلات.

---

(3) صالح بن قربة، **انتشار المسكوكات المغربية وأثرها على تجارة الغرب المسيحي**، الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، ط ،1995م، ص 175و مايليها.

الفصل الثاني

عناصر المجتمع الأندلسي وخصائصه

المبحث الأوّل: عناصر المجتمع الأندلسي

1- العرب

2- البربر

3- المولدون

4- أهل الذمة

أ / النصارى

ب / اليهود

5- طوائف أخرى

المبحث الثاني : خصائص المجتمع الأندلسي

أولاً - التصنيف الطبقي

أ - الطبقة الخاصة

ب- الطبقة الوسطى

ج- الطبقة العامة

ثانياً - مظاهر من التمع الأندلسي

1 - المرأة

2- الأناقة

3- الاحتفالات والأعياد

4- اللهو والون

5- التصوف

المبحث الأول : عناصر المجتمع الأندلسي

إن الأحداث التاريخية التي تعاقبت على بلاد الأندلس، وخصائص موقعها الجغرافي أدت إلى خاصية التنوع في عناصر المجتمع، فقد تعاقبت على هذه البلاد العناصر الرومانية والقوطية[1] التي كونت فيما بعد الطائفة المسيحية، وإلى جانب هذه الطائفة كانت تعيش الطائفة اليهودية [2].

أما العناصر الأخرى التي شكلت المجتمع الأندلسي، فهي العناصر التي وفدت إلى هذه البلاد على اثر فتحها، وبما أن الأندلس تقع في آخر البلاد المفتوحة من قِبل المسلمين، من الجهة الغربية، فإن وفود الفتح كانت متنوعة، أهمها العنصران العربي والبربري [3]، ومنذ ذلك الحين وهجرة العرب على اختلاف قبائلهم إلى الأندلس مستمرة في مناسبات متعددة، خاصة في العهد الأموي، أما القبائل البربرية فيبدو أن أعدادهم تزايدت حين خضعت الأندلس لحكم المرابطين والموحدين، حيث كان البربر نواة هذه الأنظمة السياسية وسبب قوتها؛ وكانت هذه العناصر تختلف فيما بينها، لكنها اجتمعت وتعايشت تحت غطاء الإسلام ولقرون من الزمن، وهذه نظرة عن تلك العناصر .

1/ العرب :

يمثل العنصر العربي أكثر العناصر عدداً في الأندلس، بمختلف قبائلهم التي وفدت إلى الجزيرة منذ الفتح الإسلامي لها،ويدل على كثرتهم ما كتبه ابن حزم الأندلسي عن هذه القبائل حيث خصص لها مؤلفاً كاملاً يتحدث عنهم فيه [4] ويرجع ذلك التوافد العربي من المشرق إلى هذه البلاد لكونها أصبحت امتداداً للعالم الإسلامي، وليس ذلك فحسب فقد كانت أرض الأندلس جاذبة لخصوبة تربتها، وجمال مناظرها وتشابه بيئتها بالبيئات العربية، فوصل هذا التشابه إلى حد أنهم سموا كورها بأسماء عربية مشرقية [1].

---

(1) الحميري، **الروض المعطار**، ص34 . المراكشي، **المعجب**، ص14، مرسيداس غارسيا، **شتات الأندلسيين**، ترجمة محمد الصالح النوار و الوناس قوباعي، منشورات زرياب، الجزائر، 2003، ص10.

(2) مرسيداس غارسيا، المرجع السابق، ص12

(3) ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص ص45، 46. محمود علي مكي، **فضل العرب المسلمين على الحضارة الإنسانية كراسات أندلسية1**، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، تقديم عباس الجراري، مطبعة النجاح الجديدة ط1 2006م، الرباط، ص33.

(4) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، تح عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط3(1391ه/1971م) مصر.

(1) قيل في الأندلس أنها شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، تامية في صفائها. أنظر: البكري،**المسالك والممالك**، 446/1، 447. أبو حامد الغرناطي، **تحفة الألباب**، ص 62. الحميري، المصدر السابق، ص32.

وارتبط وجود العنصر العربي في الأندلس بوفود الفاتحين الأوائل، واستمر هذا التوافد أثناء الحكم الأموي[2]، أما في عصر المرابطين –موضوع البحث- فلا تُذكر أي تنقلات عربية، عدا قبائل بني هلال الذين استخدمهم المرابطون في عملية الجهاد [3] .

شعر العرب بقوة ارستقراطيتهم، وبفضلهم على العناصر الأخرى، وهذا لدورهم في الفتح ونشر الإسلام وحمل رسالته للعالم، كما كانوا يفتخرون بعروبتهم[4] ويصف ابن الخطيب عرب غرناطة قائلا: «... صوَرهم حسنة، وأنوفهم معتدلة غير حادة، وشعورهم سود مرسلة، وأنسابهم العربية ظاهرة يكثر فيها القرشي والفهري والأموي والأنصاري والأوسي والقحطاني والحميري والمخزومي والتنوخي والغساني والأزدي والقيسي » [5]، ويذكر الإدريسي أن سكان مدينة شلب[6] من عرب اليمن، بينما سكان مرسية [7] وغرناطة وبطليوس[8] ينسبون إلى حضرموت [9].

يُفهم من هذا أنّ كثيراً من القبائل العربية استقرت بالمدن الأندلسية، وهناك من استقر في البوادي، إذ تحكم في ذلك الطبيعة التي أِلفَها هؤلاء، ونشاطاتهم اليومية[1] وساهمت طول المدة التي قضاها العرب في الأندلس في تخليهم شيئاً فشيئاً عن حياة البداوة، والتأثير القبلي، فبدأت تتبدد روح

---

(2) بوتشيش، المرجع السابق، ص 42.

(3) بوتشيش، المرجع السابق، ص37.

(4) أحمد أمين، **ظهر الإسلام**، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، (1425ه/2004م)، بيروت لبنان، 7/3.

(5) ابن الخطيب، لسان الدين ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تح محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، مج 1، ط2، (1393ه/1973م)، 134/1، 135. أنظر : الملحق رقم 2، ص151.

(6) شلب مدينة حسنة في بسيط الأرض، عليها سور حصين، ولها غلات وجنات، وشرب أهلها من واديها الجاري بجنوبها وعليه أرحاء البلد، منها إلى بطليوس ثلاث مراحل، والبحر منها غربا على ثلاثة أميال، وبها الإنشاء، والعود بجبالها كثير ينقل منها إلى كل الجهات، والمدينة حسنة المباني، مرتبة الأسواق، وأهلها وسكان قراها عرب من اليمن وغيرها يتكلمون بالكلام العربي الصريح خاصتهم وعامتهم. أنظر الإدريسي، **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس** ، ص ص266، 267.

(7) مرسية قاعدة أرض تدمير، وهي في مستوى من الأرض، ولها ربض عامر آهل، وعليها وعلى ربضها أسوار حصينة وحظائر متقنة، والماء يشق ربضها، ولها أرحاء طاحنة، وبها بساتين وأشجار وعمارات، تبعد عن بلنسية خمس مراحل، ومنها إلى المرية في الساحل خمس مراحل، ومنها إلى قرطبة عشر مراحل، ومنها إلى حصن شقورة أربع مراحل. أنظر الإدريسي المصدر السابق، ص ص285، 286.

(8) بطليوس تقع في بسيط الأرض، وعليها سور منيع، وهي على ضفة نهر يانة، وينتهي جريه إلى حصن مارتلة، ويصب في قريب من جزيرة سلطيش،وهي تبعد عن كل من اشبيلية و قرطبة ست مراحل.أنظر الإدريسي، المصدر السابق، ص268.

(9) الإدريسي، المصدر السابق، ص 268.

(1) بوتشيش، المرجع السابق، ص42.

العصبية العربية [2] وكان للاحتكاك بالعناصر الأخرى أثر كبير في ذلك، ويلاحظ هذا الأمر في عصر المرابطين.

إضافة إلى ما ذكرت من قبائل، فإن ابن حزم يورد في ثنايا كتابه مناطق مختلفة توزعت عليها القبائل العربية، ويذكر من بينها بنو القليعي في قرية صالحة قرب مالقة [3] وبنو حمدين بقرطبة وبنوهذيل في تدمير[4] وبنوهوازن وبنوزهرة في اشبيلية،وبنو عطية في شقورة واليحصبيون والمخزوميون وبنو سعيد في قلعة بني سعيد وشملت هذه المناطق المذكورة كل من قرطبة والبيرة[5] ورية [6] وكلها تقع على خطوط رئيسية لتجارة العبور[7] وهذا ما يدل على يُسر القبائل العربية في أوضاعها الاجتماعية.

2/ البربر:

يشترك البربر مع العرب في خصائص البداوة والإسلام، وروح العصبية القبلية، والشجاعة ويظهر ذلك في مقاومة بعض القبائل البربرية للفتح الإسلامي لبلاد المغرب[8] إلا أنّه بعد إسلامهم أصبحوا قوة ساهمت في نشر تعاليم الإسلام، ومد نفوذ دولته، ولهم فضل في فتح بلاد الأندلس [9] .

وتوافد البربر على الأندلس على فترات، منها من كانت أثناء عملية الفتح، وهذه الموعة لم يكن لها أثر كبير في جوانب الحياة المختلفة، والموعة التي تلتها فهي التي جلبها المنصور بن أبي عامر للخدمة في الجيش[1] هي الأخرى لم تعرف اندماجاً لطبيعة عملها العسكري،أما الموعة الثالثة

---

(2) عصمت عبد اللطيف دندش، **الأندلس في آخر المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني**، دار الغرب الإسلامي ط1، بيروت، (1408هـ/1988 م)، ص247.

(3) مالقة مدينة حسنة حصينة، يعلوها جبل يسمى جبل فاره، ولها قصبة منيعة، وربضان لا أسوار لهما، وبما فنادق وحمامات وهي قاعدة رية، تبعد عن قرطبة في جهة الشمال أربعة أيام، ومن مالقة إلى غرناطة ثمانون ميلا، ومن مالقة إلى الجزيرة الخضراء مائة ميل، ومن مالقة إلى اشبيلية خمس مراحل. أنظر الإدريسي، المصدر السابق، ص298.

(4) تدمير من كور الأندلس، سميت باسم ملكها، أورد الحميري أنا أُفتتحت صلحاً في عهد عبد العزيز بن موسى. أنظر: الحميري ، المصدر السابق، ص ص231، 232.

(5) إلبيرة من كور الأندلس، تبعد غرناطة عن إلبيرة ستة أميال، وهي تقع شرق قرطبة. نزلها جند دمشق من العرب، وكثير من موالي عبد الرحمن بن معاوية، وهو الذي أسسها، حولها أنار كثيرة . أنظر : الحميري، المصدر السابق، ص28.

(6) رية كورة من كور الأندلس، من قبلي قرطبة، نزلها جند الأردن من العرب، وهي كثيرة الخيرات . أنظر الحميري، المصدر السابق، ص 280.

(7) بوتشيش، المرجع السابق، ص23.

(8) أحمد أمين، المرجع السابق، 3 / 7.

(9) ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص ص45، 46.

(1) ابن خلدون، **العبر**، 6 /119.

فتشمل القبائل الصنهاجية من الملثمين ومن رافقهم من القبائل الأخرى التي تمّ استقدامها لردع الخطر النصراني [2].

واستقر البربر في المدن والبوادي، واشتغلوا بالزراعة والحرف والجندية [3]، فكان لمجيء المرابطين دور في زيادة عدد العنصر البربري وزيادة نفوذه، بعد أن كان أقلية يُنظر إليها نظرة الاستعلاء، فانعكست الأوضاع وأصبحوا هم السادة، فاستعلى البربر على أهل البلاد[4]، وكانوا يأنفون من الخضوع لأحكام القضاء، مما جعل أمير المسلمين يكتب إلى أحد قضاته قائلاً له: « وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين، أن يسلموا لك في كل حق تقضيه ولا يعترضوا عليك في قضاء تقضيه » ووصف ابن عبدون البربر بالجالية المتغطرسة المتعالية.

وأدى تدفق العنصر البربري في مطلع القرن السادس الهجري إلى الأندلس، إلى حدوث خلل في البناء الاجتماعي، وكان هذا التدفق على مرحلتين، الأولى سنة (515هـ/1121م) نحو قرطبة ويتوافق هذا التاريخ مع بداية دعوة المهدي بن تومرت في المغرب، وثورة العامة في قرطبة سنة (514هـ/1120م)، أما المرحلة الثانية لهجرة البربر للأندلس، فتمت سنة(535هـ/1140م) وكانت جلاءً عظيماً [5]، ويُفَسّرُ ذلك بقلة الأمن والاستقرار، وتدهور الأوضاع بسبب الصراع الدائر بين المرابطين والموحدين في بلاد المغرب[6].

وكان للملثمين مكانة خاصة، متميزين عن البقية بشد اللثام والسلاح، فهم يمثلون القوة السياسية والعسكرية، وكان الجند منهم يُرعِبون السكان، فاشترط ابن عبدون أن لا يسير هؤلاء في الطرقات بسلاحهم، كي لا يعتدوا على أرواح السكان، « لأن البربر قوم إذا غضبوا، قتلوا أو جرحوا »[7].

---

(2) دندش، المرجع السابق، ص261.

(3) بوتشيش، المرجع السابق، ص34.

(4) حسن محمود، المرجع السابق، ص413.

(5) ابن عذاري، المصدر السابق، 4 / 98.

(6) بوتشيش، المرجع السابق، ص31.

(7) ابن عبدون، المصدر السابق، ص28.

ومن القبائل التي استقرت بالأندلس مكناسة ونفزة اللتان قطنتا في قرطبة وجليقية[1]،أمّا هوارة ومديونة فاستقرتا بشنترين [2] واستقرت مصمودة في قرطبة والجزيرة الخضراء وماردة[3] ويصنفهم ابن حزم إلى ثلاثة قبائل هي صنهاجة وزناتة ومصمودة [4].

3/ المولدون:

يُطلق هذا الاسم على المسلمين المنحدرين من أصول إسبانية وإسلامية أي الذين نتجوا من تزاوج العرب والبربر بالإسبانيات والصقلبيات[5]، وحدث هذا التزاوج لأسباب عدة، منها قطع جيش المسلمين لمسافات طويلة أبعدتهم عن أهاليهم، فاضطروا للزواج بالإسبانيات، أما العامل الآخر فهو ولوع هؤلاء المسلمين بجمال لم يعهدوه في بيئاتهم [6] .

وعلى اثر ذلك نشأ جيل من المولدين الذين تصفهم بعض الكتابات بالذكاء والشجاعة والجمال، وكان لهم دور في تاريخ الأندلس، أما عن أصولهم من جهة أمهاتهم فمتعددة من جليقية وقشتالة وأرغون ويهود، من الذين سكنوا الأندلس قبل فتحها، وكانوا يمثلون غالبية السكان في عهد بني أمية [7].

سكن المولدون البادية واحترفوا مهنها، من رعي وزراعة، أما الذين سكنوا السواحل فاحترفوا صناعة السفن والصيد، وهناك من سكن المناطق الثغرية في الشمال وأسس إمارات[8] متاخمة لممالك النصارى ومنهم بنو قسي في تطيلة[9].

---

(1) جليقية بلاد الجلالقة تقع من الجهة الغربية، دور مملكتهم شبيهة بماردة، في إتقان بنائها وصنعة أسوارها، أما سطحها فسهل يغلب عليه الرمل، وأكثر طعامهم الدخن و الذرة، وأهلها أهل غدر ودناءة أخلاق لا يتنظفون ولا يغتسلون إلا مرة أو مرتين في العام، وفيهم بأس شديد. أنظر الحميري: المصدر السابق، ص 169 .

(2) شنترين مدينة معدودة في كور باجة، تقع على جبل عال، ولا سور لها،وبأسفلها ربض على طول النهر، بينها وبين بطليوس أربع مراحل، ومن أقاليمها صقلب، ولها جزائر في البحر مسكونة، وكانت جباية شنترين ألفين وتسعمائة دينار. أنظر الحميري: المصدر السابق، ص 346 .

(3) ماردة دار مملكة ماردة بنت هرسوس الملك، وبها من البناء آثار ظاهرة تنطق عن ملك وقدرة وتعرب عن نخوة وعزة، عليها سور حجارة ، أنظر :الإدريسي، المصدر السابق، ص269.

(4) بوتشيش، المرجع السابق ، 36.

(5) محمود علي مكي، **فضل العرب المسلمين على الحضارة الإنسانية**، ص33.

(6) أحمد أمين، المرجع السابق ، 3 / 8.

(7) بوتشيش، المرجع السابق، ص43.

(8) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص 499.

(9) تطيلة مدينة بالأندلس في جوفي وشقة، بها نهر كالش، وهي من أجود البلاد زرعا، وأهلها لا يغلقون أبواب مدينتهم ليلا ولا نارا، وانفردت بذلك عن سائر البلدان، وينسب لهذه البلاد الشاعر الأعمى التطيلي، أنظر الحميري، المصدر السابق ص133 .

وسكن بنو عمروس في شقر[1] وبنو الطويل في بربشتر[2] واتخذ هؤلاء المولدون أسماءً عربية وهناك من حافظ على اسمه مثل بن شبريكو، بني قسي، بني بشكوال، وكلها عائلات عاصرت فترة المرابطين [3] .

لم يعرف المولدون وضعاً مستقراً، حيث تراجعت مكانتهم وعصبيتهم أثناء العهد الأموي وزاد نفوذهم في عصر الطوائف، فأسسوا إمارات، وبمجيء المرابطين تم القضاء عليها، فلم يكن لهم دور سوى إمارة بني هود [4].

4/ أهل الذمة:

إنّ وجود هذه الفئة يدل بداية على تَقَيدِ المسلمين بالحرية الدينية التي أقرّها الإسلام في قوله تعالى: لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّين [5] أي من أراد أن يبقى على ديانته من أهالي البلاد المفتوحة فله ذلك وأطلق على هذه الفئة مصطلح أهل الذمة [6].

ويُعَرف ابن منظور الذمة أنها عهد يشمل الضمان والحق والأمان وهذا العهد يتطلب الوفاء[7] لقوله تعالى وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ [8] وأهل الذمة ملزمون بتأدية الجزية، ويجري عليهم حكم الله ورسوله[9] وتصف الباحثة غارسيا مرسيداس عقد الذمة أنه نظام للمحميين، يسمح لهم بالاحتفاظ بدينهم، وبقانونهم الخاص، وسلطتهم فيما بينهم، ويمنحهم نوعا من الاستقلالية، لكن داخل وضعية تتميز بالخضوع والتبعية، وتصف المسلمين بإرهاق هذه الفئة بالضرائب، وتذكر أن ذلك يتم في غير اضطهاد [10].

(1) شُقْر جزيرة من أعمال بلنسية تبعد عنها ثمانية عشر ميلا، ومن شقر إلى شاطبة اثنا عشر ميلا، وهي جزيرة كثيرة الأشجار والثمار و الأنهار، وبها ناس وجلة، وهي على قارعة الطريق الشارع إلى مرسية. أنظر: ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، 1/ 57 الإدريسي، المصدر السابق، ص ص286، 287.

(2) بربشتر هي مدينة من بلاد بربيطانية، وهي حصن على نهر، مخرجه من عين قريبة منها، وهي من أمهات مدن الثغر الفائقة في الحصانة، وقد غزاها على غرة وقلة عدد من أهلها وعدة، أهل غاليش والروذمانون.أنظرالحميري،المصدر السابق،ص90

(3) بوتشيش، المرجع السابق ، ص44.

(4) بوتشيش، المرجع السابق نفسه.

(5) سورة **البقرة** الآية 256.

(6) محمود علي مكي، المرجع السابق، ص33.

(7) هي العهد والكفالة، ومن ذلك يسمى أهل العهد أهل الذمة، وهم الذين يؤدون الجزية من المشركين. أنظر: ابن منظور، **لسان العرب**،221/12. الرازي، أبوبكر بن عبد القادر، **مختار الصحاح**، مكتبة لبنان ناشرون،1995، ص94

(8) سورة **النحل**، الآية 91.

(9) سيأتي التفصيل في هذه حقوق وواجبات هذه الفئة في الفصل اللاحق.

(10) غارسيا مارسيدس، **شتات الأندلسيين**، ص13.

لم تحظ هذه الفئة من المجتمع الأندلسي، باهتمام المصادر الإسلامية، رغم ما قامت به في جميع المجالات،وهو ما فسح الطريق للمصادر الأجنبية للإسهاب في طمس حقيقة وضعها في ظل السلطة المرابطية[1] .

وبما أن البحث يتطرق في فصله الأخير عن العلاقة بين السلطة والمجتمع، فإنني سأقتصر الآن على ذكر بعض خصائص هذه الفئة، موجزاً لوضعها العام في ظل السلطات السابقة للمرابطين متكلماً عن النصارى أولاً ثم اليهود.

أ- النصارى:

عُرف النصارى باسم المستعربين" Les Mozarabes "، وترى غارسيا مرسيداس أن هذا الاسم أُطلق على المسيحيين المعربين، وتم تسميتهم بالمستعربين عندما هاجروا نحو الأقاليم المسيحية في الشمال [2] أما في المصادر الإسلامية فقد أطلقت عليهم أسماء متعددة، منها ما نجده عند بن عذاري مثل" الروم" [3] و" المعاهدون" [4] .

لم يكن كل النصارى يخضعون لأحكام أهل الذمة، فهناك من هو من أهل الصلح، وأولئك تجري عليهم أحكام أهل الذمة [5] وهناك فئة من النصارى حظيت بمكانة لعلاقتها بالسلطة، أو لوضعها المالي وهؤلاء حافظوا على أراضيهم وممتلكاتهم ومكانتهم وخصائصهم متميزين عن غيرهم من أهل الذمة [6].

تقلد المستعربون مناصب عليا في عصر الإمارة، خاصة الشؤون الإدارية، وعرفوا وضعاً مستقرًا على الرغم من محاولاتهم التمرد، إلا في بعض الحالات التي يتعرضون فيها لإبطال عقد الذمة ومعاقبتهم حين يتعرضون للإسلام ورموزه بالشتم[7]، وكانت طليطلة مركز رئاسة الأساقفة[8] وعلى غرار ذلك كان وضعهم في عصر الطوائف أكثر استقراراً ونفوذاً، ولعل كثيرٌ من المؤرخين

---

(1) أنظر كتابات كل من ليفي برفنسال، رينهارت دوزي، كلاوديو سانشيث ألبورنوث، غارسيا مارسيدس، بروكلمان وغيرهم.

(2) غارسيا مرسيداس، المرجع السابق، ص12.

(3) ابن عذاري، المصدر السابق، 102/4.

(4) ابن عذاري، المصدر السابق، 4/ 70، 71.

(5) حسن الممي، **أهل الذمة في الحضارة الإسلامية، دار الغرب الإسلامي**، الطبعة الأولى، بيروت،1998، ص27.

(6) بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي**، ص70.

(7) غارسيا مرسيداس، المرجع السابق، ص26.

(8) بوتشيش، المرجع السابق، ص70.

يحكم على المرابطين بالتشدد مقارنة على ما لقيته هذه الفئة من تسامح في عصر الطوائف، لكن الأحكام العامة والتي لا تستند إلى أدلة تكون مجحفة، ولذلك لا يمكن الحكم إلا بإعادة البحث في المصادر للحكم على وضعهم في عصر المرابطين.

استقر هؤلاء في المدن مثل غرناطة واشبيلية وبلنسية [1] وهناك من استقر في البادية واشتغل بالزراعة [2] وتأثر المستعربون بمظاهر من الحياة العربية، منها اللغة العربية، والفن المعماري، وقد تمت الاستفادة من خبرتم في تطوير ممالك النصارى في جميع الـالات، كالإدارة والتنظيم السياسي والترجمة فمعارفهم كانت تفوق معارف نصارى الشمال[3]،ويُعتقد أن أعداد المستعربين قد تراجعت مع بداية المد المسيحي نحو الحواضر الأندلسية[4] .

ب/ اليهود :

الطائفة اليهودية وُجدت إلى جانب الطائفة النصرانية في الأندلس قبل فتحها، وكان اليهود قد عانوا في العهد القوطي، ومروا بمرحلة قاسية، ولذلك لا يُستغرب ترحيبهم بـ ول المسلمين في الأندلس، ورأوا أنّ ذلك فرصة للتخلص من الظلم الذي عاشوه [5] .

واندمجت هذه الطائفة بسرعة في الـتمع الإسلامي، وساهموا في جميع مجالات الحياة الفكرية والسياسة والإدارية، حتى أصبحوا أصحاب الأمر والنهي في إمارة غرناطة في عصر الطوائف، فشغل اليهود مناصب بارزة في بلاط الحكم، مثل منصب طبيب الأمير، بل وصلوا حتى منصب الوزارة الذي تقلدته أسرة بن نغريلا في غرناطة [6]، وهو ما أدى إلى تمرد شعبي ضد اليهود انتهى بمقتله سنة (459هـ/1066م). ومن المناصب الحساسة التي تولاها اليهود منصب المالية والجباية، وهو ما يُفسر كثرة التمردات الشعبية ضدهم .

---

(1) بلنسية مدينة كثيرة التجار والعمارة، بينها وبين البحر ثلاثة أميال، وبين بلنسية وسرقسطة تسع مراحل، وهي على نر جار، يُنتفع به ويسقي المزارع، أنظر الإدريسي، المصدر السابق، ص ص281، 282 . أنظر الخريطة رقم 3، ص156.

(2) بوتشيش، المرجع السابق، ص72.

(3) غارسيا مرسيداس، المرجع السابق، ص28، ومايليها.

(4) غارسيا مرسيداس، المرجع السابق، ص35.

(5) غارسيا مرسيداس، المرجع السابق، ص37. بلغيث، المرجع السابق، ص604.

(6) من أسماء هذه الأسرة إسماعيل بن يوسف بن نغريلا، من بيت مشهور لليهود بغرناطة، استوزره باديس بن حبوس ملك غرناطة، فاستهزأ بالمسلمين، وأقسم أن ينظم جميع القرآن في أشعار وموشحات، يُغنّى با، فآل أمره إلى قتله دون أمر الملك، ونبوا دور اليهود وقتلوهم. أنظر : ابن سعيد، **المغرب** في **حلي المغرب**، 114/2.ابن الخطيب، **الإحاطة**، ص ص439، 440. أحمد أمين، المرجع السابق ، 32/3، غارسيا، المرجع السابق، ص40.

استقر اليهود خاصة في المدن ذات الأهمية المالية، كمناطق العبور والمراكز التجارية، ومن أهم تلك المدن غرناطة التي وصفها الحميري بمدينة اليهود [1] كما يذكر الإدريسي تواجد اليهود في أليسانة [2] وطركونة [3]. وتباينت أوضاع اليهود المادية فهناك ميسوري الحال والأثرياء وهناك من هم من عامة المجتمع، وكذلك استقرارهم تباين بين من اتخذوا دُورًا خاصة بهم، وبين من سكن إلى جانب المسلمين، بل وجاوروا حتى المساجد [4].

يدل الاحتكاك على التسامح، إلا أنه لم يخلو التجاور من حدوث نزاعات، وهو ما أشارت إليه كتب النوازل، وتميز اليهود بتنظيم أنفسهم، وعُرفت الطائفة اليهودية باسم الجماعة، يرأس كل جماعة نفر منهم، وكان هؤلاء هم المسئولون أمام الإدارة الإسلامية بدفع الجزية، والمطالبة بالحقوق وافتداء أسراهم[5] ومن عادات اليهود أن يوم السبت هو يوم عطلة، وعندما يسيرون في الجنائز يسيرون في صمت وخفة في المشي وهو ما جعلهم يكونون محلا للسخرية من قِبل المسلمين[6] .

5/ طوائف أخرى:

إلى جانب العناصر الرئيسية التي سبق ذكرها، هناك عناصر أخرى عرفها عصر المرابطين تميزت بقلة العدد، لكن دورها كان هاماً في تاريخ الأندلس، وهذه الأقليات ساهمت في ظهورها طبيعة الدولة المرابطية الجهادية، أي أن دورها كان يتمثل أساسا في تكوين الجيوش، ومن هذه الأقليات الصقالبة والسودانيون.

أ- الصقالبة :

الصقالبة اسم يطلق على أسرى الحروب من جميع البلاد الأوربية، فتستعبد هذه الفئة ويقوم اليهود باستقدامها إلى الأندلس للاتجار بها، فيُستغلوا في تكوين الجيوش، ولعل في ذلك تأثر

---

(1) الحميري، المصدر السابق، ص45. أنظر خريطة مناطق استقرار اليهود رقم 3 ص156.

(2) أليسانة هي مدينة اليهود، تبعد عن قرطبة أربعون ميلا، ولها ربض يسكنه المسلمون و بعض اليهود، والمدينة متحصنة بسور حصين، يطوف بها حفيرعميق، واليهود يسكنون بداخل المدينة، ولا يداخلهم فيها مسلم البتة، وأهلها أغنياء مياسير ولليهود بها تحذر وتحصن، أنظر الإدريسي، المصدر السابق، ص299. مجهول، المصدر السابق، ص80.

(3) طركونة مدينة قديمة، يسكنها اليهود، تبعد عن لاردة خمسون ميلا، عليها سور وبها أرحاء، بها مياه كثيرة، وهي مكمن للغزو. الإدريسي، المصدر السابق، ص ص279، 280. أنظر الحميري، المصدر السابق، ص392.

(4) الونشريسي، أحمد بن يحي **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب**، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الاسلامي،(1401ه/1981م)، 53/7. ابن رشد، **فتاوى ابن رشد**، 605/1.

(5) بوتشيش، المرجع السابق، ص96.

(6) بوتشيش، المرجع السابق، ص97.

بسياسة العباسيين في اتخاذ المماليك[1]، ويرجع أصل التسمية إلى اللفظ اللاتيني "Esclave" وأصولهم الجغرافية ترجع إلى البلاد المحاذية لبحر الخزر[2]، بين القسطنطينية وبلاد البلغار.

اقتنى المسلمون هذه العناصر من كلا الجنسين، وهم صغار حتى ينشئوا على الولاء التام للحاكم، أو السيد فيكسبوا ثقته [3]، وأول من استخدمهم الأمير الأموي الحكم الربضي، فكثرت أعدادهم في عصر بني أمية حتى بلغوا خمسة عشر ألفاً في قرطبة وحدها [4]، ورغم قلة عددهم مقارنة بالفئات الأخرى، وبساطة أعمالهم إلا أنم أصبحوا فئة مؤثرة، فامتلكوا الأموال والعقارات، ووصلوا إلى تأسيس إمارات في عصر الطوائف[5].

وتمكن الصقالبة من الحفاظ على خصائصهم، فلم يتأثروا بمظاهر التمع، بل هناك من تعصب ضد العرب والمسلمين، ومن أشهرهم ابن غرسية، الذي كتب رسالته المشهورة في تفضيل الصقالبة على العرب فأسهب في ذكر مثالب العرب والطعن فيهم، إلا أن هناك منهم من أسلم وأخلص للمرابطين ومنهم الروبيرتير الذي قاتل الموحدين [6] وأُطلق على الصقالبة أسماءً مختلفة منها الروم والحشم والعلوج والفتيان [7] ويرجع ذلك إلى تغيير المناطق التي يُستقدمون منها [8]وحسب ابن عذاري [9] وصاحب الحلل [10] فإن يوسف بن تاشفين هو أول من استقدمهم في دولته، فاستخدموا

(1) أحمد أمين، المرجع السابق، 10/3.

(2) الخزر بلاد عريضة، على بحر يسمى باسمها، يتصل با من أحد جنباتا جبل عظيم، يمر إلى أرمينية، ويصب في بحر الخزر نر منبعه من الروس، وسكنها مسلمون ونصارى وعبدة الأوثان، أما اليهود فقليل، والذي يقع من رقيق الخزر هم أهل الأوثان، الذين يجيزون بيع أولادهم واسترقاق بعضهم بعضا، وليس لملكهم منهم إلا الدعاء، ولسان الخزر غير لسان الترك والفرس . أنظر الحميري، المصدر السابق، ص ص 218 ، 219.

(3) دندش، المرجع السابق ، ص 258.

(4) بوتشيش، المرجع السابق ، ص 45.

(5) دندش، المرجع السابق ، ص ص258، 259.

(6) الروبيرتير : Reveter قائد رومي كان من كبار قواد أمير برشلونة وأرغون، وقع في أسر قائد الأسطول المرابطي علي بن ميمون، فأتى به إلى مراكش، فدخل في خدمة المرابطين، ودخل الإسلام، ولاه الأمير علي بن يوسف قيادة الفرقة النصرانية وأخلص للمرابطين حتى قتل في معركة من معارك المرابطين مع الموحدين في السوس سنة(539هـ/ 1144م) أنظر : ابن عذاري، المصدر السابق،103/4. ابن خلدون، **العبر**، 275/2. *Vincent LAGARDERE , OPCIT,p301*

(7) ابن عذاري، المصدر السابق، 4/ 98. ابن الخطيب، المصدر السابق ، ص ص102، 316

(8) حسن محمود، المرجع السابق، ص397، دندش، المرجع السابق، ص158.

(9) ابن عذاري، المصدر السابق، 4/ 23.

(10) مجهول، المصدر السابق ص25.

في الحجابة والحراسة، أما ابنه علي فوسع استخدامهم في كل الميادين، مثل الجيش والجباية وغيرها تميزوا بثباتم في القتال، وتشابه أساليبهم مع أساليب النصارى [1].

ب- السودان:

ارتبطت السلطة المرابطية منذ تأسيسها ببلاد السودان، فلم تكتف بالسيطرة على مسالك تجارتا وذهبها، بل تعدى ذلك لاستغلال عنصرها البشري في التجنيد،وذلك لتمتعهم بخصائص القوة والشجاعة، شاركوا بقوة كبيرة في معركة الزلاقة، حيث بلغ عددهم حوالي أربعة آلاف [2]ويذكر ابن عذاري أنه في معركة من معارك المرابطين والموحدين قُتِل منهم حوالي ثلاثة آلاف [3] ويُفهم مما تقدم أن هذه الفئة دورها الخدمة، سواءً في الجيش، أو خدمة العناصر الأخرى[4] وهذا ما يُلَمح إلى مجتمع تسوده الطبقية.

المبحث الثاني: خصائص المجتمع الأندلسي :

إذا كانت البحوث الاجتماعية والاقتصادية في التاريخ الإسلامي من البحوث الحديثة،فإنّ الانطلاق من تقسيم ا لتمع إلى طبقات يعد أمراً أحدث في هذه البحوث،ولعل من رواد ذلك المفكر محمود إسماعيل والباحث إبراهيم بوتشيش وغيرهم من الذين فطنوا إلى التمايز بين فئات ا لتمع في أحواله الاقتصادية والاجتماعية، ومدى فعالية هذه الفئات في مجالات الحياة بما فيها ا ال السياسي فما هي مرجعية وأسس هذا التصنيف الطبقي؟ وما هي خصائص هذه الطبقات؟

إذا كان مصطلح "الطبقة" ينتشر ذكره عند الحديث عن ا لتمعات الأوربية وطبقاتا حسب الوضعية الاقتصادية، فإنّ ذكره في التاريخ الإسلامي ورد بمفاهيم متعددة، ومنها: الترتيب الزمني للأجيال فكانت هناك بدءاً بعصر النبي ﷺ طبقة الصحابة وطبقة التابعين وطبقة تابعي التابعين ومنهم من قسم ا لتمع إلى أهل السيف وأهل القلم، ومنهم من اعتمد العنصر أساساً للتقسيم، فقالوا بطبقة العرب، وطبقة الموالي،...الخ، و يرى محمود إسماعيل أنّها مفاهيم لا يمكن أن تعطي صورة واضحة عن ا لتمع في فترة من الفترات [5]. ولقد ورد في القرآن الكريم مصطلح يشير إلى الطبقة وذلك في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [1]

---

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، 43/4، بوتشيش، المرجع السابق، ص47.

(2) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، 118/7.

(3) ابن عذاري، المصدر السابق، 4/ 84.

(4) بوتشيش، المرجع السابق، ص49

(5) محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص16.

(1) سورة **الزخرف**، الأية 32

في مقابل ذلك هناك من أدرك التصنيف الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع الإسلامي، فعند إخوان الصفا نجد التقسيم ثلاثي : الأغنياء، ومتوسطي الحال، والفقراء[2]، واستخدم ابن خلدون المفهوم المادي للطبقة، قائلاً: « كل طبقة من طباق أهل العمران من مدينة أو إقليم لها قدرة على من دونا من الطباق، وكل واحدة من الطبقة السفلى يستمد بذي الجاه من الطبقة التي فوقه، ويزداد كسبه تصرفا فيمن تحت يده على قدر ما يستفيد منه »[3]

ولم يقتصر ذكر الطبقة على هذه المصادر، بل إننا نجد التصنيف الطبقي عند من عاصروا الدولة المرابطية، ابن الحاج[4] الشهيد فقيه المرابطين، قسم المجتمع تقسيماً مادياً، إلى ثلاث طبقات الأغنياء ومتوسطو الحال والمقلون[5] أما القاضي عياض فقد جرى على عرف المؤرخين بذكر طبقتين العامة والخاصة[6] ، فإذا كان المجتمع المرابطي مجتمع طبقي فماهي طبقاته، وما خصائصها؟

أولاً - التصنيف الطبقي:

جل المصادر تذكر فئتين متباينتين في خصائصهما، وهما "العامة والخاصة" ويظهر ذلك على لسان المعتمد بن عباد في قوله : « وأبغضتنا العامة والخاصة » [7]، ويورد الإدريسي هذه العبارة في قوله:« وأهلها وسكان قراها عرب من اليمن وغيرها، يتكلمون بالكلام العربي الصريح خاصتهم وعامتهم»[8]، إضافة لوصف ابن القصيرة للجموع إلي استقبلت القاضي عياض فيقول:« وحرزت أعيان البلد الذين خرجوا إليه ركابا نيفا على مائتي راكب ومن سواد العامة مالا يُحصى كثرة » وهوفي ذلك يشير إلى الفئتين ويحدد الخاصة بالأعيان، تمييزًا لهم عن العامة؛ لكن هذا التصنيف ليس تصنيفاً يبحث في المجتمع، بل جاء عارضاً في مناسبة من المناسبات، نجده عاماً في المجتمعات الإسلامية

(2) عمر فروخ، **إخوان الصفا**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1401هـ/1981م ، ص ص 132، 133.

(3) ابن خلدون، **المقدمــة**، ص395.

(4) محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبي، يعرف بابن الحاج(529هـ/ 1134م)، قاضي الجماعة بقرطبة، استشهد قتلاً، وهو ساجد في الركعة الاولى من صلاة الجمعة.أنظر: ابن بشكوال، **الصلة**،522. الضبي، **بغية الملتمس**، ص50. ابن خلكان، المصدر السابق، 317/5.

(5) ابن الحاج، **النوازل**، ص ص90، 91 نقلاً عن : بوتشيش، المرجع السابق، ص118.

(6) عياض، **الغنية**، ص28. نقلاً عن :بوتشيش، المرجع السابق نفسه.

(7) مجهول، المصدر السابق، ص44.

(8) الإدريسي، المصدر السابق، ص ص266، 267.

حينذاك[1] لكننا إذا عدنا إلى ابن الحاج فنجده يقوم بمسح شامل ودقيق، ويضع كلٌ في مكانه ولذلك اعتمدت تقسيم المجتمع إلى ثلاث طبقات وهي:

أ- الطبقة الخاصة:

تشمل هذه الطبقة الفئة التي توفرت على ثروة مالية، ونفوذ في السلطة، فهي تضم الأمراء الملثمين والولاة الصنهاجيين، والفقهاء والكتاب والوزراء وقادة الجيش، وسيأتي ذكر هذه العناصر بالترتيب، حسب المكانة والسلطة.

1- الأمراء:

يطلق هذا المصطلح على صنفين، الصنف الأول يشمل أمراء السلطة المرابطية في مراكش وهم يوسف بن تاشفين وعلي بن يوسف وتاشفين بن علي،وهؤلاء تلقبوا بلقب أمير المسلمين[2]،وفي عهد هؤلاء خضعت الأندلس للسلطة المرابطية، أما الصنف الثاني من الذين يطلق عليهم اسم أمير فهم ولاة السلطة في الأندلس.

من خلال دراسة جوانب من حياة هؤلاء الأمراء، يتبين أن هناك تباين بين الجيل الأول من الحكام والجيل الثاني، فقد تميز الجيل الأول بالحفاظ على نمط عيشه الذي ألفه في الصحراء، من تقشف في المأكل والمشرب ومظاهر الحياة [3]، ومن الأمثلة على ذلك يوسف بن تاشفين الذي لم يتأثر بمظاهر الأبهة رغم أنه حكم العدوتين وعرفت البلاد في عهده قوة واستقرارا، فعُرف بلبسه للصوف وأكله لخبز الشعير، وشربه لحليب النوق[4]. يصف صاحب الحلل الأندلس في عهده قائلا: « أقامت بلاد الأندلس في عهده سعيدة حميدة، في رفاهية عيش، وعلى أحسن حال، لم تزل موفورة محفوظة إلى حين وفاته رحمه الله، قدم أشياخ المرابطين فيها، وكانوا أقواما ربتهم الصحراء، نيتهم صالحة لم تفسدها الحضارة، ولا مخالطة الأسافل » [5].

---

(1) ورد مصطلح العامة والخاصة في تصانيف المؤرخين المسلمين في وصفهم لفئات المجتمع الإسلامي، ومن ذلك ما أورده ابن خلدون، من رسالة طاهر بن الحسين لابنه عبد الله حين ولاه المأمون على الرقة ومصر. أنظر: ابن خلدون، **المقدمة، ص** 309.

(2) مجهول، المصدر السابق، ص29 .

(3) بوتشيش، المرجع السابق، 131. دندش، المرجع السابق، ص268.

(4) ابن عذاري، المصدر السابق، 23/4، ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص136.

(5) مجهول، المصدر السابق، ص82

وعلى غرار الأمير يوسف فإنّ ابنه الأمير علي الذي بدأ يحصد ثمرات الملك الذي خلّفه والده، فانه لم يتأثر بمظاهر الملوك من أبهة وترف، بل يصفه المراكشي قائلا :« كان يُعد من الزهاد والمتبتلين، أقرب منه أن يُعد من الملوك والمتغلبين »[1] .

أما الجيل الثاني من الأمراء، فقد اختلف عن سابقه حيث تأثر بمظاهر الحياة الأندلسية من حضارة وترف ورفاهية، وانتقلت حياتم من بساطتها إلى معقدها، ويظهر ذلك في أبهة الحكم والتأنق في المأكل والمشرب وتعتبر فترة علي بن يوسف المرحلة الانتقالية بين حياة البداوة الصحراوية إلى حياة المدنية الأندلسية[2].

ومن مظاهر الحياة التي عاشها الولاة والأمراء، تشييد القصور، وملئها بالجواري والعبيد والخدم من طوائف مختلفة[3] ومجاراة للخلفاء العباسيين،فقد توافد على بلاطات الحكم، وفود الشعراء والكتاب وأجزل بعض الأمراء العطايا لهم، فيذكر ابن الخطيب أن أبا بكر بن إبراهيم كان مثالاً في الكرم وآية في الجود والعطايا حتى أنسى أجواد الإسلام والجاهلية [4].

وتظهر مظاهر الثراء في الهدايا التي كان يتبادلها الأمراء، خاصة منها التي تُرسَل لأمير المسلمين، ومن تلك الهدايا التي أرسلها أحد وُلاته ووصفها صاحب الحلل ذلك في قوله:« وكان يُتحِف أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، ويهاديه، مما تحصل بيده من نفيس الذخائر واليواقيت والجواهر ورفيع الدنانير »[5] .

وأخذت دواوين الشعراء المعاصرين للمرابطين، نصيبها من فصول المدح والتمجيد، إشادة بالكرم والشجاعة والأخلاق[6]، إلا أن هذه الأخلاق لم يتصف بها كل الأمراء، بل هناك من ساءت

---

(1) المراكشي، **المعجب**، ص 130.

(2) دندش، المرجع السابق ، ص269.

(3) ابن عذاري، المصدر السابق ، 23/4.

(4) ابن الخطيب، **الإحاطة**، 404/1.

(5) مجهول، المصدر السابق ، ص76.

(6) أنظر ديوان بن خفاجة وديوان الأعمى التطيلي، ومما قاله الشاعر ابن حمديس في شجاعة المرابطين:

ألفت قلوبهم الخضوع لربـهم ... والبأس في أسيافهم متكبر
يرمون أغراض الحتوف بأنفس ... ووجوهها لعيونهم تتنمـر
وتغور في هام العلوج جداول ... للضرب من أغمادهم تتفجر
من كل وحشي الضباع كـأنه ... بين القـنا ليث فحـ ـذر

ويقول الأعمى التطيلي يمدح علي بن يوسف

طليعة جيشك الرّوح الأمين ... وظل لوائك الفتح المبين
وهِزّة رمحك الظفر المواتي ... ورونق سيفك الحق اليقين
وبعض رضاك للآمال دنيا ... وشكر قراك للآمال دين =

أخلاقه، وسادت في مجالسه الخمور والمجون واللهو والفساد وتبديد الأموال فيما يُغضب الرعية[1]، مما جعل بعض الشعراء يجهر في تشهيره لفساد الأمراء ، كما أن ذلك يوضح أننا أمام فئتين من مسئولي السلطة، فئة محافظة على النهج الذي انطلق عليه المؤسسين، وفئة ثانية انحرفت عن الطريق ولذلك نجد أن نظرة المجتمع للسلطة لم تكن أمرا ثابتا، بل تتحكم فيه سياسة السلطة، وهناك من الشعراء من جاهر بموقفه، ومن هؤلاء الشاعر الأبيض[2] الذي هجا الزبير أحد أمراء الملثمين في قرطبة .

وكان الولاة يعيشون حياة الثراء والترف إلى حد التبذير، وقد جاء في وصف بن الخطيب لوالي سرقسطة « أقام فيها مراسم الملك، وانهمك في الملذات، وعكف على المعاقرة، وكان يجعل التاج بين ندمائه، ويتزي بزي الملوك » [3].

يمكن لنا أن نستقرئ من هذه الأمثلة والصور لمحة عن خصائص الولاة والأمراء، وأهم الملاحظات أن هذه الفئة في بداية الحكم المرابطي كان همها الجهاد والقيام على مصالح المجتمع، أما في المرحلة الثانية منه، وهي التي سميتها بمرحلة الجيل الثاني، فان اهتمامات القائمين على الدولة تحولت إلى الاهتمام بأنفسهم، وهو ما سَيَتَجَلى لنا أكثر في الفصل القادم.

2- الفقهاء و القضاة:

حظي الفقهاء بمكانة رفيعة في الدولة المرابطية لم ترق لها فئة أخرى، كما أن هذه المكانة لم يعرفوها في دولة أخرى، حتى سميت دولة المرابطين بدولة الفقهاء، ولعل هذه المكانة الرفيعة ترجع عواملها إلى بداية تأسيس الدولة، فمؤسسها عبد الله بن ياسين فقيه، وقامت الدولة على أسس دينية إصلاحية وكان الفقهاء هم المنظرون لسياستها، حتى أصبح هناك شبه تحالف بين السلطتين الروحية والزمنية .

= أنظر: الضبي، المصدر السابق، ص175.

(1) ابن الخطيب، المصدر السابق **الإحاطة**، 1/ 407 ، بوتشيش، المصدر السابق ، ص134.

(2) الأبيض هو أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري، أصله من همذان، وقد درس باشبيلية وقرطبة، وكان جريئا قوي النفس مستنكرا فساد الأمراء، وقصته مع الزبير أنه قال فيه:

عكف الزبير على الضلالة جاهدا ... ووزيره المشهور كلب النار

ما زال يأخذ سجدة في سجـدة ... بين الكؤوس ونغمة الأوتار

فإذا اعتراه سهوا سبـح خلفـه ... صوت الفتيان ورقة الأوتار

فأحضره الزبير ووبخه على هجائه وقال له : مادعاك إلى هذا ؟ فقال: إني لم أر أحق من الهجو منك، ولو علمت ما أنت عليه من المخازي، لهجوت نفسك إنصافا، ولم تكلها إلى أحد، فلما سمع الزبير ذلك، قامت قيامته، فأمر بقتله. أنظر: المقري، **النفح**، 37/5. ابن سعيد، المصدر السابق، 127/2، ص187.

(3) ابن الخطيب، المصدر السابق، 405/1

ويصف المراكشي هذه المكانة قائلا: « وفي عهد المرابطين عَظُمَ أمر الفقهاء، لأنّ أُمراءهم لم يكونوا يقطعون أمراً، ولا يبتون في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة فقهاء فبلغ الفقهاء في عهدهم مبلغا عظيما،لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس، فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكانتهم » [1].

ونظراً لهذه العلاقة بين الفقهاء والسلطة، فقد كان لهم نفوذ كبير، وهم يمثلون السلطة في كثير من سياساتا، نجد ذلك خاصة في القضاء، وكان القضاة على ثلاث مراتب، فهناك قاضي المدينة، ويعلوه مرتبة قاضي الإقليم، حيث كانت الأندلس مقسمة إلى ثلاثة أقاليم، أما القاضي الذي يشرف على كل الأندلس فهو قاضي الجماعة في قرطبة[2]. ومن مظاهر نفوذ القضاة أنم كانوا يشرفون على عدة خطط، أو يُعَيِّنونَ من يقوم عليها، مثل الفتيا والصلاة والحسبة وغيرها [3].

وصنف القضاة في أعلى سلم السلطة المرابطية، ويُختار القاضي من الفقهاء، فكل قاض فقيه، ويفصل القاضي في القضايا دون الرجوع للأمير [4]. وفي ذلك إشارة إلى استقلال السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية[5]

عاش الفقهاء حياة مِلْؤها الترف والثراء، فكانوا على هرم الطبقات الاجتماعية، وامتلكوا الأموال والعقارات، ومما يدل على مكانتهم الرفيعة، أن أحدهم كان لما يدخل المدينة يُستقبل استقبال الملوك والأمراء، ويظهر ذلك من وصف الكاتب ابن القصيرة [6]للقاضي عياض عند دخوله غرناطة بقوله: « لما ورد علينا القاضي عياض، خرج الناس للقائه، وبرزوا تبريزا ما رأيت لأمير مؤمرمثله وحرزت أعيان البلد الذين خرجوا إليه ركابا نيفا على مائتي راكب ومن سواد العامة مالا يُحصى كثرة » كما تظهر هذه المكانة في رسالة الأمير تاشفين بن علي لأحد ولاته وهو الزبير بن عمر يعاتبه فيها على عدم الاحتفاء بالقاضي ابن الأسود، حين نزل عنده قائلا له «خبْرنا أعزك الله: كيف جاز أن يجتاز بكم الفقيه الأجل القاضي الأعدل، أبو بكر بن الأسود، قاضي قضاة الشرق، وما بموضعه

---

(1) المراكشي، **المعجب**، ص130

(2) حسن محمود، المرجع السابق ، ص397.

(3) ابن عبدون، **رسالة في الحسبة**، ص 20.دندش، **الأندلس** في **نهاية المرابطين ومستهل الموحدين**، ص 129.

(4) أحمد أمين، المرجع السابق، 19/3.

(5) دندش، المرجع السابق، ص129.

(6) ابن القصيرة هو أبو بكر محمد بن سليمان الكلاعي الكاتب الأندلسي، أديب من كبار الكتاب في اشبيلية، عاصر الدول الثلاث، العبادية والمعتمدية واليوسفية، توفي سنة 508هـ، أنظر :ابن خاقان، **قلائد العقيان**، ص104، ابن عذاري، المصدر السابق، 4/ 60 . أنظر:ابن بشكوال، المصدر السابق **الصلــة**، ص 445. ابن سعيد، المصدر السابق، 350/1.

خفا، ولا باحتفاء الدولة العلية به احتفاء، فتهاونتم بمثواه، ونمتم جميعا عن قراه، كأنه قد مر منكم بفلاة، أو حط على رفاة...»[1] .

ومن مظاهر الترف والثراء، أنهم سكنوا القصور واتخذوا الخدم، وتأنقوا في المأكل والملبس ونعتوا بكل نعوت التبجيل والتعظيم، ولذلك أوصى الباجي[2]ولديه بالعلم والتعلم، بقوله:« هل تريان أحداً أرفع حالاً من العلماء، وأفضل مـ لة من الفقهاء، يحتاج إليهم الرئيس والمرؤوس ويقتدي بهم الوضيع والنفيس » [3] .

ولكن لايكون ذلك دائماً، إلا بعد أن يكون ذلك قلباً وقالبا، لا وسيلة للتكسب للرزق والنفوذ كما ظهر في بعض فقهاء العصر المرابطي، لأننا نلاحظ أن هذه الفئة كثيرًا ما كانت عُرضة لتهجم العامة، وأوردت المصادر روايات متعددة حول تعرض الفقهاء للنقد اللاذع [4].

3- الوزراء والكتاب :

تدخل هذه الفئات من الفئات التي كانت لها مكانة في بلاطات الأمراء والخلفاء، في تاريخ الأندلس ولذلك نجد ابن خاقان [5] يُخَلِف لنا مؤلفين في ذلك [6]كما حظيت هذه الفئات بتدوين سيرها وأخبارها من طرف كتاب السير والتراجم.

---

(1) حسين مؤنس، **سبع وثائق**، مكتبة الثقافةالدينية، ط1، (1420هـ/2000م)، ص27.

(2) أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي المالكي الأندلسي الباجي(403هـ- 474)، من علماء الأندلس وحفاظها،سكن شرق الأندلس، ورحل إلى المشرق سنة 426هـ، تنقل بين مكة وبغداد والموصل، صنّف كتباً كثيرة منها "المنتقى" و "أحكام الفصول في أحكام الأصول" و" التعديل والتجريح في من روى عنه البخاري في الصحيح" ولد ببطلوس ومات بالمرية، أنظر: ابن سعيد، المصدر السابق،404/1. ابن خلكان، المصدر السابق،408/2، 409.

(3) بوتشيش، المرجع السابق، ص145.

(4) من أمثلة النقد الذي تعرض له الفقهاء ما قاله أبو جعفر أحمد بن محمد (ابن البني)، وهو من أهل جيان، يتعرض للقاضي أبي عبد الله محمد بن حمدين قاضي قرطبة.

أهل الرياء لبستموا ناموسكم ... كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتموا الدنيا بمذهب مالك ... وقسمتموا الأموال بابن القاسم
وركبتمو شهب الدواب بأشهب ... وبأصبغ صبغت لكم في العالم

أنظر :المراكشي، المصدر السابق، ص 130:

(5) أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان الاشبيلي، ، ألف كتابه " قلائد العقيان" للامير أبو اسحاق ابراهيم بن يوسف. توفي قتيلاً في مراكش، وتباينت الروايات في سنة مقتله فيذكر ابن خلكان أنّ ذلك كان سنة 535هـ، بينما الروايات المغربية فتذكر أن وفاته كانت ما بين 528 و 529 أنظر: ابن سعيد، المصدر السابق، 159/1. ابن خلكان المصدر السابق، 23/4، 24. ما كتبه محقق كتاب القلائد، ص (و) .

(6) المؤلفان هما **مطمح الأنفس** و **قلائد العقيان.**

ويصنف بن خلدون [1]، خطة الكتابة ضمن الصنائع التي من شأنا أن تقرب للسلطان فلها شرف كبير، وهي وظيفة من الوظائف التي تقوم عليها السلطة، كما أنا خطيرة تستوجب الدقة في تعابيرها،ومن بين ما يقوم به الكتاب تسجيل كل ما يتعلق بالسياستين الداخلية والخارجية والإشراف على مراسلات الملوك قراءة وردًا، وقراءة تظلمات الرعية، وكتابة أخبار الدولة، والقيام على مختلف الجبايات وتحديد الأراضي العنوية والصلحية[2] ولذلك لا يتولى هذه الخطة إلا من توفرت فيه شروط منها حسن الخط، وجمال الأسلوب و الإطلاع الواسع [3].

حظي الكُتّابُ في عصر المرابطين بشأن كبير، حيث ازدهرت خطة الكتابة لاتساع الدولة وحاجة الأمراء للكتاب، ويدل على ذلك استقدامهم من الأندلس، حيث يصف المراكشي ذلك في عهد علي بن يوسف بقوله:«واجتمع له ولابنه من أعين الكتاب وفرسان البلاغة، ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار»[4]

وما قِيل عن الكُتّابِ ُيقال عن الوزراء، وهناك من جمع بين الوظيفتين، حتى أُطلق عليهم اسم ذي الوزارتين [5]، وزاد نفوذ هده الفئة أكثر في عهد الجيل الثاني من الأمراء، بسبب نفوذ الفقهاء والقضاة الكبير في عهد الجيل الأول، إلى درجة أنه كان للقاضي على الوزير رقابة، حتى لا يحدث ما فيه ضرر للمسلمين [6]، ويُلاحظ في ذلك غاية لتوسيع دائرة الشورى، وهو ما أشار إليه ابن عبدون إذ يرى أنه إذا اتفق القاضي والوزير صلُحت الدولة [7] .

وفي عهد الجيل الثاني زاد الوزير حظا بعلو الهمة، والمكانة الرفيعة [8]، وتتجلى مكانتهم في تقديم التهاني لهم عندما يحوزون هذا المنصب [9]، وزادت ثرواتم بالعطايا، وسكنوا القصور وملكوا العقارات، وتقرب إليهم الشعراء بالمدح طمعا في نفوذهم، وانتقدهم العامة [10] .

---

(1) ابن خلدون، **المقدمــة**، ص425.

(2) السامرائي، عبد الحميد حسين أحمد، **تاريخ حضارة المغرب والأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، دار شموع الثقافة الطبعة الأولى، 2002، ليبيا، ص190.

(3) المراكشي، المصدر السابق ص132، ابن عذاري، المصدر السابق، 231/3، حسن محمود، المرجع السابق، ص261

(4) المراكشي، المصدر السابق، ص123.

(5) ابن خاقان، المصدر السابق، ص80.

(6) السامرائي، **تاريخ المغرب والأندلس** ، ص164.

(7) ابن عبدون، المصدر السابق، ص ص14، 15.

(8) الفتح ابن خاقان، **قلائد العقيان في محاسن الأعيان**، تقديم محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، ص343.

(9) الفتح ابن خاقان، **مطمح الأنفس ومسرح التأنس في مُلح أهل الأندلس**، تقديم وتحقيق وتعليق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2001/1422م القاهرة، ص186

(10) بوتشيش، المرجع السابق، ص141.

4- قادة الجيش:

إذا وُصف الفقهاء والقضاة بالمنظرين للسياسة المرابطية، ووُصف الكتاب والوزراء بفرسان القلم، فان الجيش كان صاحب السيف المنفذ لسياسة الدولة، ولذلك لا غرابة في علو مكانة الجند والقادة، خاصة وأن الجهاد كان من أهم الأسس التي قامت عليها الدولة، ولذلك حظي قادة الجيش بمكانة ضمن الطبقة الخاصة [1]، ونظرًا لهذه المكانة فان هذه الفئة غلبت عليها العناصر الصنهاجية وأغدق عليهم الأمراء العطايا وأقطعت لهم الأراضي، ويُشير في ذلك صاحب الحلل قائلاً:« فمن ظهرت نجدته وإعانته وشجاعته، أكرموه بولاية موضع ينتفع بفوائده »[2] وهذا يدل على سياسة التشجيع على الجندية، وتكرم الأمراء على القادة. إضافة إلى ذلك فقد كان الجند يصرفون رواتب عينية تعرف بالبراءات، وهي عبارة عن كميات من الطعام يصرفها الأمير للجند[3] فكان الجند يبيع ذلك الطعام لأهل الأندلس، وساهم ذلك في اتساع عيشهم، فسكنوا القصور، واقتنوا الجواري والعبيد، وتقرب إليهم الشعراء طمعا في العطايا.

5-البيوتات الكبرى:

عرفت الطبقة الخاصة فئة تدخل ضمن أسر التمع، ولكنها تتمتع بخصائص الفئات السابقة من نفوذ سياسي ومكانة اجتماعية وثراء مادي، ويرجع ذلك لعلاقتها الخاصة بالسلطة، ووظائفها السامية في الدولة، التي مكنتها من جمع الثروة وامتلاك العقارات [4].

واشتهرت كل مدينة أندلسية بأسرها الكبيرة، فمدينة اشبيلية عرفت أسرة ابن زهر[5]، التي يرجع نفوذها إلى عصر الطوائف، وكانت قد اشتهرت في مجال الطب، فذاع صيتها، ونفوذها، ومالها إلى أن أصبح ذلك يحاكي ما وصل إليه بنو عباد من شهرة، وهو ما جعلهم يكيدون لهم، فأخرجوهم من اشبيلية، وصادروا ممتلكاتهم، ولم يتمكنوا من العودة إلا في عصر المرابطين، حيث احتفى بهم

---

(1) بوتشيش، المرجع السابق، ص135.

(2) مجهول، المصدر السابق، ص 82.

(3) ابن رشد**الفتاوى**1453/3، 1454.كمال السيد أبو مصطفى، دراسات أندلسية، ص14.

(4) كمال السيد أبو مصطفى، المرجع السابق، ص09.

(5) بيت علماء ورؤساء وحكماء ووزراء باشبيلية، نالوا المراتب العلية، منهم أبوبكر بن زهر(507هـ- 565هـ)، وأبوه الطبيب أبو عبد الملك تولى رياسة الطب في بغداد، ثم مصر ثم القيروان، وذاع صيته في الأندلس والمغرب، وجده أبو العلاء بن زهر وزيراً وفيلسوفاً. ابن خلكان، المصدر السابق، 434/4-437.

يوسف بن تاشفين وأعاد ممتلكاتم[1] وازداد نفوذهم في عهده فأصبحوا من أهل الحل والعقد في اشبيلية[2]، واستمرت هذه الحال إلى أن ساءت العلاقة بينها وبين الأمير بسبب وشاية سنة (511هـ/1117م) وميز هذه البيوتات التنافس فيما بينهم، فنجد هناك تنافس بين عائلة ابن زهر وعائلة الزهري، وهو ما دفع الأمير علي إلى نقل عائلة الزهري إلى مراكش وعائلة ابن زهر إلى فاس[3].

تميزت هذه الأسر بُيسر أحوالها الاجتماعية، بسبب الهبات والعطايا والعقارات التي امتلكوها [4]، ومما يشير إلى ثروات هذه الأسر الهبات والهدايا التي يتبادلونا، ومثل ذلك ما ذكره الونشريسي أن رجلا وهب ابنته رباعا أي دارا وحوانيت وعقارات، وتصدقت امرأة على ابنتها بمائة مثقال ذهبي[5]، وأن رجلا من أهل بطليوس امتلك قرية بكاملها [6].

من خلال هذه النظرة حول الطبقة الخاصة في عصر المرابطين يمكن إعطاء الملاحظات التالية، أن نفوذ ومكانة هذه الطبقة يرتبط بمدى علاقتها بالسلطة، فالسلطة هي المحددة لفئات هذه الطبقة، أي أنه لا يوجد استقرار لهذه الطبقة، وهذا الوضع منعها من تحقيق أي أهداف سوى التنافس فيما بينهم على الوظائف وجمع الأموال، وهو ما جعلها كثيرة الاستهلاك[7]بعيدة عن الإنتاج[8]،كما استحوذت هذه الفئات على ممتلكات الدولة، وامتلاكها للثروة أدى إلى اتساع الهوة بينها وبين الطبقة العامة، إضافة إلى ذلك إعفاء هذه الطبقة من الضرائب وانتشار الفساد، وهو ما يؤدي إلى قلق اجتماعي ُيعبر عنه بأشكال مختلفة، من بينها التنافر بين هذه الطبقات.

ب - الطبقة الوسطى:

ُتعد هذه الطبقة من أهم الطبقات في ا لتمعات، وذلك لخصائص موقعها بين طبقة حاكمة وثرية تتصف بالخمول والاستهلاك، وبين طبقة ضعيفة مغمورة، وصفت بكل أوصاف التحقير[9] أما الطبقة الوسطى فكثيراً ما كانت وراء التأثير والتغيير في ا لتمعات، فهي شريحة واسعة في ا لتمع

(1) المقري، المصدر السابق، 388/4.
(2) ابن عذاري، المصدر السابق، 65/4.
(3) ابن عذاري، المصدر السابق، 65/4. دندش، المرجع السابق ، ص276.
(4) كمال السيد ابو مصطفى، المرجع السابق، ص15.
(5) الونشريسي، المصدر السابق، 130/9. أنظر: ابن رشد، المصدر السابق، 1141/2.
(6) الونشريسي، المصدر السابق، 19/10.
(7) دندش، المرجع السابق ، ص276.
(8) بوتشيش، المرجع السابق، ص158.
(9) دندش، المرجع السابق، ص281.

تقوم بنشاطات مختلفة، اكتسبت الثروة بجهدها ونشاطها، وأدى ذلك إلى زيادة نفوذها إلى درجة أنها تمكنت من توجيه سياسة الدولة[1] .

ومن أهم عناصرها، التجار وموظفو الدولة وأصحاب المهن والأعمال والأطباء والمهندسين هذه الفئات لم تعرف ثراءً ونفوذاً مثل الطبقة الخاصة، وكان دورها هام في التمع لما يقوم به أفرادها من نشاطات متعددة، كالتجارة والتطبيب والخدمات و غيرها، كما أنا كانت أكثر استقراراً، حيث وُصف أفرادها بأنم لا يطمعون في جاه ولا يخافون من نقصان [2]، كما أن الباجي أوصى ولديه بالتزام هذه الطبقة لأنا لا تتظم من دعة ولا ترمق من رفعة، فما هو واقع هذه الطبقة في دولة المرابطين،وهل استطاعت أن تشكل قوة مؤثرة في مجالات الحياة؟ ذلك ما يتبن من خلال بحث خصائص عناصر هذه الطبقة .

1- التجار: عرف التجار في عصر المرابطين نشاطا واسعا بعد تأمين مسالك التجارة من الأندلس شمالاً إلى بلاد السودان جنوباً،فهي إحدى مصادر دخل السلطة، وذلك من خلال الضرائب المفروضة عليهم وعُرف التجار بيسر أحوالهم المادية، فيصف الإدريسي تجار قرطبة بالمياسير [3].

وكانت المرية قِبلة للمشتغلين بالتجارة، ووُصف أهلها أنم أيسر أهل الأندلس حالا [4] وكانت هناك منفعة بين التاجر والسلطة، فهو يقدم الضرائب وهي تقدم الحماية، وهو ما أشار إليه بن خلدون [5] في قوله ضرورة احتماء التاجر بالسلطان.

2- أصحاب المهن الحرة والوظائف:

صنف الباحث بوتشيش ضمن هذه المهن الأطباء والمهندسين الذين يقومون على خدمة الطبقة الخاصة [6] وكان للأطباء أثر على العامة والخاصة بالقيام على مداواتم، ووُصف هؤلاء بالحكماء، ومن الذين برزوا في هذا الاختصاص اليهود مثل الطبيب حسداي بن شبروط [7].

أما فئة المهندسين فقد سُخرت من طرف الخاصة لتصميم قصورهم، ومن الذين شملتهم هذه الطبقة أصحاب الوظائف، مثل صاحب الأحكام وصاحب المواريث، وصاحب الأحباس والحرس والعرفاء، وكان هؤلاء يتقاضون أجورا متواضعة من الدولة.

---

(1) محمود إسماعيل، **دراسات في الفكر والتاريخ الإسلامي**، ص20.
(2) ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص52.
(3) الإدريسي، المصدر السابق، ص302.
(4) الإدريسي، المصدر السابق، ص 289.
(5) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ص 400، 405.
(6) بوتشيش، المرجع السابق ، ص160ومايليها
(7) أحمد أمين، المرجع السابق ، 32/3.

ويلاحظ أنا لم تشكل بورجوازية، على غرار ما عرفته أوربا، وذلك بسبب أن الدولة سيطرت على كل النشاطات الاقتصادية، وإثقالها بالضرائب[1].

ج/ الطبقة العامة:

أما الفئة الثانية فإنا كانت أقل شأناً ومكانة، ومحلاً للسخرية والتهميش، يصفها ابن بلكين بالسذاجة والبعد عن جادة الصواب، وعرفت تسميات تعبر عن مكانتهم، كالغوغاء والدهماء [2] عرفت هذه الفئة تدهوراً في مستواها الاجتماعي خاصة في المرحلة الثانية من الحكم المرابطي، حيث أهملت السلطة أمر هذه الفئات المحتاجة .

ضمت هذه الفئة الحرفيين، والأجراء، والفلاحين، والمعلمين والباعة المتجولين، وأئمة المساجد، والطلبة، والخدم والعبيد وأسرى الحروب [3]، ومن مهن الحرفيين الصباغة والحدادة والخياطة والنجارة والحياكة [4]، كان أصحاب هذه المهن في المرحلة الأولى للدولة أفضل حالاً من المرحلة الثانية، وذلك لكون الدولة في بداية عهدها في طور البناء والتشييد، فاحتاجت السلطة إلى سواعدهم وقدرت مكانتهم، وحينما كانت أجورهم لا تكفيهم، اضطروا للتماطل والغش والجمع بين الوظائف [5].

أما الأجراء المستخدمون فكانوا يقومون بأعمال الحمالة والحراسة والرعي والزراعة، وذلك بعد أن تتوفر فيهم شروط جسمية كالقوة والصبر والتحمل[6].

والفئة الأخرى التي لقيت تميشا كبيرا فهي فئة المعلمين والمؤدبين والطلبة،فكانت وضعيتهم مزرية يعتمد المعلمون على ما يجود به أباء الصبية من أموال زهيدة، وكانت هذه الفئة كثيرة العدد وعلى الرغم من سوء وضعيتهم، فان ابن عبدون لم يتسامح معهم، حيث جعل المحتسب يراقبهم ويمنعهم من حضور الولائم والجنائز لأنم مستأجرون، ومنع المؤدب من الإكثار من الصبية حتى يتمكن من الإشراف عليهم ،ولعل هذه الوضعية وشروطها زادتم سوءاً ،إلى درجة أن هناك من فضل أن يدرس محتسباً وهناك من تعاطى التجارة، وما قيل عن المعلمين ُيقال عن الأئمة[7].

---

(1) بوتشيش، المرجع السابق، ص 160.

(2) ابن خلدون، **المقدمـة**، ص171.

(3) دندش، المرجع السابق ، 281.بوتشيش، المرجع السابق، ص170.

(4) ابن عبدون، المصدر السابق، ص14.

(5) بوتشيش، المرجع السابق، ص ص172، 173.

(6) بوتشيش، المرجع السابق، ص180.

(7) بوتشيش، المرجع السابق ، ص184.

أما تصنيف هذه الأعمال على القائمين عليها حسب أصولهم، فإننا نجد اشتغال العرب بالتدريس والوعظ وتعليم الصبية، والقيام على شؤون المساجد، أما البربر فقد اشتغلوا بظفر الحلفاء ونسج السلل والزرابي والصيد والحمالة في الأسواق، والبناء وجلب الماء، وطبخ الجبس والجير،بينما اشتغل أهل الأندلس بالصيد وصنع السفن والدباغة والحياكة والخرازة والتجارة والجزارة والنجارة والسباكة والتعدين [1]

وبما أن الدولة المرابطية عرفت الجهاد طيلة عهدها، فإن ذلك أدى إلى كثرة فئة الأيتام وأسرى الحروب، ولذلك نجد أن هناك من الجند مَنْ اشترط على الأمير تاشفين بن علي على أن تعول السلطة أبناءهم في حالة استشهادهم [2]، أما الأسرى فقد تم الاستفادة منهم بتبادلهم مع الأسرى المسلمين [3]، استغلتهم الطبقة الخاصة، كما سخروا للعمل في المزارع، وضمن الأسرى والعبيد نجد الجواري والإماء، وهذه الفئة تباينت طرق استغلالها، بين التسخير في خدمة البيوت، أما الجميلات فكان مصيرهن تمتع أسيادهن بهن[4]

وعانت هذه الفئة من مشاكل مختلفة منها الوضع المتدني، فقد عانت من الكوارث الطبيعية والمجاعات والأوبئة، والفتن والحروب، وتعرضوا للاضطهاد والسجن والاستغلال الجبائي [5].

ثانياً - مظاهر من المجتمع الأندلسي :

تعددت عناصر المجتمع الأندلسي في تصنيفها من حيث الدين، فضم المسلمين وأهل الذمة ومن حيث الأصول، فشمل العرب والبربر والأندلسيين، وفئات مختلفة من السودان والصقالبة والروم، هذا الخليط الاجتماعي جعل الأندلس تعرف خصائصاً ومظاهراً اجتماعية متنوعة، إضافة إلى ذلك الرقي الحضاري الذي عرفه الأندلسيون [6]، فكانت هذه الخصائص تتراوح بين حرية الحياة اليومية وتعدد التقاليد والاحتفالات بالأعياد والطقوس الدينية، وتأثير المكانة الاجتماعية في احتلال موقع في الحياة قد يكون رفيعاً أووضيعاً، كما ستكون هناك مظاهر التأثر والتأثير بين هذه الفئات. تتبين لنا هذه الملاحظات العامة من خلال عملية استقراء بعد الاطلاع على بعض مظاهر الحياة اليومية الأندلسية .

---

(1) دندش، المرجع السابق ، ص281.

(2) مجهول، المصدر السابق، ص 123.

(3) ابن عذاري، المصدر السابق، 83/4.

(4) دندش، المرجع السابق ، ص ص286، 287.

(5) دندش، المرجع السابق ، ص281. بوتشيش، المرجع السابق ، ص199.

(6) نعيمة المني، **فضل العرب المسلمين على الحضارة الإنسانية**، كراسات أندلسية1، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، تقديم عباس الجراري، مطبعة النجاح الجديدة، ط1 2006م، الرباط، ص77.

1/ المرأة:

حظيت النساء عموماً في عصر المرابطين بمكانة محترمة في المجتمع الأندلسي، ويرجع ذلك إلى أنّ هذه الحظوة إنّما هي سائدة في المجتمع قبل ذلك، أما العامل الثاني، فيرجع إلى أنّ النساء حظين بمكانة رفيعة عند المرابطين أنفسهم من قبل قدومهم إلى الأندلس، بدليل المراتب التي احتلتها بعض النساء المرابطيات[1] كما أنّ تحصيلهن نصيب من العلم[2] والاحتكاك فيما بين المسلمات والمسيحيات ساهم في صقل شخصيتهن[3]، وهناك من أرجع هذه المكانة إلى وضعهن الاقتصادي[4] ولعل كل ذلك جعلهن يساهمن في مختلف مجالات الحياة، ورفع من مكانتهن.

ويمكن لنا أن نميز بين دور المرأة التي تنتمي للطبقة الخاصة، وغيرها من نساء العامة، من خلال النشاط الذي يغلب على حياتهن، إذ نجد أنّ النساء المرابطيات وغيرهن من نساء الخاصة شاركن في مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والأدبية.

فبالنسبة للمرأة التي تنتمي للطبقة الخاصة، فهي تتمتع بحرية حياتها الشخصية ومكانتها الرفيعة[5]، ولا تزاول أيّ عمل داخل بيتها أو خارجه، فإذا كانت ليست متزوجة، فهي تنتظر خاطباً، وإذا كانت متزوجة فهي تسعى جاهدة أن تحافظ على ارتباط زوجها بها، حتى لا يضيع منها لصالح امرأة أخرى في ظل مجتمع يعرف الحرية، وتتعدد فيه المغريات من نساء وجواري[6].

وتصنف النساء المرابطيات ضمن الطبقة الخاصة فحظين بالمكانة الرفيعة في المجتمع فبلغت مكانة بعض الأميرات مكانة رفيعة، وكان لها أثر سياسي بدأ منذ تأسيس الدولة، وأبرز مثال على ذلك الدور الذي قامت به زينب النفزاوية في دعم حكم يوسف بن تاشفين[7] ونظراً لهذه المكانة فقد أصبحت المرأة المرابطية مقصداً لذوي الحاجات، فكانت تجزل العطاء، وتعفو عن المساجين وتشفع في

---

(1) من أهم الأدلة على ذلك انتشار ظاهرة الانتساب للأم بدل الأب في الأوساط المرابطية، مثل انتساب بعض القادة والأمراء لأمهاتهم مثل ابن عائشة وابن غانية، وعبد الله بن فاطمة وابراهيم بن يوسف بن تاشفين، (ويعرف بابن تغيشت أو تاغيشت، وهو اسم امه) أنظر: بوتشيش، **المغرب والأندلس** في **عصر المرابطين**، ص52.

(2) دندش، المرجع السابق ، ص317.

(3) PIERRE GUICHARED, *Structures sociales, &é « orientales » et « occidentales » dans l'Espagne musulmane, Mouton, paris, 1977.p164.*

(4) بوتشيش، المصدر السابق ، ص47.

(5) بوتشيش، المرجع السابق نفسه.

(6) دندش، المرجع السابق، ص315.

(7) زينب النفزاوية ابنت تاجر كبير من القيروان، زوجة يوسف بن تاشفين، اكتسبت حنكة ودهاءً، وكان لها نفوذ في الحكم فساهمت في مد سلطة الأمير يوسف بآرائها، فكانت بمثابة المستشار . أنظر: ابن عذاري، المصدر السابق، 22/4. بوتشيش، المرجع السابق، ص ص38،48. أنظر: بلغيث، المرجع السابق، ص332.

الخاطئين[1] فأصبحن مدار مواضيع مدح الشعراء الذين كانوا يقصدونن ويتقربون منهن من أجل تحصيل منفعة أو شفاعة، ومن ذلك ما كتبه الشاعر ابن خفاجة [2] إلى الأميرة مريم بنت الأمير أبي بكر بن تيفلويت، قصيدة طويلة يتشفع با إلى زوجها الأمير أبي طاهر تميم، وقيل عنها « أنّها ممن تقوم على كثير من الخير، وتحفظ من الشعر، وتحاضر به وتثيب عليه» فما وقفت على ما كتب به حتى نفذ العهد بحملانه على أتم وجوه البر والمحافظة[3]

ولم تكن المرأة المرابطية مداراً لمواضيع الأدب فحسب، بل نجدها ساهمت فيه، إذ يذكر ابن عذاري أنّ الحرة حواء بنت تاشفين، شاعرة جليلة ماهرة [4] كانت تحضر مجالس الأدب مع الأدباء والشعراء، وتفوقهم فطنة وبداهة ومحاضرة [5].

وعرفت المرابطيات بالشجاعة، يدل على ذلك ما رواه البيدق، أنّ " فانو بنت عمر بن ينتان" وهي امرأة ذات حسن وجرأة، كانت تقاتل الموحدين، أمام القصر وهي في ثياب فارس، فتعجبوا من قتالها ومن شدة بأسها وشجاعتها، ولم يعرف الموحدون أنّها امرأة حتى قُتلت ، كما أنّ جيش المرابطين ضم عدداً من النساء، اللائي شاركنا في معركة ضد الموحدين سنة(534هـ /1139م)[6].

أمّا المرأة في الطبقة العامة، فقد غلب على نشاطها الجانب الاجتماعي، في إدارة شؤون بيتها وأبنائها [7]، وهناك من اضطرتا الحياة لتتحمل أعباء تكاليف الحياة إلى جانب زوجها، فتخرج إلى مزاولة نشاط تقدر عليه، فأم الشاعر ابن اللبانة كانت تبيع اللبن[8]حتى سمي بذلك، **و**ساهمت الأندلسيات في مجال الحياة الاقتصادية، فاشتغلن بغزل الصوف والنسيج، وتربية دودة الحرير، إذ

---

(1) بوتشيش، المرجع السابق ، ص49.

(2) أبو اسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الأندلسي الشاعر(450هـ-533)، شاعر حسن الشعر، خبيث الهجاء، وُلد بجزيرة شُقْر من أعمال بلنسية. أنظر: الضبي، المصدر السابق، ص198. ابن بشكوال، المصدر السابق، ص95. ابن خلكان **وفيات الأعيان**، 56/1، 57.

(3) بلغيث، المرجع السابق، ص338.

(4) ابن عذاري، المصدر السابق، 57/4. أنظر: بلغيث، المرجع السابق، ص337.

(5) يذكر أنّ الأميرة تميمة بنت يوسف بن تاشفين، كانت تطلب العلم وتنشد الشعر وتتخذ الكتاب وتحظر المالس. بوتشيش، المرجع السابق، ص51.

(6) بوتشيش، المرجع السابق، ص 50.

(7) بوتشيش، المرجع السابق ، ص45.

(8) ابن بسام، **الذخيرة**، 429/3

تذكر المصادر أنّ بنات المعتمد بن عباد كن يغزلن الصوف[1]، ونجد ذلك في المناطق البدوية أكثر منه في المناطق الحضرية[2].

وفي مقابل هذه المكانة الرفيعة والدور في كل مجالات الحياة، فقد انتشرت مظاهر الفسق والتبرج في أوساط كثير من نساء الأندلس، ومن المظاهر التي وصفت بها النساء المرابطيات الخروج سافرة، لا تضع اللثام على وجهها، وهو ما يجعلهن يخالفن عادات المجتمع الإسلامي، إلا أنّ الأمر يبدو عادياً في المجتمع الأندلسي، وذلك لتعدد عناصره وطوائفه وعاداته التي قد لا تجعل من الحجاب شرطاً للخروج[3]، ومن مظاهر التفسخ، استخدام بعض الشاعرات الأندلسيات ألفاظ الفسق في أشعارهن[4] .

واشتهرت اشبيلية بالفساد بقدر اشتهارها بالزهد والتصوف[5]، ومن مظاهر ذلك اللهو والعربدة الذي انتشر بواديها، وسميت البغايا من النساء بالخراجيات، وكانت لهن إقامة خاصة ببعض الفنادق، لعرض زينتهن، ونظراً لما في ذلك من الفساد، والإخلال بالأخلاق فقد سعى الفقهاء في إنكار هذه الممارسات، فيذكر ابن عبدون أنن كثيرات الأخطاء فمنعهن من الاختلاط بالرجال[6] أما الطرطوشي فقد منع حتى عزاءهن إذا كن شابات وأعتبر ذلك بدعة، وأن لا يعزيهن إلا ذو رحم[7] وسفه المجتمع رأي المرأة حتى إننا نجد الرحالة أبو حامد الغرناطي، يقول:« فعقول العوام أكثر من عقول النساء، وعقول النساء أكثر من عقول الصبيان» [8].

(1) ابن خلكان، المصدر السابق، 35/5. بوتشيش، المرجع السابق ، ص45.

(2) بوتشيش، المرجع السابق ، ص46.

(3) دندش، المرجع السابق، ص 316.

(4) يُذكر أنّ ولادة بنت الخليفة المستكفي، اشتهرت بمجالسها الأدبية التي تظم الأدباء والشعراء، واشتهرت بجمالها وأناقتها. أنظر: الضبي، المصدر السابق، 512. ابن بشكوال، المصدر السابق ص534.المقري، المصدر السابق، 340/5. أنظر: نعيمة المني **صور من النقد السياسي والاجتماعي** في **الأدب الأندلسي**، ص77.

(5) بلغيث، المرجع السابق، ص 341.

(6) ابن عبدون، المصدر السابق، ص ص48، 51.

(7) الطرطوشي، **الحوادث والبدع**، تح عبد المجيد تركي، دار الغرب الاسلامي، ط1،(1410ه/1990) ص 327.

(8) أبو حامد الغرناطي، ، **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**، ص90.

2 / الأناقة:

تميز المجتمع الأندلسي باهتمامه فيما يخص أناقته من لباس ونظافة وإقامة، وكل ما يتصل بحياته الشخصية، فكانوا يختارون ألبستهم حسب الفصول[1] فملابس الربيع لابطائن لها ولا أكمام وملابس الربيع مبطنة، وملابس الصيف بيضاء، وملابس الشتاء داكنة من الصوف والملف والفراء[2] كما كانوا على جانب كبير من الأناقة، وكانت هناك ألبسة خاصة بالمناسبات الرسمية[3] ولبست بعض النساء الأندلسيات الخمار الذي يصنع من الحرير، ويوضع على الرأس ويسدل على الوجه[4].

وبلغ اعتناء الأندلسيين بمظهرهم واختيار وتنسيق الألوان ما جعل الأوربيين يرسلون في طلب المنسوجات الأندلسية، بل كان من عظماء المسيحيين من يفضل لباس المسلمين[5].

كما تأثر أهل شرق الأندلس بلباس النصارى، خاصة في فئات الجنود والأمراء[6]، وروي أنّ الأمير محمد بن سعد بن مردنيش أمير الشرق مال إلى اتخاذ زي الروم من اللباس الضيق، واتخاذ السروج الضخمة[7].

وتزينت الأندلسيات بمختلف أنواع الحلي، من القلائد والخلاخل من الذهب الخالص والفضة والأحجار الكريمة من الياقوت والزبرجد والزمرد، وبلغن في ذلك درجة من الغلو، وعلى خلاف أهل المشرق فإنّ أهل الأندلس لا يلبسون العمائم،لا سيما في شرق الأندلس ونجد ذلك حتى في فئات الأمراء والعلماء والفقهاء، أما في وسط الأندلس[8] وغربه فإن هذه الفئات الأخيرة ترتدي العمائم[9].

وهذه الأناقة التي عليها أهل الأندلس لا نجدها على المرابطين، فكانت عمائمهم مجالاً لسخرية الأندلسيين، ولم يلتزم المرابطون بزي معين، ومن ألبستهم، العمائم المقصورة والسوسية

---

(1) المقري، المصدر السابق، 113/4.

(2) المقري، المصدر السابق نفسه.دندش، المرجع السابق، ص317 وما يليها .

(3) دندش، المرجع نفسه. أنظر: بوتشيش، المرجع السابق، 30-48.

(4) عبد العزيز سالم، **تاريخ المرية الإسلامية**، ص 158.

(5) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 163.

(6) المقري، المصدر السابق، 213/1. دندش، المرجع السابق، ص 321. بوتشيش، المرجع السابق ، ص81.

(7) ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص261. دندش، المرجع السابق، ص322.

(8) يذكر ابن قزمان القرطبي الذي يعد من سكان وسط الأندلس، أنه كانت له عمامة « ولرأسي عمامة من زرحون » أنظر: ابن سعيد، المصدر السابق، 176/1.

(9) المقري، المصدر السابق، ص213.

والغفارة والبرانس البيض والسود والحمر، والأكسية البيض والملونة والجبة من الصوف الرفيع[1]، إلا أنهم فيما بعد تأثروا بالألبسة الأندلسية[2] ، خاصة بالنسبة للجيل الأخير.

وعُرِفَ المرابطون بلبس اللثام[3] ، وهي عادة نشأ عليها الذكور من المرابطين، وأصبح اللثام بعد تكوين الدولة رمزاً للسلطة، فقد انتقلوا من اللثام الأزرق إلى اللثام الأسود، وفي ذلك دلالة على الولاء للعباسيين،[4] وهو ما جعل الكثيرين يتلثمون من أجل التمويه لذلك نجد ابن عبدون يستنكر ذلك قائلاً: «لا يتلثم إلا مرابطي»[5] ، أما النساء المرابطيات فلم يتخذن القناع[6]، وتعددت الشهادات على أنهن غير ملتزمات بلباس ما يسترهن، إلا أنها شهادات موحدية لا يؤمن مبالغتها ومن ذلك ما قاله ابن تومرت أنّ المرأة المرابطية تلبس لباساً يشف عن جسمها، وتجعل شعرها في غطاء على رأسها يشبه "سنم الجمل" [7]

واشتهرت المرية في عصر المرابطين بصناعة أنواع مختلفة من الألبسة المشرقية، كالاصبهاني والجرجاني، وغيرها من الألبسة الحريرية والقطنية[8].

ومن مظاهر الأناقة في الأندلس اهتمام التمتع بمنازلهم، فكانت قصور الخاصة، بها حدائق وممرات ونافورات وبرك، تنتشر بينها أنواع من الورود والأشجار ما يسر النظر[9]، أما الدور فتملؤها الفرش والبسط الفاخرة، ووكانت الجدران تغلف بالحصر الفاخرة، ويبسط في القاعات بسط من الفسيفساء، ويعرف بالزليجي، ويشبه الرخام الملون، وكانت له ألوان عجيبة[10]. أما بيوت العامة فكانت نظيفة، بها بئر وسط الدار، تتكون من طابقين وبها عدة غرف، ودرج خشبي وفرشها نظيفة[11]. وفي المناسبات والأعياد والولائم تبسط الزرابي فوق حصير من أغصان الأسل، تبهّى

---

(1) مجهول، المصدر السابق، ص27.

(2) دندش، المرجع السابق، ص320.

(3) لقد تم ذكر تفسيرات اتخاذ اللثام في الفصل الأول.أنظر : بوتشيش، المرجع السابق ، ص32 وما يليها.

(4) بوتشيش، المرجع السابق ، ص 80.

(5) ابن عبدون، رسالة في الحسبة، ص28.

(6) ابن خلدون، **العبر**، 303/6.

(7) ابن تومرت، محمد بن عبد الله، **أعز ما يطلب**، تقديم وتحقيق عمار الطالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985. ص ص242، 243 . دندش، المرجع السابق، ص320. بوتشيش، المرجع السابق، ص85.

(8) المقري، المصدر السابق، 161/1.الإدريسي، المصدر السابق، ص289.

(9) المقري، المصدر السابق، 188/4. دندش، المرجع السابق، ص324.بوتشيش، المرجع السابق، ص 32.

(10) المقري، المصدر نفسه. دندش، المرجع نفسه

(11) المقري، المصدر السابق، 191/4. دندش، المرجع نفسه، بوتشيش، المرجع نفسه.

الغرفة الكبيرة المطلة على صحن الدار، وتسدل الستائر الحريرية على الجدران تنمقها، وتلقى الوسائد والنمارق على تلونا على الأرض تزركشها، وتضاء الشموع فيسطع نورها في كل الأنحاء[1]

3/**الأعياد والاحتفالات:**

تعددت الأعياد والمناسبات في الأندلس، حسب تعدد عناصرها[2]، وهناك ما يرتبط بالمناسبات الدينية، وهناك ما له علاقة بمناسبات اجتماعية، ونظراً لحبهم للهو والمجون فإنهم أصبحوا يشاركون بعضهم بعضاً فيها على الرغم من اختلاف مللهم وديانتهم، ومن أهم هذه الأعياد عيد الأضحى وعيد الفطر وعاشوراء، ونصف شعبان، والسابع والعشرين من رمضان وينابر[3] والعنصرة وخميس أبريل[4] يتم في هذه المناسبات تبادل الزيارات والتحيات، ولقاء الأهل والأحباب، والخروج إلى المتنزهات، وأهم هذه الأعياد احتفالاً عيد الأضحى[5] .

أما الأعياد التي تأثر بها الأندلسيون بالمسيحيين، فمنها عيد ينير ويكون في بداية كل سنة جديدة،حيث شارك المسلمون النصارى احتفالاتهم به، وتبادلوا التهاني[6]، يتم الاحتفال به في البيوت والشوارع، وتحضر فيه صنوف الحلوى[7]، ومن أعياد النصارى أيضاً يوم العنصرة وهو يوافق الرابع والعشرين من حزيران(جوان)، ويعتقد أنّه فيه ولد يحي بن زكريا عليهما السلام[8]، لكن هناك من يرى أنه يوافق نزول الروح القدس على حواري المسيح الاثني عشر[9]، وفيه يتم إشعال النار في الشوارع ويقفزون فوقها، يضاف إلى ذلك عيد العصير، وهو يوافق فترة جني العنب، والاحتفال به

---

(1) سهام الدبابي، **تهذيب المائدة في الأندلس**، المجلة العربية للثقافة، السنة الرابعة عشر،العدد 27، ربيع الأول(1415هـ/1994م) تونس(عدد خاص بالأندلس)، ص165.

(2) تعددت أعياد الأندلسيين حسب تعدد دياناتهم، ومن هذه الاحتفالات ما يحتفل به النصارى مثل عيد الميلاد وهو يرمز إلى يوم مولد المسيح عيسى بن مريم، أما عيد الفصح عندهم فهو العيد الكبير، ويحتفل به في فصل الربيع وهو يتعلق أيضاً بمعتقداتهم الدينية، وبعد خمسين يوماً من عيد الفصح يحتفلون بعيد العنصرة ويكون في فصل الصيف ويقولون أن روح القدس حلت بتلاميذه. ونفس الأمر بالنسبة لليهود وأعيادهم، ومنها عيد الفصح ويكون في الخامس عشر من نيسان(أبريل) الذي يرمز إلى الاحتفال بتخلصهم من فرعون بعد غرقه، أما عيد العنصرة بالنسبة لليهود فهو في موسم الحصاد، ويرمز إلى الأسابيع التي فرضت فيها الفرائض عليهم. أنظر: نافع عبدالله، **الأعياد والمهرجانات في الشعر الأندلسي**، دار الوسام، ط1، 2003، بيروت، ص19 وما يليها.

(3) هو عيد رأس السنة المسيحية، ويقترن بعيد النيروز الفارسي الأصل. أنظر: نافع عبدالله، المرجع السابق، ص45.

(4) المقري، المصدر السابق، 113/4.دندش، المرجع السابق، ص325.

(5) دندش، المرجع نفسه.

(6) بوتشيش، المرجع السابق، ص92.

(7) دندش، المرجع السابق، ص327.

(8) ابن خلكان، المصدر السابق، 227/7. دندش، المرجع السابق، ص327.

(9) بوتشيش، المرجع السابق، ص93.

يتم لأيام إذ يخرج الناس مع أولادهم إلى الحقول، وقد ارتدوا أحسن ما لديهم من ثياب، ويصحبون معهم المأكولات والمشروبات، وآلات الطرب والموسيقى للرقص، وي لون إلى الأودية للاستحمام[1]

وقد اعتبر الطرطوشي هذه الأعياد من البدع، فيقول:« ومن البدع اجتماع الناس بأرض الأندلس على ابتياع الحلوى ليلة السابع والعشرون من رمضان، وكذلك إقامة ينير، بابتياع الفواكه كالعجم وإقامة العنصرة...»[2] ، ووافقه في ذلك ابن رشد حين أفتى بعدم جواز تقليد النصارى في ما يصنعونه في أعيادهم[3]؛ وعلى الرغم من تلك الفتاوى، فقد شارك المسلمون النصارى احتفالاتم[4].

وتعد احتفالات الأعراس من بين احتفالات العائلة، وتبدأ باختيار الزوجة والخطبة ثم الزواج، وذلك بعد تحديد الصداق، ويقوم والد العروس بتجهيزها أفضل جهاز، فهو مدعاة للتفاخر بين الأسر[5]، وينفق على الزفاف بإسراف، ففي حفلة العرس تحظر الفرق الموسيقية بأنواع مختلفة من آلات الطرب[6]، وعلى أصواتا ترقص الراقصات.

وفي أوساط المرابطين فكثيراً ما كان القِران يتم بين أبناء العمومة، هناك من أرجع ذلك إلى التأثيرات العربية المشرقية في أوساط ا لتمع المغربي والأندلسي[7]، ومن مظاهر الإنفاق والإسراف في الأعراس والمناسبات والولائم صنوف الطعام التي تطهى، وتقدم على أحسن وجه من قِبل الغيد الحسان، يجئن رشيقات يحملن أطباق اللحوم والطيور المخللات، فيختفين ثانية، ليظهرن بصحاف الثرائد، والأطرية والكسكسو، وبين الفينة والأخرى يهدين للآكلين موائد المحليات، ويقدمن لهم الكعك والجوزينق، واللوزينق، والقطائف والزلابية، والإسفنج، والمعسلات، كل ذلك يقدم على موائد شتى با يبدو الطعام شهياً لذيذاً[8].

---

(1) دندش، المرجع السابق، ص328

(2) الطرطوشي، **الحوادث والبدع**، تحقيق بشير محمد عيون، مكتبة المؤيد، الطائف و البيان ، دمشق، ط2، 1412 هـ/1991م، ص 118 .

(3) ابن رشد، **الفتاوى**، ص 940.

(4) أنخل جنثاث بالنثيا، **تاريخ الفكر الأندلسي**، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص21.

(5) دندش، المرجع السابق، ص331.

(6) يذكر الشقندي في رسالته مفتخراً بالأندلس: « وقد سمعت ما في هذا البلد من أصناف أدوات الطرب، كالخيال والكريج، والعود والروطة والرباب والقانون والمؤنس، والكثيرة والفنار والزلاعي، والشفرة والنورة، (وهما مزماران أحدهما صوته رقيق، والآخر غليظ) والبوق. أنظر: المقري، المصدر السابق، 188/4. دندش، المرجع السابق ص331. بوتشيش، **المغرب والأندلس** في **عصر المرابطين**، ص29.

(7) PIERRE GUICHARED,*Opcit, p74.*

(8) سهام الدبابي، المرجع السابق، 165. بوتشيش، المرجع السابق، ص ص73، 74.

4/ اللهو والـون:

تميزت الأندلس بطبيعتها الخلابة، من سهول وأودية وجبال، فكانت مجالاً رحباً لقضاء أوقات الراحة والفراغ والمتعة، وذلك باصطحابم وسائل الترفيه، كلٌ حسب رغبته، من آلات الطرب والموسيقى وحتى المسكرات التي ألفها كثير من أفراد الـتمع .

لعل من بين أهم المظاهر التي تنتشر في الأندلس وتميز مجتمعه انتشار الملاهي المختلفة ومظاهر الـون، وذلك راجع إلى العوامل التي ذكرتا سابقاً، ومن أهمها السكر والفسق والقمار، فولع أهل الأندلس باللهو والشرب والسمر[1]، وكان الشرب ظاهرة منتشرة في أوساط العامة والخاصة وسعت السلطة المرابطية لإزالة هذه العادة، بغلق محلاتا ومتابعة مشتريها، فقد أمر القاضي أبو بكر بن العربي[2] إلى إنزال أشد العقوبات بالمتعاطين لها[3]، إلا أنّ إبطالها في الأندلس كان أمراً صعباً لتفشي الظاهرة، واختلاط الأجناس واحتكاكهم بالمستعربين، والتزاوج مع النصرانيات.

وولع الأندلسيون بالخروج إلى المتـ هات والجنان وضفاف الأنار، في الأعياد والمناسبات وفي الصيف، وعرفت الحواضر الأندلسية بمتـ هاتا وأنارها، كوادي اشبيلية[4]، ومدينة شريش التي يخرج إليها العشاق، فيصفها الشقندي[5] بقوله:« فلا ترى با إلا عاشقاً ومعشوقاً »[6].

ووصفت مدن شرق الأندلس، مرسية وبلنسية والمرية بجمال الطبيعة، وطيب الهواء وجريان أوديتها التي تقصد للسباحة والتـ ه من قِبل الجنسين، أما التـ ه داخل المدن، فقد نتج عنه

---

(1) دندش، المرجع السابق، ص331. سهام الدبابي، المرجع السابق، ص165.

(2) أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعروف بابن العربي المعافري الاشبيلي الحافظ المشهور، رحل إلى المشرق مع والده عام 485ه ، لقي أبو بكر الطرطوشي بالشام وتفقه عنده، وفي بغداد صحب أبا حامد الغزالي، عاد إلى الأندلس بعلم كثيرسنة 493ه، قيل فيه أنه لو لم يكن للأندلس إلا هذا الامام لكان لها من الفخر ما يرجع عنه الطرف وهو كليل. ابن سعيد، المصدر السابق، 254/1، 255. ابن خلكان، المصدر السابق، 296/4، 299.

(3) ابن عذاري، المصدر السابق، 93/4. دندش، المرجع السابق، ص333.

(4) يذكر المقري انتشار ظاهرة الشرب واللهو قائلاً: « ولاشبيلية من المتفرجات والمتـ هات الكثير، وقد اتخذ أهلها من ضاحيتها طريانة وتطيلة متـ هاً،ويقضون أوقاتم في التـ ه على شاطئ نر اشبيلية، تحت ظلال الثمار التي تمتد لأكثر من أربعة عشر ميلاً، وتغريد الأطيار أو يصيدون من أسماكه، التي لا تعد ولا تحصى أو يسبحون، أو يكثرون القوارب لـ هة ويتخلل كل ذلك الرقص والغناء والشرب وسماع الموسيقى العذبة، من مختلف أنواع أدوات الطرب، ومن وقت لآخر تسمع الضحكات العالية لنادرة قيلت، أو لنكتة طريفة، والجميع لاه ضاحك، وإلا أعتبر ثقيل الظل. أنظر: المقري، **نفح الطيب**، 178/1 . دندش، المرجع السابق، 335

(5) اسماعيل بن محمد الشقندي (ت 629ه/1231م)، ولي قضاء بياسة، وقضاء لورقة. أنظر: ابن سعيد، المصدر السابق 218/1، 219.

(6) المقري، المصدر السابق، 181/1.

إنشاء المطاعم، والمشارب والحوانيت، والفنادق على طول الطرق، فيصحب الأندلسيون معهم آلات الموسيقى والطرب والشراب(1).

واشتهرت مدن الأندلس بملاهيها، ودور الفسق، يصف المقري ذلك في قوله: « للمجون بها سوق، وللفسوق ألف سوق »(2)، وهو ما يدل على أنّ البغاء كان ظاهرة منتشرة، في أوساط العزاب وحتى المتزوجين، ويدل على ذلك ما خلفه ابن قزمان(3) من أزجال(4)، فكانت للبغيات دروهن وفنادقهن للتبرج وعرض زينتهن، وهو ما جعل ابن عبدون ينكر ذلك ويدعوا لإبطاله(5).

ولم يقتصر التغزل بالنساء، بل امتد ذلك إلى الغلمان، ولم يكن هذا الأمر منتشراً فحسب بل انه لم يكن أمراً غريباً، وانتشرت هذه العادة القبيحة في أوساط العامة والخاصة(6)، وهذا الأمر إن دلّ على شيء فإّنما يدل على التطرف في الفساد إلى درجة أنّ الشذوذ أصبح عرفاً، لا يمكن إنكاره ولا مقاومته.

5/ ظاهرة التصوف:

إذا كانت ظاهرة اللهو والمجون منتشرة في المجتمع الأندلسي،وامتدادها سابق لعصر المرابطين فان أواخر العصر المرابطي شهد انتشار ظاهرة اجتماعية تختلف اختلافاً جذرياً عن الأولى وهي ظاهرة التصوف(7)

---

(1) دندش، المرجع السابق، ص 336.

(2) المقري، المصدر السابق، 121/3.

(3) ابن قزمان أبو بكر بن عيسى بن عبد الملك بن عيسى، إمام الزجالين بالأندلس، ومن أسماء قرطبة، له ديوان مشهور بالمشرق والمغرب، أنظر: ابن سعيد، المصدر السابق، 167/1.

(4) يذكر ابن قزمان أنّ امرأة جاءته إلى داره فلعب معها، ويصف حاله وحال الكثيرين من أهل الأندلس قائلاً:

ليس عندي قوامْ ولاه فـلاحْ
إلا شرب الشرابْ وعشق الملاحْ

ويقول:

والربض لا شيوخ ولا حجاج
وأراهـل ملاح بـلا أزواج
ويجوني طـول النهار عن مواج

أنظر: ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، 168/1- 170 - 173

(5) ابن عبدون، المصدر السابق، ص51. دندش، المرجع السابق، ص338.

(6) دندش، المرجع السابق، ص341. بوتشيش، المرجع السابق ، ص99.

(7) الفرد بل، **<u>الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح الإسلامي إلى اليوم</u>**، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، ط3، 1987، ص378. سيف الدين هيبة، الطريقة الشيخية، (رسالة ماجستير في علم الاجتماع الثقافي) من جامعة الجزائر،76، 2006م. حول ظاهرة التصوف في عصر المرابطين، أنظر، بلغيث، **الحياة الفكرية**، ص427. وحول

وتعددت التفسيرات حول أسباب ظهورها، فهناك من رأى أنّ هذه الظاهرة هي امتداد لحركة ابن مسرة[1]، التي ترجع إلى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، وهناك من ربطها بنظرة المجتمع لمكانة رجال الدين وابتعاد السلطة عن الدين، كتذمر الرعية من سلوك الفقهاء وحياة البذخ التي يحيونها، ومن جهة أخرى عدم قيام السلطة بواجباتها تجاه المجتمع وتضييعها لأوامر الدين[2].

وهناك من ربطها بالواقع الاقتصادي والاجتماعي الذي ساد المجتمع الأندلسي والمغربي في آخر دولة المرابطية، فهو يرى أنها نتيجة الأزمة[3] تظهر هذه الظواهر التي تجد بيئة خصبة للظهور كما أن المجتمع يجد فيها ملاذا، من خلال الدخول في الغيبيات والكرامات، كما أنّ آخرا رأى أن الواقع الاجتماعي الذي ساده اللهو والمجون ولّد فئة مناهضة، تسعى إلى إصلاح نفسها والابتعاد عن عالم المغريات[4].

والرأي الذي أراه صائباً أن هذه العوامل كلها تضافرت فيما بينها، فالتصوف ظاهرة انتقلت عبر بعض الأفراد والكتب، وكتب التراجم تعطين نماذج من المتصوفة لعصر المرابطين والفترة التي سبقته، كما أن هذه الظاهرة كانت تعود إلى تأثير حركة الحج وطلب العلم والتجارة، بين الأندلس والمشرق، هذه الحركة التي تمثل في الحقيقة حركة للأفكار والمؤلفات، وخير مثال على ذلك كتاب الإحياء للغزالي، كما لا ننسى أنّ فشل التيارات الأخرى المختلفة من شيعة وخوارج وغيرها دفع أفرادا من المجتمع إلى البحث عن بديل تجلى في ظهور حركة التصوف.

وفئة المريدين فئة فضلت حياة الزهد والتصوف،والابتعاد عن مظاهر الفساد وحياة الملذات وانتشرت الصوفية في جُل المدن الأندلسية وأصبح لها مدارس ومشايخ[5].

التباين الذي عرفه المجتمع الأندلسي أنظر:نعيمة المني، **صور من النقد السياسي والاجتماعي في الأدب الأندلسي**،ص ص 76، 77.

(1) محمد بن عبد الله ابن مسرة (ت319هـ /931م) من مفكري الأندلس وعلمائها وزهادها، كان أبوه تاجراً، تعلم علوم الدين والفلسفة، ونظراً للظروف التي كانت تمر بها البلاد فقد اعتزل في جبل في قرطبة، وكان له تلاميذ يعلمهم، انتقل إلى مكة، ثم عاد إلى قرطبة، ولزم الاعتزال وتعليم أتباعه، تباينت الأراء حوله فهناك من اتخذه إماماً زاهداً، وهناك من رأى في أقواله أنه مبتدع.أنظر: الضبي، **بغية الملتمس**، ص85. أنخل جنثالث بالنثيا، المرجع السابق، ص326. عبد الجليل ملاخ **المذاهب غير المالكية بالأندلس**،رسالة ماجستير نوقشت بمعهد التاريخ بجامعة الجزائر(1428/2007)،97، 98.

(2) أنخل جنثالث بالنثيا، المرجع السابق، ص333. ألفرد بل، **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي**، ص378.

(3) بوتشيش، المرجع السابق، ص126.

(4) دندش، المرجع السابق، ص50. بوتشيش، المرجع السابق ، ص127.

(5) تعد مدرسة المرية من أهم مدارس الصوفية، وحظيت المرية بذلك لموقعها كبوابة الأندلس نحو العالم خاصة المشرق العربي، فكانت محطة للتيارات الفكرية الوافدة من المشرق، ترأس هذه المدرسة الصوفي أبوالعباس بن العريف، ومن بين الشخصيات التي برزت في مجال التصوف في الجهة الغربية في مدينة شلب، أبو القاسم أحمد بن قسي إلا أن ما يميزه عن ابن العريف أنه كان متطرفا ، أما اشبيلية ففيها إمام الصوفية أبو الحكم بن برجان، الذي وصف بغزالي الأندلس، أنظر:ابن الأبار

وينتمي المتصوفة إلى فئات اجتماعية مختلفة، من حرفيين ومزارعين ورعاة ومدرسين ومغنيين وقطاع طرق [1].

ومن الأعمال التي عكفوا على مزاولتها، كثرة العبادة ومجاهدة النفس، والتقشف في الحياة في الملبس والمأكل، فألبستهم غلب عليها الخشن من الصوف، ومأكلهم اقتصر على ما يُسَدُّ به الرمق من خبز الشعير واللبن[2]، وهناك من عكف على المعرفة بالقراءة لأصول الدين وفروعه، أما بقية أعمالهم فتمثلت في الإحسان والإيثار، فتقربوا من الفقراء واليتامى وشاركوهم حياتم، تصدقوا بما لديهم من مال،وساهم تقشفهم في الحياة واعتكافهم على العبادة والإحسان، في تقرب العامة منهم طلبا للدعاء والبركة[3] .

من خوارق المتصوفة ظهور الكرامة، التي كانت سائدة في آخر العصر المرابطي، واعتقد الـتمع بصحة كرامة الأولياء، وحتى الفقهاء أفتوا بصحتها ووجوب التصديق با، بحجة التواتر في النقل، وإجماع أهل السنة والجماعة[4]، كما أقر ابن خلدون بصحتها[5].

وكانت الكرامة الأسلوب والأداة غير المرئية التي تؤثر في الـتمع ومحاولة الإصلاح والتغيير دون أن تتمكن السلطة من إقامة أي حجة، فهي تعتمد الرمز في التوجيه لا التصريح المباشر وانطلاقها من الدين يجعلها متحصنة من السلطة وذات إقبال من الـتمع[6].

من خلال هذه الصورة العامة للمجتمع الأندلسي، يمكن القول أنه يتميز بتركيب بشري متنوع الاثنيات والديانات، من عرب وبربر واسبان، ويصنفون من حيث الديانات إلى مسلمين ويهود ونصارى، إلى جانب طوائف متفرقة، توزعت هذه العناصر إلى ثلاث طبقات، هي الخاصة من الأثرياء وأصحاب النفوذ في السلطة، والطبقة المتوسطة التي لم تشكل قوة بسبب تسلط الطبقة الأولى، فبدأت تتحلل في الطبقة الأخيرة من العوام التي ضمت فئات المهمشين.

القضاعي، **الحلة السيراء**، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت، (1381هـ/1962م)197/2
بلغيث، المرجع السابق، 422. عصمت دندش، المرجع السابق، ص ص 51، 55، 57.بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين** ، ص 166. Vincent LAGARDERE ,*Opcit, p219*.

(1) بوتشيش، المرجع السابق، ص134.
(2) بوتشيش، المرجع السابق، ص 133 وما يايها.
(3) بوتشيش، المرجع السابق، ص139.
(4) بوتشيش، المرجع السابق، ص141.
(5) ابن خلدون، **المقدمـة**، ص500.
(6) بوتشيش، المرجع السابق، ص141.

وتنوع العناصر البشرية وانتماءاتا الدينية أدى إلى تنوع خصائصه ومظاهره، فعرف الحرية في طرق عيشه، وهو ما جعلهم يهتمون بمظاهرهم وأناقتهم إلى درجة الإسراف، أما أخلاقهم فقد غلب عليها الفساد والانحلال، من شرب وفسق ولهو، ويقابل ذلك فئة من التمع أنكرت هذه المظاهر، وزهدت في طلب الدنيا،ولعل هذه الخصائص ساهمت في إيجاد مجتمع لا يلتزم بإتباع أوامر السلطة، ولا يهمه مصير دولته، ووقوع الأندلس في حالة عدم الاستقرار السياسي حيث شهدت حكومات مختلفة بل النتيجة كانت أكبر من ذلك، وهي ضياع الأندلس في الأخير.

الفصل الثالث

العلاقة بين المجتمع والسلطة وتطوراتها

المبحث الأوّل: سياسة السلطة المرابطية (مرحلة الالتفاف والتعايش)

1- استنجاد المجتمع بالسلطة المرابطية

2- انتصار الزلاقة وانعكاساته على المجتمع

3- قضاء المرابطين على أمراء الطوائف

4- التنظيم الإداري و السياسي للأندلس

5- السياسة الاقتصادية للسلطة

6- السياسة الأمنية

7- علاقة السلطة بأهل الذمة

المبحث الثاني: التغير في سياسة السلطة (مرحلة الاختلاف والتنافر)

1- عرض ومناقشة أسباب ما آلت إليه الأندلس في آخر عصر المرابطين

2- سياسة السلطة المرابطية

أ/ سياسة التمييز

ب/ تسلط الفقهاء

ج/ السياسة الجبائية ومظاهر الفساد

المبحث الثالث : انقلاب المجتمع الأندلسي على السلطة والمساهمة في اسقاطها

1- ثورات العامة

2- ثورات المريدين

3- ثورات الفقهاء والقضاة

المبحث الأول: سياسة السلطة المرابطية (مرحلة الالتفاف والتعايش)

قسّم المؤرخون والدارسون تاريخ المرابطين إلى ثلاث مراحل: مرحلة النشأة والتكوين في الصحراء(الدور الصحراوي) ومرحلة التوسع نحو الشمال(الدور المغربي)ومرحلة الامتداد نحو الأندلس (الدور الاندلسي)[1]، والدور الأخير ينقسم إلى قسمين: مرحلة القوة التي استمرت منذ حكم الأمير يوسف بن تاشفين إلى أن بدأت تظهر دعوة المهدي بن تومرت[2]، لتبدأ بذلك مرحلة الضعف وتزامنت دعوة المهدي مع حكم الأمير علي بن يوسف، ولذلك اعتبرت مرحلة حكمه الحد الفاصل بين مرحلتي القوة والضعف، وهنا سأركز على التباين في سياسة السلطة بين هاتين المرحلتين.

1/ استنجاد المجتمع بالسلطة المرابطية:

تمثل عملية الاستنجاد بداية العلاقة بين المجتمع والسلطة، وهي تفسر كثيرًا من المعطيات الداعية إلى ذلك، منها سوء الأحوال الداخلية واستفحال التهديد المسيحي، بالإضافة إلى استنفاذ كل الطرق للحد من هذه الوضعية، كما أن الاستنجاد بالمرابطين يعطي ملمحاً عن النظرة الأولى لأهل الأندلس للمرابطين، فقد وردت عليهم أنباء من المغرب أن المرابطين قد ملكوا مغرب العدوة وطردوا عنه الزناتيين، فكأنهم قد تأنسوا بأبنائهم، ورجوا الفرج من تلقائهم[3]، هكذا عبر ابن الكردبوس عن النظرة الأولية للمجتمع الأندلسي للمرابطين.

ولعلنا نجد في عبارة « رعي الإبل عند يوسف بن تاشفين خير من رعي خنازير ألفونسو » التي ينسبها المؤرخون[4]إلى المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية – أقوى أمراء الأندلس- دلالة على حال الأندلس وما آل إليه أهلها، بسبب حملات الاسترداد[5] النصراني التي قلصت الامتداد الإسلامي فيها، وأصبح ألفونسو السادس ملك قشتالة[1] يشقها بقواته في كل الاتجاهات، ويعيث فيها فسادا[2] ولم يحدث ذلك إلا بعد أن رأى ما رأى من التخاذل والتنافس والصراع الداخلي بين أمراء الطوائف كما أن هذه العبارة تدل على أن ملوك الطوائف يعترفون بعجزهم وضعفهم أمام العدو، ووقفت مصالحهم الخاصة عائقاً أمام وحدتهم ولذلك بحثوا عن حل لهم من خارج أرضهم، ولم يكن ذلك إلا

---

(1) حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص143. بوتشيش، **المغرب والأندلس** في **عصر المرابطين**، ص7. بلغيث، المرجع السابق، ص59.

(2) بلغيث، المرجع السابق، ص60.

(3) ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص85.

(4) الحميري، المصدر السابق، ص288. مجهول، المصدر السابق، ص45، المقري، المصدر السابق، 359/4 .

(5) أنظر: محمد الشريف، **المغرب وحروب الاسترداد**، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط1، 2005م

(1) قشتالة عمل من الأعمال الأندلسية، قاعدته قشتالة، ويفصلها عن البلاد الإسلامية جبل الشارات. أنظر: الحميري، المصدر السابق، ص483.

(2) ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص87 .

بعد أن استنفذوا كل محاولات استرضاء النصارى، حيث لم يكتف هؤلاء بالأموال بل أصبحوا يطالبون بالأراضي والقواعد « فطلب بعض الحصون زيادة عن الضرائب » [3] .

فضلاً عن ذلك فقد تعرض المجتمع إلى مظاهر الاستبداد والظلم، ومن الأمثلة على ذلك معاناة أهل بربشتر من سوء معاملة النورمانديين بعد سقوطها سنة(456هـ/1160م) حيث تعرض رجالها للقتل ونساؤها للسبي، وأموالها للنهب[4]وكذلك الأمر بالنسبة لطليطلة حيث لم يشفع لأهلها ما قام به ملوكها حين آووا ألفونسو السادس، ومن ذلك مساعدته في اعتلائه لعرش قشتالة فما إن اشتد ساعده، وأعد عدته، حتى جهز حملة على طليطلة سنة(478هـ/1085م)[5] وكان ذلك بعد حصارها الذي أدى إلى غلاء الأسعار وكثرة القتل فيها والتغريب، ولم يجد أهلها من ينقذهم من أمرائهم. نستقرئ من هذه العناصر الثلاثة والعلاقة فيما بينها - المجتمع الأندلسي وحكامه والعدو- واقع بلاد الأندلس، ومأساة أهلها، وتقاعس أمرائها عن الدفاع عنها من استبداد النصارى.

انطلاقاً من هذا الواقع الذي ألمّ بأهل الأندلس وحكامه، تبين أنه لا منجى لهم إلا بالاستنجاد بقوة تكون قادرة على دحر العدو، وإعادة الأوضاع إلى سابق عهدها.

وكان العالم الإسلامي حينها يعرف ظهور قوتين بارزتين متزامنتين، هما السلاجقة في المشرق، والمرابطين في المغرب، فكان من الطبيعي لجوء أهل الأندلس إلى القوة الأقرب، أما العامل الثاني الذي دفعهم للاستنجاد بالمرابطين، هو العامل التاريخي بين العدوتين، فكان هناك تأثير متبادل بينهما في جميع المجالات ومنها العلاقات السياسية[6] والاجتماعية والثقافية، ولذلك لا نستغرب تبعية إحداهما للأخرى في جانب الحكم، ويُعْتَبر انتقال الإسلام من المغرب إلى الأندلس أهم مظهر من مظاهر التأثير.

وإذا كان لجوء أهل الأندلس للمرابطين أمر طبيعي، فمن صاحب المبادرة؟ وهل كان للمجتمع دور في ذلك؟

---

(3) عبد الله بن بلكين، المصدر السابق، ص ص 75، 76، 101. الحميري، المصدر السابق ، ص288، ابن الكردبوس المصدر السابق، ص89.

(4) الحميري، المصدر السابق 90، ابن عذاري، المصدر السابق، 225/3.

(5) المراكشي، المصدر السابق، 60. ابن الكردبوس، المصدر السابق، 85، عبد الله بن بلكين، المصدر السابق، 76.

(6) كان المغرب الأقصى في القرن(4هـ/10م) ولاية أموية تابعة لقرطبة، فأصبحت الأندلس في (5هـ/11م) ولاية مرابطية تابعة لمراكش، ويصور ليفي بروفنسال العلاقة بين المغرب والأندلس على أنها صراع بين طرفين مختلفين متمايزين لا ينتميان= = لحضارة واحدة، فيرى أن نجدة المرابطين للأندلسيين على أنه انتقام افريقية المسلمة من اسبانيا الإسلامية. أنظر: ليفي بروفنسال، **الحضارة العربية في اسبانيا**، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ط2، (1405 هـ/1985م)، ص30. جمعة شيخة، **الشعر الأندلسي حدوده وأبعاده كمصدر للتاريخ**، المجلة العربية للثقافة، السنة الرابعة عشر، العدد 27، (عدد خاص بالأندلس)، تونس، ربيع الأول1415هـ 1994، ص123.

تباينت الروايات في ذكر صاحب المبادرة، فهناك من يذكر ملوك الطوائف، وهناك من يقصر على ذكر المعتمد بن عباد منهم، أما طرف آخر فيذكر الأعيان والفقهاء من المجتمع.

يورد مؤلف التبيان أن صاحب مبادرة الاستنجاد كان المعتمد بن عباد [1]، ويسير وفق هذه الرواية المراكشي، إذ يرى أن الاستنجاد كان من قِبَل المعتمد[2] لكن هناك مصادر أخرى تُفَصِل أكثر في قضية الاستنجاد، فيورد ابن الكردبوس مشاركة ابن الأفطس للمعتمد في الاستنجاد[3] وذلك بعد أن يذكر استئناس الأندلسيين بالمرابطين [4]، وفي ذلك إشارة لما هو في خُلد الأندلسيين من الاطمئنان والرغبة في الاستنجاد بهم، وما أشار إليه ابن الكردبوس يصرح به الحميري، فبعد أن يذكر أن صاحب المبادرة هو المعتمد، يأتي ليذكر أن يوسف بن تاشفين كانت ترد إليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين مجهشين بالبكاء، ناشدين الله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته، فيستمع إليهم، ويصغي لقولهم، وترق نفسه لهم، فما إن عبرت رسل ابن عباد البحر، إلا ورسل يوسف بالمرصاد[5]، ولم تقتصر هذه الرواية على الحميري، حيث نجدها عند صاحب الحلل فيقول: « وفد عليه جماعة من أهل الأندلس، وشكوا إليه ما حل بهم من أعدائهم، وكان ممن كتب إليه المتوكل بن الأفطس » [6] .

لكن هذه الروايات لم تُفصح عن ذكر الفئة الاجتماعية التي تنتمي إليها الجماعة المستنجدة هل هم من العامة أم من الخاصة؟ ويظهر من خلال الإشارات المتناثرة أنهم من الخاصة، ومن العلماء والفقهاء تحديداً، لأن العوام لم يرقوا إلى مستوى التفكير في إنقاذ البلاد، بدليل أنهم لم يرقوا بأنفسهم من دائرة المهمشين، ولذلك نجد ابن بلكين يصفهم بالسذاجة.

أما العلماء والفقهاء فإنهم أدركوا الخطر الذي تمر به بلادهم، خاصة بعد سقوط طليطلة فكانت لقاءاتهم لا تخلو من مناقشة أوضاع البلاد، فكان لقاؤهم في قرطبة تتويجا لصدور فتاوى علماء الأندلس، كأبي بكر بن العربي[1]، والباجي اللذان يُعدان من رواد فكرة الاستنجاد [2].

---

(1) انتقد عبدالله بن بلكين أمير غرناطة سياسة استنجاد المعتمد بن عباد التي أودت بضياع ملكه وملك غيره من الأمراء ويورد في ذلك بيتا من الشعر يقول:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر ما يجني عليه اجتهاده

أنظر: ابن بلكين، **التبيان**، ص 102.

(2) المراكشي، المصدر السابق ، ص97.

(3) ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص89.

(4) ابن الكردبوس، المصدر السابق ، ص85.

(5) الحميري، المصدر السابق، ص289.

(6) مجهول، المصدر السابق، ص33.

(1) Vincent LAGARDERE ,*Opcit, p220.*

بدا تأثر الأندلسيين واضحاً، وذلك قبل أن تطأ أقدام المرابطين أرض الأندلس، وذلك بسبب ما سمعوه عن المرابطين من قوة وعدل وتمسك بالدين، وإخضاعهم لبلاد المغرب وإصلاح حالها، وهو ما كان وقعه إيجابيا عليهم[3].

أما من جانب السلطة المرابطية، فاستعدادهم كان واضحا للعبور للأندلس ونجدة أهله وخوض غمار جهاد النصارى، ويتجلى ذلك في قول يوسف بن تاشفين: « أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين » [4] ويظهر استعداد المرابطين للعبور في تمركز قواتهم في سواحل سبتة وطنجة .

وخلاصة ما سبق أن عملية الاستنجاد، جاءت بعد أن أدرك الأندلسيون أنه لا نجاة لهم إلا بالاستنجاد، بعد أن استنفذوا كل الوسائل لاسترضاء النصارى، كما أن عملية الاستنجاد لم تكن مقتصرة على فئة معينة، بل ساهمت فيها كل الفئات، عدا فئتين إحداهما جاهلة لم تفكر حتى في نفسها كما ذكرت، والأخرى تنتمي للطبقة الخاصة، من رواد البلاط، كحاشية المعتمد، وابنه[5] ولا يهمها أمر البلاد كما يهمها منصبها وثراؤها، ولو على حساب البلاد والعباد والخضوع للنصارى كما أن المرابطين كانوا عازمين على مواصلة حركتهم الجهادية ويتبين ذلك في قول يوسف بن تاشفين: « إنما كان غرضنا من امتلاك هذه الجزيرة، أن نستنقذها من أيدي الروم، لما رأينا استبدادهم على أكثرها » [6].

2/ انتصار الزلاقة وانعكاساته على المجتمع:

بعد أن أعد يوسف بن تاشفين عدته وأطلق دعوة الجهاد، استنفارًا للناس وإحياءً لضمائرهم فلم يتخلفوا عن ذلك[1]، وجلب معه ما يكفي من الأسلحة والإبل،وكان العبور سنة(479هـ/ 1086م) [2] وهو عبوره الأول إلى بلاد الأندلس، فكيف كان استقبال أهلها له ؟

---

(2) حسن محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص267.أنظر: بلغيث، **الحياة الفكرية**، ص67. محمد زنيبر، **التبادل الثقافي** بين **الأندلس والمغرب، وأثره** في **التطور العلمي بالبلدين**، ، مجلةكلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، العدد16، 1991، ص33.

(3) ابن الكردبوس، المصدر السابق ، ص85.

(4) المراكشي، المصدر السابق ، ص98.

(5) مجهول، المصدر السابق، ص44.

(6) المراكشي، المصدر السابق، ص122.

(1) يروي عبد الواحد المراكشي في معجبه أنه اجتمع ليوسف بن تاشفين حوالي سبعة آلاف فارس، أنظر: المراكشي، المصدر السابق، ص98. بينما يروي صاحب الحلل أنه اجتمع له اثني عشر ألف فارس. أنظر:مجهول، المصدر السابق،ص 38

(2) المراكشي، المصدر السابق ، ص97. مجهول، المصدر السابق، ص38.

يصف الحميري هذا الاستقبال قائلاً:« ثم عبر يوسف البحر عبورا هينا، حتى أتى الجزيرة الخضراء ففتحوا له، وخرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات، ورأى الناس من عزة سلطانه ما سرّهم »[3]، ويبين ذلك تشوق أهل الأندلس لرؤية يوسف بن تاشفين، فهو أَمَلُهُمْ لإنقاذهم من ظلم ملوكهم وتحرش أعدائهم، فاحتفاء أهل الأندلس كان حقيقة، ولم يكن تصنعا مثلما قام به ملوك الطوائف، في تقديمهم الهدايا والتحف والذخائر الملوكية [4]ودليل التصنع سيرتم التي ميزها الطمع والتنافس في جمع الأموال، وذلك على حساب عامة الـتمع فهل يُعقل أن تتبدل أحوالهم بين عشية وضحاها، كما أنه لا يُعقل لمن هم متنافسون على الملك أن يرضوا بدخول قوة جديدة تنازعهم ملكهم، حتى إن بعضهم كان يرفض استقدام المرابطين [5]

وقبل أن تكون أي مواجهة مع العدو، رأى يوسف بن تاشفين أن يخطو خطوة أساسية لتحقيق النصر، وذلك بمحاولة تأليف قلوب ملوك الطوائف المتفرقة في الأندلس، فتنقل إلى إشبيلية ولقي في طريقه ملوك الأندلس، كصاحب غرناطة عبد الله بن بلكين، وصاحب بلنسية أبي بكر بن عبد العزيز، فلم يبق من ملوك الأندلس إلا من بادر وأعان وأخرج [6]، وأرسل يوسف إلى بقية الملوك، على أن يكون لقاءهم في بطليوس، فكان له ذلك[7].

تمكن ابن تاشفين من جمع شتات الأمراء، إذ لم يعرفوا قبل ذلك تجمعاً يتحدون فيه، إذ كان كل واحد منهم لا يهمه سوى أمر إمارته، أو بالأحرى مصالحه الخاصة، وكان لهذا الجمع أثر في قلوب الأندلسيين ودلالة على قوة المرابطين وعزمهم على تغيير الأوضاع، الأمر الذي أدى إلى إقبال هؤلاء على التطوع في صفوف الجيش ضد قوات النصارى. وفي هذا تأكيد لنظرية التأثر بالقوي[1]

وفي مقابل ذلك تبين لهم حقيقة ضعف أمرائهم، مما يؤدي إلى فتور الروابط فيما بينهم وظهور الحاجة إلى سلطة جديدة، تتميز بالقوة وتقوم على مصالح الرعية، ويدل على هذا الشعور النفسي للمجتمع ما رآه من ملوك الطوائف، وعلى إثر ذلك تعاقدوا مع ابن تاشفين على أن لا يفسد الرعية عليهم، ويورد صاحب التبيان ذلك في قوله: « وعاقدنا أمير المسلمين على أن تتصل الأيدي

---

(3) الحميري، الروض المعطار، ص289.

(4) الحميري، المصدر السابق، ص289. المراكشي، المصدر السابق، ص98. مجهول، المصدر السابق، ص52. عبد الله بن بلكين، المصدر السابق، ص104.

(5) الحميري، المصدر السابق، ص288. مجهول، المصدر السابق ، ص44. عبد الله بن بلكين، المصدر السابق، ص 102.

(6) الحميري، المصدر السابق ، ص289. المراكشي، المصدر السابق، ص99.

(7) الحميري، المصدر السابق ، ص290. عبد الله بن بلكين، المصدر السابق ، ص 104. مجهول، المصدر السابق، ص53 . ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص92.

(1) ابن خلدون، **المقدمة**، ص159.

على غزو العدو، وألا يعرض لأحدنا في بلده ولا يقبل عليه رعيته يروم الفساد »[2] يبين هذا العقد توجس ملوك الطوائف من أن ينقلب عليهم ابن تاشفين ورعاياهم، لما لوحظ من إعجاب الرعية بالمرابطين.

كما شمل هذا العقد دعوة من ابن تاشفين لملوك الطوائف للوحدة، وأن يعملوا لدفع العدو لا لأن يتعرض بعضهم لبعض، وفي ذلك دحض لبعض الروايات التي تصور المرابطين أنم لم تحركهم سوى أطماعهم [3].

إن ما حققه يوسف بن تاشفين من جمع شمل الأندلسيين، وتوحيد صفوفهم، جعل الفونسو يضطر إلى رفع الحصار الذي كان قد ضربه على سرقسطة[4]، ويتراجع ليستنصر بالقوى النصرانية من كل أرجاء أوروبا، وساهمت الكنيسة في شحذ همم النصارى [5]ويذكر صاحب الحلل أنه اجتمع له حوالي ثمانين ألفا من المقاتلين، بينما لم يجتمع للمسلمين سوى خمسين ألفا [6]. وفي يوم الجمعة الثالث عشر من رمضان سنة (479هـ/1086)[7]، التقى الطرفان بموقع الزلاقة [8] وأبلى المسلمون بلاءً حسنا حتى النصر، وذلك رغم قوات النصارى التي تفوق قوات المسلمين عدداً وعدة [9]، وهو مازاد أهل الأندلس تعلقاً بيوسف بن تاشفين وغيره من المرابطين، ويصف لنا المراكشي هذه الحالة قائلا : « فسُرّ بم أهل الأندلس، وأظهروا التيمن بأمير المسلمين، والتبرك به وكثُر الدعاء له في المساجد وعلى المنابر، وانتشر له الثناء بجزيرة الأندلس، ما زاده طمعا فيها، وذلك أن الأندلس كانت قبلة بصدد التلاف، من استيلاء النصارى عليها وأخذه الاتاوات من ملوكها، فلما قهر الله العدو، وهزمه على يد أمير المسلمين، أظهر الناس إعظامه ونشأ له الود في الصدور» [1] فكان لهذا الانتصار صدى واسع بين الاندلسيين، وتغنى با الشعراء وظهر ما يسمى بأدب الزلاقة[2]

---

(2) ابن بلكين، المصدر السابق ، ص103.

(3) المراكشي، المصدر السابق ، ص98 وما يليها.

(4) ابن الكردبوس، المصدر السابق ، ص91

(5) ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص91 . الحميري، المصدر السابق ، ص289.

(6) مجهول، المصدر السابق، ص56.

(7) الحميري، المصدر السابق ، ص288، مجهول، المصدر السابق، ص59

(8) الزلاقة بطحاء من إقليم بطليوس، من غرب الأندلس، أنظر: الحميري، المصدر السابق ،ص288. أنظر الخريطةرقم 2 ص155.

(9) الحميري، المصدر السابق، ص291، المراكشي، المصدر السابق ، ص100.

(1) المراكشي، المصدر السابق، ص101.

(2) بلغيث، المرجع السابق، ص73.

ولم يكن صدى الزلاقة في أرض الأندلس فحسب، بل انتشر في كامل أرجاء العالم الإسلامي مغربه ومشرقه، ووصلت التهاني لأمير المسلمين من العلماء والأمراء مباركين انتصاره، في وقت تراجعت فيه شوكة الإسلام بسبب الضعف الداخلي والتحرش الخارجي، وشُبهت الزلاقة بالمعارك الكبرى للإسلام[3]ويعترف بعض الغربيين بأن انتصار المرابطين في الزلاقة أجّل سقوط الأندلس[4].

وبدأت تتألف قلوب أفراد المجتمع على المرابطين، الذين أنقذوهم من ضياع أكيد، ويعتبر ذلك من المقدمات التي مهدت الطريق للمرابطين لبسط نفوذهم في الأندلس، لكن قبل ذلك نجد يوسف بن تاشفين يحث هؤلاء الأمراء على ضرورة التوحد لمواجهة الخطر، ونبذ الخلاف لأنه سبب البلاء وهو بذلك يمنحهم فرصة لعلهم يتحدون لحماية بلادهم، وبقائها تحت أيديهم، ومن جهة أخرى يتخذ الأسباب الكافية حتى يجد مبررا للتدخل الرسمي، وهو ما حدث فعلا حيث زاد التنافس والصراع بينهم، ويعترف ابن بلكين بذلك في قوله: « ورأى من تشتتنا أنه لا مشقة تكون عليه في أخذ بعضنا ببعض متى شاء »[5]وبعد ما حققه المرابطون من انتصار على العدو الخارجي، تبدأ مرحلة جديدة لسياسة المرابطين في بناء علاقتهم بالمجتمع، ويبدءوا بذلك خطوة أساسية تتمثل في تخليصه من جور أمرائهم.

3/ قضاء المرابطين على أمراء الطوائف:

عرف المجتمع طيلة حكم أمراء الطوائف كل مظاهر الظلم والاستبداد، انتهت بخضوع بعض البلاد للنصارى، وكان المجتمع يَدفع الاتاوات التي يتقرب با هؤلاء الأمراء لملوك النصارى، كما يتحمل المجتمع أعباء تَنَعّم أمرائه، حتى تدهورت حالهم، وضَعُفت العلاقة بينهما، ويصف ابن الكردبوس هذه العلاقة بعد عودة يوسف بن تاشفين إلى المغرب « وترك أهل الأندلس مع رؤسائهم في غاية الاختلاف، وقد مالت نفوسهم إلى أمير المسلمين، لما رأوا عنده من العدل والشهامة والإنصاف »[1] .

لقد ازدادت الأوضاع سوءً في كل الجوانب ، ففي الجانب العسكري لم تتمكن الحامية التي تركها الأمير يوسف بقيادة سير بن أبي بكر من صد تحرشات النصارى في جهة الغرب ، كما لم

---

(3) مجهول، المصدر السابق، ص66.

(4) أنظر: ستانوود كب، **المسلمون** في **تاريخ الحضارة**، ترجمة محمد فتحي عثمان، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1 (1406ه/ 1982م)، الجزائر.

(5) ابن بلكين، المصدر السابق، ص102.

(1) ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص96 .

تتمكن قوات المعتمد بن عباد من ذلك في جهة الشرق، وحاول ألفونسو محو عار الهزيمة التي لحقت به في الزلاقة، فتحالفت قواته مع القشتاليين والمتطوعين من أوربا، وعاثوا في البلاد فسادا[2] ويصف ابن الكردبوس ذلك في قوله: « وفي هذا العام استحكم طمع أصناف النصارى على الجزيرة، فضيق غرسيه [3] على المرية وحاصر البرهانس [4] مرسية والقمبيطور [5]شاطبة [6] » [7] .

وفي ظل هذه الظروف جاءت مراسلة سير بن أبي بكر للأمير يوسف يستنجده، ويقول له واصفاً حال البلاد بعد رحيله عنها : « إن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو، وملازمة الحرب والقتال في أضيق عيش و أنكده، وملوك الأندلس في بلادهم وأهليهم في أرعن عيش وأطيبه»[8] وعلى اثر ذلك جاز يوسف للأندلس للمرة الثانية [9].

وعلى الرغم من محاولات الأمير يوسف في توحيد الأمراء إلا أنه لاحظ عند عودته الخلاف واضحاً بينهم[10]، ولكنه لم ييأس، فكتب لهؤلاء الملوك يستنهض هممهم، ويقوي عزائمهم ضد النصارى الموجودين في شرق الأندلس، وكانت وجهته هذه المرة حصن لييط [11]، وتوافدت قوات الطوائف لمحاصرة الحصن [1]، واستمر ذلك شهرًا [2] حتى يئس المحاصرون من استماتة المحاصرين وصبرهم وتحصنهم.

ويصور عبد الله بن بلكين وضع ملوك الطوائف، أثناء الحصار فيقول: « طالت تلك الحملة الملعونة فكأننا مئلق أبان الطيب من الخبيث، وكشف العورات، فلم يزدد الرؤساء إلا توحشاً

---

(2) ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص96 .

(3) غرسية خيمينيس، أحد قادة الفونسو السادس، احتل قلعة لييط، أنظر: تعريف العبادي، تاريخ بن الكردبوس، ص100.

(4) البرهانس أحد قادة ألفونسو السادس، حكم طليطلة قتل سنة(508هـ/1114م).أنظر، العبادي، المصدر السابق، ص122

(5) القمبيطور أو الكبيطور، عُرف بالسيد، هو لذريق قائد قشتالي، استولى على بلنسية وسرقسطة، عظم بلاؤه على الناس وقتل القاضي ابن جحاف شرّ قتلة، أنظر: ابن عذاري، المصدر السابق، 4/ 31، 39

(6) شاطبة مدينة حسنة ولها قصاب، يُضرب بها المثل في الحسن والمنعة، ومنها إلى دانية خمسة وعشرون ميلا، ومن شاطبة إلى بلنسية اثنان وثلاثون ميلا، وبها يعمل الكاغد. أنظر: الأدريسي، المصدر السابق، ص281.

(7) ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص99 وما يليها.

(8) المقري، المصدر السابق، 140/6.

(9) مجهول، المصدر السابق، ص67.

(10) ابن بلكين، المصدر السابق، ص106. المراكشي، المصدر السابق ، ص101.

(11) لييط حصن حصين، على رأس جبل شاهق، بينه وبين لورقة نصف يوم. أنظر : المصدر السابق، ص67.

(1) ابن بلكين، المصدر السابق، ص108. مجهول، المصدر السابق، ص68.

(2) مجهول، المصدر السابق، ص69.

والرعية إلا تسلطاً، ولا الداخلون على هذه النصبة إلا طمعا، وحق لهم مع اختلاف كلمة الرؤساء وكانت مقدمات سوء وزمان على السلاطين عسير، وسعداً للمرابطين مقتبلاً » [3]، ومن هذا النص يتبين سبًبا أساسياً من أسباب فشل الحصار، وذلك رغم الأجناد والإعدادات، ألا وهو الخلاف القائم بين هؤلاء الملوك، فكان الحصار يحتاج إلى قوة صبر واتحاد، لكن خلافاتم طغت في ساحة المعركة على مرأى من الأمير يوسف، وهو ما جعله يقول لهم أصلحوا نياتكم تكفوا عدوكم.

لكن إرادة الإصلاح لم تكن حاضرة، فكثرت الوشايات للأمير يوسف كل طرف يريد الإطاحة بغريمه ومنافسه، فصاحب غرناطة ابن بلكين في صراع مع أخيه تميم صاحب مالقة يشتكيان بعضهما البعض للأمير يوسف [4]، أما المعتمد بن عباد فبعد أن أصلح الأمير ما بينه وبين ابن رشيق [5]ظهر صراعه مع المعتصم بن صمادح صاحب المرية [6] .

إلى جانب هذا الصراع، توافدت الرعية على يوسف متظلمة وشاكية من سوء أحوالها بسبب أمرائها فكان ينصت لهم، ويؤيد ما يطلبونه، من إصلاح للأوضاع وإبطالٍ للمكوس، وأدرك أنه بين أمرين إما أن يترك البلاد على حالها فيستشري داؤها، وينتهي أمرها، أو أن يقوم بتخليص البلاد والعباد من هؤلاء الأمراء باستئصالهم والقضاء عليهم [7].

واستمر توافد الرعية على الأمير، وجعلوا في شكاويهم الفقهاء وسائط، ويصور ابن بسام ذلك في قوله: « ولم يزل إدبارهم على ما ذكرت يستشري، وعقارب بعضهم على بعض تدب وتسري، حتى أذن الله لأمير المسلمين رحمه الله في إفساد سعيهم، والانتصار لكواف المسلمين من فعلهم الذميم فجعلت البلاد عليه تنثال والمنابر باسمه تزهو وتختال، واستمر ينثر نجومهم، ويطمس رسومهم » [1] .

وساهم الفقهاء في إضفاء الصورة الشرعية في عزله لملوك الطوائف، ودعوا إلى وجوب طاعة الأمير، فطاعته من طاعة الإمام ومخالفته من مخالفة الإمام، وكل تمرد حكمه حكم الباغين [2]وإثر ذلك شرع يوسف في حملته على ملوك الطوائف، الواحد تلو الآخر، حيث أزاح تميماً عن مالقة

---

(3) ابن بلكين، المصدر السابق، ص110.

(4) ابن بلكين، المصدر السابق، ص106.

(5) المراكشي، المصدر السابق، ص99. مجهول، المصدر السابق، ص70.

(6) المراكشي، المصدر السابق، ص99. مجهول، المصدر السابق، ص70.

(7) حسن محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص297.

(1) ابن بسام، **الذخيرة**، 58/3.

(2) ابن العربي، **رسائل ابن العربي**، ص ص 197، 198.أنظر: Vincent LAGARDERE *,Opcit,p 220*.

وأخاه عبد الله عن غرناطة، ونفاهما إلى أغمات سنة(483هـ/1090م) [3] ثم خلع بقية الأمراء، ولم يترك إلا ابن هود صاحب سرقسطة [4]، وتولى هذه العملية قيادات الجيش، فخلع الأمير "سير" المعتمد بن عباد من اشبيلية، وخلع ابن الأفطس من بطليوس، واستولى على ملك غرب الأندلس، أما شرق الأندلس فتولى أمره محمد بن عائشة، فأخذ المرية ودانية [5] وشاطبة [6] واستولى على قرطبة [7]

وتمّ للمرابطين بسط نفوذهم على جل الأراضي الأندلسية[8]، وإنهاء عهد ملوك الطوائف ولعل سقوط ملوك الطوائف دون جُهد كبير لدليل قاطع على هشاشة ملكهم، وضعف تمسك المجتمع بهم، وهذا مالا يتناسب مع حُكم بلاد إسلامية ثغرية، تَقْرُبُ النصارى موقعاً أكثر من قربها لبلاد الإسلام، بل على العكس من ذلك تماما، فهذه البلاد تتطلب سلطة قوية، تُوَحِد أفراد مجتمعها وتحميهم من أي خطر، فهل حققت السلطة المرابطية هذه السياسة؟ وكيف كان تنظيمها لبلاد الأندلس؟ وما مدى التوافق بين السلطة المرابطية والمجتمع ؟ تتم الإجابة على هذه الأسئلة من خلال تتبع السياسة المرابطية في حكم الأندلس .

4/ التنظيم الإداري والسياسي للأندلس:

بعد أن كان المغرب الأقصى جزءاً تابعا للأمويين في الأندلس، تبعية سياسية أيام ضعفه وقوة الأمويين، بدأت موازين القوى تختل،حيث آلت بلاد الأندلس إلى الضعف،وأصبح شيئا فشيئًا خاضعاً لسلطة المرابطين في المغرب.

وأولت السلطة المرابطية ولاية الأندلس مكانة هامة، يظهر ذلك من تعيين أمير المسلمين لأحد أبنائه، أو ولي عهده على رأس هذه الولاية [1] وتكليفه بإدارتها ويتولى تعيين ولاة على مختلف المدن الأندلسية، ويختارون من البيت اللمتوني ، أما نظام الحكم فلم يكن مركزيا، بل شبه مستقل

---

(3) مجهول، المصدر السابق، ص71.

(4) مجهول، المصدر السابق، ص73.

(5) دانية مدينة على البحر عامرة حسنة، لها ربض عامر، وعليها سور حصين، ولها قصبة منيعة جدا، وهي دار لصناعة السفن وتبحر السفن منها وترسوا فيها، وإلى الجنوب منها جبل عظيم مستدير. أنظر: الإدريسي، المصدر السابق، ص282.

(6) ابن الكردبوس، المصدر السابق ، ص107.

(7) ابن خاقان، **قلائـد العقيـان**، ص22.

(8) أنظر خريطة أقصى توسع للمرابطين في الأندلس رقم 2، ص155.

(1) مجهول، **الحلل الموشية**، ص78. أنظر: دندش، **الأندلس** في **نهاية المرابطين ومستهل الموحدين**، ص123. السامرائي، عبد الحميد حسين أحمد، **تاريخ حضارة المغرب والأندلس** في **عهد المرابطين والموحدين**، دار شموع الثقافة، الطبعة الأولى،2002 ليبيا، ص 153. Vincent LAGARDERE ,*Opcit, p13*

فنائب أمير المسلمين مطلق السلطة، واكتفى الأمير بالوصية على ضرورة الإدارة الحسنة لشؤون المسلمين [2] وكان هذا النائب في الغالب يتخذ من غرناطة أو قرطبة أو اشبيلية مقرًا لحكمه[3].

ومن الأسماء المرابطية التي تولت منصب"الوالي العام"، سير بن أبي بكر وتميم بن يوسف [4] وتاشفين بن علي[5]وتولى هؤلاء النواب تعزيز الناحية الأمنية، والسهر على حراسة الثغور ويساعدهم في ذلك ولاة الأقاليم والمدن وقد عرفت بلاد الأندلس عددًا معتبرا منهم.

إلا أنم كانوا يخضعون للتحويلات المستمرة من إقليم لآخر من طرف الأمراء، باستثناء بعض الولاة الذين استقروا في مناطقهم،ومن أشهرهم سير بن أبي بكر الذي استقر في اشبيلية مدة ثلاثة وعشرين عاما[6] ومن الأمثلة على سياسة العزل ما تعرضت له كثير من الأسماء ومنها:موسى ابن الحاج والي غرناطة الذي عزله الأمير يوسف سنة(499هـ/1105م)وولى مكانه أبا بكر بن إبراهيم[7]وعزله "لينالة"والي قرطبة، بعد أن ثبت عليه ظلمه وجوره،ويصف ابن عذاري عزله بقوله:«وفرج الله بعزلة ينالة عن المسلمين الغمة،وانفرجت الضيقة بالأندلس»[8]وكانت سياسة العزل والتحويل تدف إلى تحقيق عدة أهداف منها قطع الطريق أمام كل من تسوّل له نفسه الانقلاب أو التمرد، وأتبع هذه السياسة أيضا في تحويلاته لقادة الجند، حتى لا يستبد القائد بالأمر وهناك احتمال آخر يتمثل في توزيع الولاة على المدن الأندلسية يكون حسب الكفاءة التي تتطلبها المدينة فإدارة مدينة كبيرة مثل اشبيلية أو غرناطة تتطلب واليا قادرا على تسيير شؤونا وإدارة مدينة ثغرية ليس

كمدينة داخلية، وهكذا كان توزيع الولاة[1] .

ولم تقتصر هذه السياسة على عهد الأمير يوسف، بل نجدها أيضا في عهد ابنه علي، فحين اجتاز إلى الأندلس ولى أخاه تميما الذي عزله فيما بعد سنة(504هـ/1110م)ونقله إلى تلمسان، وتولى مزدلي غرناطة ثم قرطبة ثم المرية حتى توفي سنة(508هـ/1114م)، فعين عليٌ ولديه عبد الله ومحمداً على

---

(2) ابن خاقان، المصدر السابق، ص125، مجهول، المصدر السابق، ص79.

(3) ابن عذاري، المصدر السابق، 87/4. دندش ، المرجع السابق، ص123.

(4) مجهول، المصدر السابق، ص93.

(5) ابن الخطيب، **الإحاطة**، 446/1. ابن عذاري، المصدر السابق ، 79/4.

(6) ابن عذاري، المصدر السابق، 105/4.

(7) ابن عذاري، المصدر السابق، 45/4.

(8) ابن عذاري، المصدر السابق، ص75.

(1) أنظر مثلاً الأسماء التي تولت منصب الوالي باشبيلية، ملحق رقم1، ص150.

غرناطة وقرطبة، واستشهد محمد وهو يحارب القشتاليين في السنة التالية، وقُتِلَ معه محمد بن الحاج صاحب سرقسطة، وابن دانية وثمانون شخصا من المرابطين، وكثير من جند المرتزقة [2].

تمتع ولاة السلطة المرابطية بنفوذ واسع في تسيير شؤون ولاياتم، ومن الأمثلة على ذلك تعيين القضاة وعزلهم، فقد رُوي عن الأمير سير بن أبي بكر نقل القاضي ابن شبرين[3] إلى قضاء اشبيلية، وكانت تُعقد للوالي القيادة العليا للجيوش المرابطية بالأندلس حتى تستمر حركة الجهاد ويكون أغلب أعوانه من رجال الحرب [4].

عرف الجيل الأول من أمراء السلطة المرابطية وولاتا، اهتماما واضحا بشؤون أهل الأندلس يظهر ذلك من وصايا الأمير يوسف وابنه علياً للقائمين عليها، ومن ذلك ما أورده ابن خاقان في قوله على لسان ابن تاشفين: « عهدنا إلى عمالنا عصمهم الله بالتزام الحق، وإيثار أسباب الرفق، لما نرجوه في ذلك من الصلاح الشامل، والخير العاجل والآجل، والله تعالى ييسرنا لما يرضيه من قول وعمل فاتخذ الحق إمامك ومِّلكْهُ زِمَامَكَ، واجرِ عليه في القوي والضعيف أحكامك، وارفع لدعوة المظلوم حجابك، ولا تسد في وجه المضطهد المظلوم بابك،ووطئ للرعية أكنافك، وابذل لها إنصافك واستعمل عليها من يرفق با ويعدل فيها، وأطرح كل من يحيف ويؤذيها، ومن سبب عليها من عمالك زيادة،أو غيّر رسماً أو بدّل حكماً، أو أخذ لنفسه منها درهماً ظلماً، فاعزله عن عمله، وعاقبه في َبَدَنِهِ وألزمه رد ما أخذ، واجعله نكالا لغيره، حتى لا ُيقدم منهم أحد على مثله فعلة » واتبعه ابنه عليا في وصية الولاة بالرعية، في قوله لابنه تاشفين حين أضاف له قرطبة، لما رأى منه حسن إدارة غرناطة والمرية :« وعلى مقدار ما زدناك من العمل فازدد من التيقظ، واستعن بالله في إعلانك وإسرارك، وخذ من أوقات ليلك لأوقات نارك، واستظهر بحسن المشورة في مواطن الاشتباه » [1].

يتبين من هذا النص، السياسة الداخلية التي رسمها الأمير يوسف لنوابه وولاته، وركّز في وصيته هذه على جانب العلاقة والتعامل بين ممثلي السلطة والمتمع، فمن أهم ما أوصى به التأكيد على حسن السيرة، بإقامة العدل وإبطال الظلم، وإتباع الحق والرفق، ومعاقبة وعزل كل من يخالف ذلك، فكان ولاة الجيل الأول يسهرون على إقامة الحدود، وتنفيذ أحكام الدين، والاعتماد على

---

(2) إحسان عباس، **تاريخ الأدب الأندلسي**، ص 88.

(3) هو محمد بن عبد الرحمن بن شبرين من أهل مرجيق، من الغرب، يكنى أبا عبد الله، أخذ عن القاضي أبي الوليد الباجي عالماً بالأصول والفروع، واستقضي باشبيلية، وحمدت سيرته، ولم يزل يتولى با إلى أن توفي سنة 503هـ.أنظر : ابن بشكوال، **الصلـة**، ص445.الضبي، **بغيـة الملتمس**، ص94.

(4) السامرائي، **حضارة المغرب والأندلس**، ص156.

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، 87/4.

الفقهاء في ذلك، كما كانت السلطة العليا في مراكش تتابع أحوال أهل الأندلس وسيرة الولاة فيهم ويظهر ذلك في الزيارات الميدانية التي يقوم بها الأمراء للجزيرة من حين لآخر، ومن هذه الزيارات ما قام به الأمير علي سنة(500هـ /1106م) حيث قام بتفقد أحوال الأندلس وأهلها [2] وأكد على تعزيز الناحية الأمنية، وحراسة الثغور، ومما يدل على ذلك أنه لما وقعت حادثة الرنيسول[3]سنة(519هـ/ 1125م)[4]حين نقض نصارى غرناطة العهد، بمكاتبة ألفونسو المحارب، ودلّه على ثغرات البلاد فقام بالنهب والتخريب، في شرق الأندلس وجنوبا، فاستنجد تميم بالأمير علي، فكتب إلى عماله يأمرهم بأن يعملوا على إصلاح مراكز الدفاع، في المدن الكبرى وتحصينها، وعزل تميما لقلة خبرته، وولى مكانه عينعلو على غرناطة،وعمر بن سير على قرطبة، وبدأت عملية إصلاح الأسوار والحصون وساهم في ذلك أهل قرطبة واشبيلية والمرية[5].

لقد تباين أداء الولاة الملثمين في إدارتهم لشؤون الأندلس، فإذا كنا قد تكلمنا عن عزل تميم عن غرناطة، فإن ولاية تاشفين بن علي كانت قد لقيت قُبولاً من المجتمع الأندلسي لحسن سيرته وسياسته، فقد وُلي غرناطة والمرية وقرطبة، ويذكر ابن عذاري أنه كان شجاعاً بطلاً مستقيماً، لم يشرب ولم يستمع إلى قينة، ولم يله بصيد، كانت له انتصارات على النصارى، نظر في مصالح قرطبة فأحبه أهلها خواصها وعوامها، فبُعد صيته، وعلا ذكره بسياسته[6] .

ومن أهم المسؤوليات التي كانت تمثل سياسة السلطة في المجتمع، خطة القضاء، ولذلك أولى الأمراء عناية في اختيار القضاة، وتوجيههم للحكم بالعدل، ومن ذلك وصية أمير المسلمين، لقاضي الجماعة ابن حمدين [1]، جاء فيها: « ولا تبال برغم راغم، ولا تشفق من ملامة لائم، فآس بين الناس في جهدك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع قوي في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك، ولا يكن عندك أقوى من الضعيف، حتى تأخذ الحق له، ولا أضعف من القوي حتى تأخذ الحق منه، وأنصح لله تعالى ولرسوله عليه السلام، ولنا ولجماعة المسلمين، وقد عهدنا لجماعة المرابطين أن يسلموا لك

---

(2) مجهول، المصدر السابق، ص85.

(3) الرينسول أو أرونسول فحص من فحوص غرناطة. أنظر: ابن الخطيب، **الإحاطة**، 111/1.مجهول، المصدر السابق ص95.

(4) ابن عذاري، المرجع السابق، 69/4. مجهول، المرجع السابق، ص ص90، 91. ابن الخطيب، المرجع السابق، 111/1.

(5) ابن عذاري، المصدر السابق، 69/4.

(6) ابن عذاري، المصدر السابق، 79/4. ابن الخطيب، المصدر السابق، 456/1.

(1) أحمد بن محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي(472هـ-521هـ) قاضي الجماعة بقرطبة، يكنى أبا القاسم، أخذ عن أبيه وتفقه عنده ، وسمع من أبي عبد الله محمد بن فرج الفقيه، وأبي علي الغساني، تقلد القضاء بقرطبة مرتين، وكان نافذاً في أحكامه، جزلاً في أفعاله، لم يزل يتولى القضاء إلى أن توفي.أنظر: ابن سعيد، **المُغرب** في **حلي المغرب** 162/1. ابن بشكوال، **الصلة**، ص79.

في كل حق تمضيه، ولا يعترضوا عليك فيما تقضيه »[2] ونستشف من هذه الوصية أن أمير المسلمين أراد من خلالها أن تكون السلطة القضائية مستقلة، عن السلطة الحاكمة وعن تأثير ذوي النفوذ.

5/ السياسة الاقتصادية للسلطة:

انعكست الأوضاع السياسية في عصر الطوائف سلباً على الاقتصاد الأندلسي، بسبب الانشغال بالصراعات بدل الإنتاج، وكثرة الضرائب التي دفعت للخمول، إضافة للخطر الأجنبي من الإمارات المسيحية، فكان من نتائجه قلة الأمن، ولعلّ أهم ما ميز عصر الطوائف كثرة الضرائب .

ومن المغارم والضرائب التي فرضها ملوك الطوائف ضريبة المعونة[3]وهي ضريبة تفرض من حين لآخر على من يشاءوا، أما المكوس فتشمل التجارة المارة من مدينة إلى أخرى ومن إقليم لآخر، بالإضافة إلى مغارم الإقطاع[4]التي يفرضها ملوك الإقطاع تنمية لثرواتم، وتحقيقا لرغباتم وهناك المتقبل الذي وصفه ابن عبدون بشر خلق الله الذي خُلِق لضرر المسلمين لا للنفع [5] .

استمر وضع الأندلس على هذا الحال حتى مجيء المرابطين، فعملوا في سياستهم المالية على تخليص التمع من هذه الأعباء المالية، وإبطال الظلم الواقع عليه، وكان لذلك أثر كبير في نفوس التمع الذي تفاءل خيراً بذه السلطة، التي لم تفرض على الناس إلا ما جاء به الكتاب والسنة من

زكاة وأعشار المسلمين وجزية أهل الذمة، وأخماس غنائم المشركين[1].

لكن ما تجدر الإشارة إلى ذكره هو أن هذه السياسة كانت في عهد الجيل الأول من مسئولي السلطة المرابطية، ومن مظاهر هذه السياسة إعادة الممتلكات التي اغتصبها ملوك الطوائف إلى أهلها ومثال ذلك إعادة ممتلكات أسرة ابن زهر التي نبها بنو عباد، فأعاد لها الأمير يوسف ممتلكاتا وثرواتا[2]، إلا أن السياسة المالية لم تعرف استقراراً، فما نقوله الآن يتعلق ببداية الحكم المرابطي للأندلس، أما في آخر عهد الدولة، فقد تغيرت هذه السياسة، ولعل من العوامل التي ساهمت في تغيرها، تقلبات الأوضاع التي عرفتها الدولة، وعدم استقرار مواردها المالية، ولكن هذه العوامل

---

(2) ابن بسام، الذخيرة، 160/2، 161 .

(3) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 100.

(4) ابن بلكين، المصدر السابق ، ص109.

(5) ابن عبدون، المصدر السابق، ص30.

(1) ابن بلكين، المصدر السابق، ص120.

(2) كمال السيد، **دراسات أندلسية**، ص35.

ساهمت فيها الدولة عند رسمها لسياستها المالية ولذلك لا يوجد أي مبرر لحمل الرعية على دفع مزيد من الأعباء، وذلك مما ساهم في نفور الـتمع من السلطة في مرحلة الجيل الثاني من المسئولين[3].

إن البحث في المصادر حول الوضع الاقتصادي والاجتماعي يعطينا صورة مشرقة عن الأندلس في المرحلة الأولى من الحكم المرابطي، فهناك نوع من الحركة الاقتصادية والتحسن في الوضع الاجتماعي ويربط ابن زرع ذلك بسياسة المرابطين في قوله: « كانت لمتونة أهل ديانة ونية صادقة وصحة مذهب ملكوا بالأندلس فلم يجر في عملهم طول أيامهم رسم مكس، ولا معونة ولا خراج في بادية أو حاضرة وكانت أيامهم دعة ورفاهية، ورخاءً متصلاً وعافية وأمن، تناهى القمح في أيامهم إلى أن يِبع أربعة أوسق بنصف مثقال، والثمار ثمانية أوسق بنصف مثقال، وكثُرت الخيرات في بلادهم، وعمرت ووقعت الغبطة »[4] .

إذاً هذه صورة عن تحسن في الوضع الاقتصادي والاجتماعي، ربطها ابن أبي زرع بقلة المكوس والعامل الآخر الذي لا يقل أهمية هو انتشار الأمن، إضافة إلى اتساع مساحة الدولة، وزيادة مداخيلها، هذه العوامل ساهمت في تنشيط التجارة، من السنغال جنوبا إلى الأندلس شمالا إلا أن وصف ابن أبي زرع ينطبق فقط على عهد يوسف بن تاشفين، لا على غيره من الأمراء؛ ويدعم رأيه ابن خلدون حينما يستعرض جملة من الجبايات التي انتشرت في العالم الإسلامي ودورها في إضعاف الاقتصاد، ثم يبين دور الأمير يوسف في الأندلس فيقول :« وكذلك وقع بالأندلس لعهد الطوائف

حتى محا رسمه يوسف بن تاشفين أمير المرابطين »[1]

وهناك من يدعم هذه الآراء من الرحالة والجغرافيين،الذين وصفوا أحوال أهل الأندلس في عصر المرابطين، وأجمع هؤلاء على ُيسرها، فيصف الإدريسي مدينة المرية قائلا: « كانت في أيام الملثم مدينة الإسلام، وكان به من كل الصناعات، وذلك أنه كان با من طرز الحرير ثمانمائة طراز ُيعمل با الحلل[2]والديباج[3]والسقلاطون[4] والاصبهاني والجرجاني[5] والستور المكللة[6] وصنوف أنواع الحرير»[7].

---

(3) سيأتي تفصيل هذه العلاقة في المبحث الثاني من هذا الفصل.

(4) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص167.

(1) ابن خلدون، **المقدمـة**، ص285.

(2) الحلل نسيج حريري اختصت المرية بصناعته، وكان هذا النسيج يحلى بخيوط ذهبية، ولذلك عرف هذا النوع من المنسوجات بالحلل الموشية، أنظر: عبد العزيز سالم، **تاريخ مدينة المرية**، ص157 .

(3) الديباج من المنسوجات الحريرية السميكة، وكان معروفاً في المشرق، وتدخل في نسجه خيوط الذهب، أنظر: عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص157 .

ومن الصناعات التي عرفت رواجاً في عصر المرابطين، صناعة الحلي والمعادن لوفرة المادة الأولية كالذهب والفضة والزئبق والرصاص والنحاس والقصدير والحديد[8].

إلى جانب هذه الحركة الصناعية، نجد نشاطاً تجارياً ساهم في تحسين الأوضاع، خاصة تجارة القوافل التي أثرت المدن الأندلسية، فأصبحت بعضها مراكز تجارية، وازدهرت الحياة بها فكانت الأندلس منطقة عبور بين أوروبا وإفريقيا إلى المشرق، وانطلقت من سواحلها أنواع السلع بين العالمين الإسلامي والمسيحي، فساهم الأمن مساهمة كبيرة في ذلك[9]، ويصف الحميري المرية أنها سوق تجارية تقصدها المراكب من الإسكندرية والشام، فلم تكن بالأندلس أكثر منها مالا [10]، إذ أنّها بلغت ذروة النشاط التجاري في عصر المرابطين، وتجارها من أقطار العالم الإسلامي والمسيحي، ومما يدل على كثرة متاجرها ونزلائها عدد فنادقها الذي بلغ 970 فندقاً، واستطاعت المدن الأندلسية في عهد المرابطين أن تنافس الجمهوريات الايطالية[1] في السيطرة على التجارة البحرية، فكان توافد التجار مطمئنين على أرواحهم وممتلكاتهم لوفرة الحرية والأمن، ويُفهم من ذلك أن السلطة اتبعت سياسة استقطاب للأموال والسلع، وتشجيع على الإنتاج، وانعكس ذلك إيجابا على أحوال المجتمع رخاءً ووفرةً [2] .

وعلى غرار الصناعة والتجارة، فقد طبّقت السلطة المرابطية سياسة كان لها أثر هام في زيادة الإنتاج الزراعي، وهي مخالفة للسياسة التي انتهجها المنصور بن أبي عامر وتتمثل في انتزاع الاقطاعات الزراعية التي كانت قد مُنِحَت للجند لاستغلالها فكان إنتاجها وفير، لكنه لما أصبحت ملكيتها ملكية عامة بيد السلطة تراجع إنتاجها، ولما أصبح الأمر بيد المرابطين، عادوا إلى السياسة القديمة، فاقطعوا الجند الأراضي يُفلحونها، وذلك ما تؤكده رواية صاحب الحلل[3] في أن الدولة كانت تمنح إقطاعات

---

(4) السقلاطون نسيج حرير يمطرز بالذهب، عرف في بلاد اليونان، وانتشر في البلاد العربية، عبد العزيز سالم، المرجع السابق ص157 .

(5) الاصبهاني والجرجاني منسوجات ذاعت شهرتها في أصبهان وجرجان، عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص158 .

(6) الستور المكللة أقمشة من الحرير خفيفة رقيقة، تزين بزخارف نباتية، وأزهار تشبه الأكاليل. عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص158.

(7) الإدريسي، المرجع السابق، 289. عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ص156،157.

(8) دندش، المرجع السابق، ص181.

(9) حسن محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص400.

(10) الحميري، المصدر السابق، ص538. الإدريسي، المصدر السابق، ص289.

(1) حسن محمود، المرجع السابق، ص401. دندش، المرجع السابق، ص196.

(2) حسن محمود، المرجع السابق، ص403.دندش،**أضواء على المرابطين**، ص35.

(3) مجهول، **الحلل الموشية**، ص82.دندش، **الأندلس** في **نهاية المرابطين ومستهل الموحدين**، ص159.

للجند تشجيعا لهم، ونتج عن هذه السياسة تحويل الأراضي من ملكية عمومية إلى ملكية خاصة، فزاد إنتاجها بسبب اهتمام أصحابا، ووصل ذلك إلى حد التصدير[4]، ومن بين المنتوجات الزراعية السكر، الألبان ومشتقاتا، السمن، العسل، وتنتشر في كل أرجاء الأندلس[5] .

واستقرت حال الـتمع إثر هذه الوفرة الإنتاجية، وظهرت آثارها في عهد علي بن يوسف الذي وُصف بالرخاء والاستقرار ووفرة الأموال[6]، ويُرجع الأستاذ الجنحاني سبب هذه الوفرة إلى سيطرة الدولة على جميع المسالك الغربية، الرابطة بين المغرب والأندلس والسنغال، وهو ما أدى إلى تدفق ذهب السودان على البلاد، وأعطى ذلك مكانة عالمية حينذاك للدينار الذهبي المرابطي [7].

وخلاصة هذه السياسة، يمكن القول إنّها استطاعت أن تحقق وفرة مالية واستقراراً اقتصادياً ساهمت فيه عدة عوامل مترابطة، منها سياسة الإعفاءات الضريبية بإبطال المكوس والمغارم وتنوع الموارد المالية، والسيطرة على مسالك التجارة التي شجعت على الإنتاج والمبادلات، وكل ذلك كان في جو من الأمن[8].

6/ السياسة الأمنية:

ُيعد الجانب الأمني من الجوانب الأكثر أهمية في الأندلس، خاصة لموقعها الجغرافي في بوابة أوربا المسيحية من جهة الغرب، وذلك ما ُيفسر اهتمام السلطة بالناحية الأمنية طيلة الفترة التي حكم فيها المرابطون، ومن مظاهر ذلك سؤال الأمير علي بن يوسف للقاضي ابن رشد حول أفضلية الحج أم الجهاد فأفتى الإمام قائلاً: « وفرض الحج ساقط على أهل الأندلس في وقتنا هذا لعدم الاستطاعة التي جعلها الله شرطاً في الوجوب، ويشمل عدم الاستطاعة فقدان الأمن »[1] ولعله يوجد هناك توافق بين طبيعة السلطة المرابطية التي قامت على الجهاد وموضوع الأمن في الأندلس، خاصة وأن الـتمع تضرر كثيرًا من كل عمليات التوسع في المدن الشمالية، وما احتلال طليطلة إلا مثالاً عن ذلك التهديد، فإلى أي مدى تمكنت السلطة من تحقيق الأمن والحد من تديد النصارى ؟

---

(4) دندش، المرجع السابق، ص35

(5) دندش، **الأندلس** في **ناية المرابطين ومستهل الموحدين**، ص159.

(6) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص157.

(7) بن قربة، **المسكوكات المغربية**، ص175. كمال السيد أبو مصطفى، **دراسات أندلسية** في **التاريخ والحضارة**، ص32 وما يليها.

(8) دندش، المرجع السابق، ص196.

(1) ابن رشد، **الفتاوى**، 1023/2.

يذكر صاحب الحلل أن يوسف بن تاشفين اشترط على نائبه في الأندلس ترتيب سبعة عشر ألف فارس بقرطبة ألف، وبغرناطة ألف فارس، وفي الشرق أربعة آلاف فارس، وباقي العدد على ثغور المسلمين للدفاع والمرابطة في الحصون المحاذية للنصارى[2]، ويظهر من خلال ذلك تركيز السلطة على الناحية الدفاعية لمواجهة أي خطر خارجي.

منذ انتصار الزلاقة وتديد ألفونسو مستمراً على البلاد أملاً في أن يمحو آثار الهزيمة، فوقعت مواجهات عديدة بينه وبين قوات المرابطين، ويسرد لنا ابن الكردبوس تلك الوقائع، والتي منها معركة جيان سنة (485هـ/1092م)[3] وقد شبهها المؤرخون بالزلاقة، فباءت جهود ألفونسو بالفشل، وارتبط اسم ألفونسو بالهزيمة كما تمكنوا من هزم البرهانس قائد جيش الفونسو عند قونكة[4]، على الرغم من تحالف نصارى أراغون [5] ثم قام محمد بن عائشة إلى ناحية جزيرة شقر، وتمكن من القضاء على جند من جند القمبيطور ، ومات على اثر ذلك[6]، كما حاول المرابطون استرجاع طليطلة، ومن هذه المحاولات ما كان سنة (493هـ/1099م).

وجاز كل من يحي بن أبي بكر بن يوسف، ومعه سير بن أبي بكر ومحمد بن الحاج، وساروا إلى طليطلة وحاصروها، وشنوا الغارات على نواحيها، وسيطروا على بعض حصونا وسبوا وغنموا وفي سنة(494هـ/1100م) حاصر الأمير مزدلي بلنسية حتى تمكن من إخراج من فيها من الروم وبامتلاكها امتلك المرابطون جل الجزيرة [1].

ولكن لم ينته تديد النصارى، ففي سنة(501هـ/1107م) حشد ألفونسو جيشاً كبيراً وقصد شرق الأندلس، فتصدى له الأمير تميم وتمكن من صده وقتل ابنه، ومات بعد ذلك بثلاثة أشهر[2].

وفي عهد علي بن يوسف استرجع المرابطون شنترين[3] وقام بتقوية الحصون، وسد الثغور وأذكى العيون، واتخذ مخازن السلاح، وأعد كل ما يلزم من عدة لمواجهة العدو [4]؛ وكانت ولاية تاشفين بن علي مثالاً على ذلك، يصف ابن عذاري سياسته في ذلك فيقول: « فقوّى الحصون وسد

---

(2) مجهول، **الحلل الموشـية**، ص80.

(3) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، 202/10.

(4) قونكة مدينة عند أعالي نر شقر، انظر: الإدريسي، المصدر السابق، ص286.

(5) ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص108.

(6) ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص108.

(1) ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص108. أنظر الخريطة رقم 2، ص151.

(2) ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص114.

(3) المراكشي، **المعجب**، ص ص124، 125.

(4) ابن الخطيب، **الإحاطة**، ص449.

الثغور وأذكى العيون على العدو وآثر الجند ولم يكبر إلا الجد، ولذلك حمل على الخيل، وقلّد الأسلحة، وأوسع الأرزاق، واستكثر من الرماة، وأركبهم، وعني بالغزو، فهزم الجيوش وفتح الحصون، وتيبه العدو، ومهد الملك بالحزم، وتملك نفوس الرعية بالعدل، وقلوب الجند بالنصفة »[4] ولمّا علم أنّ العدو خرج من طليطلة[5] إلى جهة قرطبة، واجهه فحقق انتصارا عليه، وغنم وأسرى فمدحه الشعراء[6]؛ و لما بلغه أنّ الروم جمعوا جيشاً يضم آلافا من خِيرة رجالهم، وهاجموا على مواقع إسلامية من بطليوس وباجة ويابرة، وأخذوا كل ما وجدوه، فأسرع تاشفين في ملاحقة الروم وحقق انتصاراً خلّده الشعراء[7]؛وفي سنة(530ه/ 1135م) غزى تاشفين بن علي الروم بعد أن جمع زعماء المرابطين، واستنفر كل العناصر من عرب وبربر وحشم، وامتلأت أيدي المسلمين بالغنائم من سلاح وخيل وأسرى بعد انتصارهم[8] .

واستمر المرابطون في نجهم هذا حتى بدأت أوضاعهم الداخلية تتدهور وتضعف وتعددت الجبهات التي يقاتلون فيها، بين متمردي الأندلس، وتديدات الموحدين في العدوة، وتحالفات النصارى في الشمال، وهو ما أضعف شوكتهم الجهادية وأنى دورها .

7/ علاقة السلطة بأهل الذمة :

يعتبر أهل الذمة من أكثر الفئات حساسية في العلاقة بين الـتمع والسلطة، لكون هذه الفئة تمثل نسبة كبيرة في الـتمع الأندلسي، إضافة إلى أنا تختلف عن غيرها من العناصر في خصائصها وحقوقها وواجباتا، ومفهوم الذمة هو العهد والأمان والضمان والحرمة[1]، وسمي أهل الذمة بذا الاسم لدخولهم في عهد المسلمين[2]. وقبل أن نتكلم على واقع أهل الذمة في ظل السلطة المرابطية نعطي لمحة عن أحكام هذه الفئة في التشريع الإسلامي، حتى نتمكن من تقييم وضعهم في عهد

---

(4) ابن عذاري، المصدر السابق، 80/4.

(5) حاصر علي بن يوسف طليطلة سنة(503ه /1109م)، وكان حصاراً قوياً، إلا أنّه لم يقتحمها، وهو ما جعل تفسيرات ذلك متعددة، فمنهم من عدها عجزاً، ومنها من عدها من مظاهر الفروسية العربية، والاقتداء بالنبي ﷺ في تراجعه عن الطائف، أنظر: جمعة شيخة، الشعر الأندلسي، ص133.

(6) ابن عذاري، المصدر السابق ، 86/4. ومن ما أورده ابن عذاري من ما قاله الشعراء:

أنت يـا تاشفيـن والله واق	لك نفس العلى وشخص الكمال
ليس آمال من على الأرض إلا	أن ترى أنت غـاية الأعمـال
وهنيئا بـأن نضت و أقبـلـ	ت حميـد النهوض والإقبـال

(7) ابن عذاري، المصدر السابق، 89/4.

(8) ابن عذاري، المصدر السابق، 90/4.

(1) الذمة سبق تعريفها في الفصل الثاني.

(2) حسن الممي، **أهل الذمة في الحضارة الإسلامية**، ص15.

المرابطين، والعودة إلى تأصيل هذا الموضوع سببه أن الدول الإسلامية التي ظهرت في القرون الأولى لظهور الإسلام، كانت دولاً تعتمد على أحكام القرآن والسنة في شؤون السياسة والاقتصاد والحياة وكانت الدولة المرابطية من بين الدول التي اعتمدت على هذه الأسس في سياستها.

فهذه الفئة لها حقوقها وواجباتا في التشريع الإسلامي، ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ [3]

والجزية ضريبة تُضْرَبُ على رقاب أهل الذمة، تتمثل في مقدار من المال، وهي لا تجب إلا على الرجال الأحرار العقلاء، ولا تجب على امرأة ولا صبي ولا مجنون ولا عبد [4]، ولا تؤخذ من مسكين ولا مُقْعَدْ ولا أعمى، ولا مترهب في ديره، إنما يُتصدق عنهم، وتسقط الجزية بالإسلام،ورأي الإمام مالك الذي على مذهبه أهل الأندلس، أن مقدار الجزية لا يُقدر أقله و أكثره،وإنما هي موكولة لاجتهاد الولاة [5]، وهي تُدفع عيناً أو نقداً عملاً بما قام به النبي ﷺ مع أهل الذمة على اختلاف أحوالهم[6] وقد شدد الإسلام في حفظ عقد الذمة، فقد حدث القاضي أبو يوسف صديقه الخليفة هارون الرشيد فقال له: « وقد ينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ ، والتفقد لهم، حتى لا يُظلموا ولا يؤذوا، ولا يكلفوا فوق طاقتهم، لا يؤخذ شيء من أموالهم إلا ما يجب عليهم »[1] ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال:﴿من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة﴾ [2].

إلا أن الاختلاف الذي وقع فيه العلماء هو حول وضع أهل الذمة في التمع، هل يكون رفيعاً أم وضيعاً؟ ووقع الاختلاف حول تفسير قوله تعالى وَهُمْ صَاغِرُونَ من الآية السابقة، فيرى البعض أنا تعني الإذلال، فعلى الذمي عندما يأتي لدفع الجزية، أن يأتي ماشياً لا راكباً، يُطال وقوفه ويُجرُ بالعنف، إلى غير ذلك من أوصاف الإذلال ، وعقّب على ذلك ابن القيمعلى أنه لا يوجد دليل على ذلك من القرآن أو السنة ولا من أفعال الصحابة[3].

---

(3) سورة **التوبة**، الآية 29.

(4) ابن القيم، **أحكام أهل الذمة**، تح طه عبد الرءوف سعد، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1، (1415هـ/1995م) ص48 الماوردي، **الأحكـام السلطانيـة**، ص183.

(5) وهو بذلك يخالف الإمام أبا حنيفة الذي يقدر الجزية بمبلغ معين، وحددها الإمام الشافعي بدينار في كل الأحوال، أما الإمام أحمد فحدد قيمتها حسب حال الشخص، فجعلها للميسورين ثمان وأربعون درهماً، وللمتوسطين أربع وعشرون وللفقراء العاملين اثنتي عشر. أنظر: ابن القيم، المصدر السابق ، ص37 وما يليها. الماوردي، المصدر السابق، ص184.

(6) حسن الممي، المرجع السابق، ص41.

(1) حسن الممي، المرجع السابق، ص7.

(2) البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الجهاد والسير، 211/4.

(3) ابن القيم، المصدر السابق، ص25

ومعنى الصغار في الآية هو التزامهم بجريان أحكام الملة عليهم، وإعطاء الجزية، ويدعم هذا الرأي الماوردي [4] وهو ما يُصطلح عليه باسم خضوع الأجانب لقوانين الدولة التي يُقيمون فيها، إقامة دائمة أو مؤقتة [5] وهذا يعني عدم إجبار أهل الذمة بالغيار الذي يتمثل في منعهم من التشبه بالمسلمين في لباسهم وركوبهم، فلا يوجد في ذلك أصل في دين المساواة، حيث قال تعالى: لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّين [6]. وقول النبي ﷺ ﴿ يا أيها الناس ألا إنّ ربكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى ﴾ [7] وليس بلباس أو غير ذلك من المظاهر، ويرى الأستاذ الممي أن نظرية الغيار ترجع لبعض الذين نسبوها إلى عمر بن الخطاب حتى يُضفوا عليه صبغة شرعية، ولكنه لا يوجد أي سند صحيح لنسب هذا القول لعمر الذي كان من بين وصاياه الوصية بالرفق بأهل الذمة وعدم تكليفهم ما لا يطيقون [8].

من خلال هذه الأحكام يتبين أن أداء الجزية وقيمتها ليست لإلحاق الضرر بهذه الفئات وإرهاقها فمقدارها واقتصار دفعها على من يقدر، لدليل على أنها ذات قيمة معنوية أكثر منها مادية تتمثل في شعور هذه الفئة بالعيش في ظل أمن وأمان الدولة الإسلامية، كما أنها ليست من المداخيل الأساسية للدولة [1]، إلا أن ذلك لا يعني أنهم تمتعوا بصفة المواطنة التي لا تكون إلا بالانتماء العقدي وإلا فما الحاجة لعقد الذمة [2] .

بعد استعراض هذه اللمحة حول حقوق أهل الذمة وواجباتهم في الشريعة الإسلامية، فكيف كان وضعهم في ظل السلطة المرابطية ؟ وما مدى التزام السلطة بقوانين أهل الذمة ؟

جُل ما كُتِبَ في هذا الموضوع يُصورُ المرابطين على أنهم أساؤوا التعامل مع أهل الذمة ومن الأمثلة على ذلك ما قالته مارسيداس غارسيا في أنه بداية من عهد المرابطين والموحدين ساءت أوضاع أهل الذمة وأصبحت أشد قساوة[3]، ويصور ستانوود كب تشدد المرابطين على أهل الذمة، ما أدى إلى الثورة عليهم[4]،وكان قد سبقهم في ذلك أستاذهم دوزي[5] وغيرهم من المستشرقين الذين تطول قائمتهم.

---

(4) الماوردي، المصدر السابق، ص182.

(5) حسن الممي، المرجع السابق، ص40.

(6) سورة **البقرة**، الآية255.

(7) الحديث أخرجه البيهقي عن جابر بن عبد الله، نقلاً عن تفسير روح المعاني للألوسي،163/25.

(8) حسن الممي، المرجع السابق، ص82.

(1) حسن الممي، المرجع السابق، ص ص43، 44.

(2) إبراهيم حركات، **السلطة والمجتمع**، ص132.

(3) غارسيا مرسيدس، **شتات الأندلسيين**، ص16.

(4) ستانوود كب، **المسلمون** في **تاريخ الحضارة**، ص73.

ولم تقتصر هذه النظرة على الأجانب فهناك من حذا حذوهم من الباحثين العرب في وصف المرابطين بالتعصب(6) دون تحقيق أو تمحيص،وهناك من الباحثين الغربيين من عارض نظرة دوزي ومنهم خليان ريبيرا، الذي يصف عصرهم بعصر الازدهار الأدبي والفني(7)وهناك من وصف عهد المرابطين بأنه عصر التسامح، و أن ما حدث من تشدد له ما يبرره(8)، وللحكم في هذا الموضوع نعيد القراءة في بعض النصوص، خاصة منها النوازل التي تعطينا صوراً نستقرئ منها العلاقة بين الطرفين، وما مدى التزام كل طرف في أداء ما عليه من حق وواجب. كما نستعرض كل فئة من فئات أهل الذمة على حدى.

أ/ علاقة السلطة بالنصارى:

من حيث التنظيم فقد نهج المرابطون نهج سابقيهم، فتركوا نظام القومسة في إدارة وتنظيم حياة المسيحيين(9) حيث يتولى القومس جمع الجزية، ودفعها للسلطة، في أوقاتها وتركت السلطة حرية القضاء للنصارى، فلهم قضاتهم يُشرفون على حل مشاكلهم، أما القضايا التي أحد طرفيها مسلم فيتم الفصل فيها من قِبل قاض مسلم، وفق أحكام الشريعة (1)

وعلى مستوى الحياة العامة فقد شارك النصارى في كل مجالات الحياة، وتولوا مناصب في الدولة، كقيادة الجيش، وجباية الضرائب، بدليل أن إحدى رسائل الأمير تاشفين بن علي، الموجهة للقضاة تأمرهم بعدم إسناد وظائف الدولة لأهل الذمة(2)، وبما أن الأمير تاشفين لا يمثل سوى مرحلة متأخرة من حكم المرابطين، فإن نفوذ النصارى في المناصب كان سابق له؛ وتزايد عدد النصارى في الجيش المرابطي، خاصة في العهد الأخير وهو ما لاحظه ابن خلدون في أن الدولة تعتد في آخر عهدها بالجند المرتزقة(3)، ويرجع استخدام السلطة للجند للاعتقاد بولائهم، وحيادهم عن كل الطوائف الأخرى، وبذلك تكون السلطة قد أمنت من كل شر وتمرد(4)،وساهم هؤلاء الجند في إدخال أساليب الجندية الوسطوية الإفرنجية التي تختلف عن أساليب المرابطين الصحراويين(5) وهو ما وصفه

---

(5) بالنثيا، **تاريخ الفكر الأندلسي**، ص ص 19، 20.

(6) أحمد أمين، **ظهر الإسلام**، 32/3.

(7) بالنثيا، تاريخ المرجع السابق، ص ص 20، 21.

(8) حسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص419. بوتشيش، **مباحث** في **التاريخ الاجتماعي**، ص84.

(9) ابن الخطيب، **الإحاطة**،107/1.

(1) ابن الخطيب، المصدر السابق، 113/1.

(2) حسين مؤنس، **نصوص**، ص113.

(3) ابن خلدون، **المقدمـة**، ص194.

(4) بوتشيش، **مباحث** في **التاريخ الاجتماعي**، ص88.

(5) حركات،المرجع السابق، ص223.

ابن خلدون بقوله:« فاحتاج ملوك المغرب أن يتخذوا من هذه الأمة المقصورة على الزحف وهم الإفرنج »[6] كما مارس النصارى مهنة جباية الضرائب[7] .

أما من المظاهر التي وصفها المؤرخون الغربيون أنا تشدد في السلطة المرابطية، فتأتي عملية إجلاء النصارى المعاهدين من غرناطة إلى المغرب، وذلك بعد أن استفتى الأمير علي بن يوسف الإمام ابن رشد، حول نصارى غرناطة الذين تحالفوا مع ألفونسو المحارب "ابن الرذمير" ملك أرغون سنة (519هـ/1125م) ومساعدته في التوغل فقام بأعمال النهب والتخريب في جنوب شرق الأندلس وعلى إثر ذلك أعتبر هؤلاء ناقضين للعهد، وعليه أفتى بنفيهم إلى العدوة[8] .

تباينت تفسيرات هذا الحدث، فنجد أنّ المؤرخين الغربيين اعتبروا ذلك مظهراً من مظاهر الاضطهاد، بينما الدراسات العربية فسّرت هذا الحدث بما يحيط به من ظروف، فيرى أحد الباحثين أن حملة الفونسو كانت من أجل إجلاء المسيحيين نحو الشمال، للاستفادة من خبرتم في تعمير البلاد النصرانية، فكانت سياسة الإبعاد للحيلولة دون هجرة الأيادي العاملة نحو الشمال، وبالتالي إفشال مساعي الفونسو، وكذلك المحافظة على جزية أثني عشر ألف مسيحي، وما تقدمه أراضيهم من جباية خراجيه، ويستند في ذلك إلى أن الفونسو السابع قبل ذلك، ضم إليه عشرة آلاف عائلة مسيحية خلال حملته، فأراد المرابطون أن ُيفَوتوا عليه هذه الفرصة، بالإضافة إلى نقل خبرة هؤلاء المسيحيين إلى المغرب الأقصى [1]، وهذه التأويلات مقبولة، إلا أن المنطلق الأول في إتباع سياسة الإجلاء، إنما يرجع إلى سياسة النبي ص حين أجلى اليهود عن المدينة[2] ومنه فلا يمكننا أن نعتبر أن هذا تشدداً في السياسة لعدة اعتبارات، منها أن عملية الإجلاء جاءت بعد نقض العهد، كما أن سياسة الإجلاء اتبعها النبي ص، أما الدليل الآخر فيتمثل في السماح لهؤلاء المبعدين بالحرية الدينية، ويظهر ذلك في فتوى ابن الحاج في السماح لهم ببناء كنيسة يتعبدون فيها في المغرب [3]، وهو ما ُيثبت أن السلطة المرابطية كانت بعيدة كل البعد عن التعصب الديني، وما تشددها إلا بعد أن رأت مخالفة النصارى

---

(6) ابن خلدون، المصدر السابق، ص279.

(7) مجهول، **الحلـل الموشيـة**، ص ص84، 85. ابن عذاري، المصدر السابق،102/4 .

(8) مجهول،المصدر السابق، ص90. ابن عذاري، المصدر السابق، ص73. ابن الخطيب، المصدر السابق، 108/1.

(1) بوتشيش، المرجع السابق، ص80.

(2) البخاري، **صحيح البخاري**، 211/4.أنظر : إبراهيم حركات، **السياسة والمجتمع** في **العصر النبوي**، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ص 170.

(3) الونشريس، **المعيار المعرب**،215/2.

لقوانين أهل الذمة، وليس ذلك فحسب فإننا نجد الأمير علي بن يوسف يقف إلى جانب نصارى غرناطة ضد واليها[4] .

وإذا خلصنا إلى أن عملية الإجلاء كانت طبيعية بعد تجاوز النصارى لقوانين الدولة، فهناك ثمة أخرى تعرض لها المرابطين وفقهائهم، تتمثل في إصدارهم لأوامر وفتاوى تجيز هدم الكنائس ومن الأمثلة على ذلك ما أورده ابن الخطيب، أن يوسف بن تاشفين أمر بهدم كنيسة البيرة(492هـ/1098م)وذلك بعد استصداره لفتوى تبيح ذلك[5] وأباح ابن سهل قاضي غرناطة هدم الكنائس وعدم السماح ببناء كنائس جديدة، وذلك على اعتبار أن أراضي الأندلس أراضي عنوية [6].

إن عملية هدم الكنائس في الأراضي المفتوحة لم يُقرها الدين الإسلامي[7]، بل إن حماية المقدسات تدخل ضمن التوجيهات التي أوصى بها النبي ﷺ الفاتحين والمجاهدين[8]، وعليه فجميع المبررات القديمة مثل أن هذه الأراضي عنوية، باستثناء الكنائس التي تم استحداثها[9]والحديثة مثل أن هذه الفتاوى جاءت في ظروف الصراع بين المسلمين والصليبيين في المشرق، ووقوع مسلمي المدن الأندلسية التي استرجعها النصارى في تضييق شديد، لا تبرر التضييق على أهل الذمة ما لم ينقضوا العهد، لقوله تعالى ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [1] وقوله أيضاً ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [2]
ومنه لا يمكن إعطاء أي تبرير لفعل الهدم، وهو ما فتح باباً للانتقاد من الكتاب الغربيين، وفي هذا الصدد دائماً فقد اتفق الفقهاء على حُرمة بناء الكنائس في الأراضي التي فتحها المسلمون عُنوة، والسماح للنصارى بإقامة شعائرهم في الكنائس القديمة، مع منعهم من تجديدها، وضرب النواقيس [3].

إضافة إلى ذلك فهناك أعمال أخرى سنها فقهاء المرابطين على أهل الذمة، ومن الأمثلة على ذلك منع ابن عبدون المسيحيات من دخول الكنائس، باستثناء أيام الاحتفالات والأعياد، بحجة أنن

---

(4) ابن عذاري، المصدر السابق، 17/4.

(5) ابن الخطيب، **الإحاطة**، 107/1.

(6) الونشريسي، المصدر السابق، 240/2، 246.

(7) الونشريسي، المصدر السابق، 239/2.

(8) أنظر لتوجيهات النبي ﷺ للفاتحين ، ابن القيم الجوزية، المصدر السابق، ص20 وما يليها.

(9) الونشريسي، المصدر السابق، ص240/2.

(1) سورة، **الأنعام**، الآية164.

(2) سورة **الممتحنة**، الآية 8

(3) الونشريسي، **المعيار المعرب**،59،58/8.

يُمارس الدعارة مع القسيسين وإرغام النصارى على لبس الغيار تمييزا لهم عن المسلمين واستخدامهم في بعض الأعمال الوضيعة، ومحاولة إرغامهم على الختان[4]، كما منعوا من إظهار الخمر والخ ير في أسواق المسلمين، وأفتى الطرطوشي بتحريم جبن النصارى، وأفتى ابن رشد بتجنب ذبائحهم، وتجنب الاتجار معهم لتعاملهم بالربا [5]، واعتبر زنا الذمي بالمسلمة مدعاة لنقض ذمته، إلا أن هذه المطالبات لم يتم الالتزام با، بدليل أنّ النصارى ترقوا في بعض المناصب، ولم يلتزموا بلبس الغيار، ولم يُمنعوا من شرب الخمر [6]، وتعاملوا مع المسلمين في كل الميادين[7]، وهناك منهم أصحاب المال والمكانة في المجتمع، إذ يذكر الونشريسي أن نصرانيا عتق جارية مسلمة[8].

وفي عموم العلاقة نجد أن السلطة المرابطية قد راعت باهتمام حقوق هذه الفئة، ومظاهر ذلك كثيرة منها أّنها، أدرجت بعض الكتب الخاصة بحقوق أهل الذمة في الإسلام حتى لا يتجاوزها العامة [9]، وتشير نازلة أن الفقراء من أهل الذمة، تسقط عنهم الجزية، وينالوا حقهم من النفقة مثل فقراء المسلمين، ووُصف علي بن يوسف أنه صديق النصارى فقد وقف إلى جانبهم ضد والي غرناطة عمر بن ينالة إذ سجنه بعد أن ثبت تظلمهم [1]،ورجع ابن رشد في حكمه لصالح نصراني بعد أن ثبت أن مسلما ظلمه[2].

بعد كل هذا فإنه إذا قُمنا بتقييم واقع النصارى، فإن فترات التشدد كانت محدودة ومربوطة بأفعال اقترفوها بأنفسهم، كعملية الإجلاء التي كانت رد فعل طبيعي للسلطة على غدر وخيانة النصارى للعهد، ولم نُسجل للسلطة موقفا متشدداً عدا قيامهم بدم كنيسة إلبيرة على خلفية ظروف استثنائية، فيما يخص الكنائس التي كانت قائمة، ولكن هذا التصرف لا يُعد شيئاً إذا قِيس بمدى الحرية والتسامح الديني الذي عرفه النصارى في ظل السلطة، بدليل أن هؤلاء الذين تم إجلاؤهم سُمِح لهم بممارسة طقوسهم الدينية، وعلى الرغم من بعض الفتاوى التي تتشدد في التعامل مع النصارى، إلا أن المصادر تبين أنم نالوا المناصب العليا، واندمجوا في المجتمع، فلم يكن هناك تمييز

---

(4) ابن عبدون، **رسالة** في **الحسبة**، ص48.

(5) أنظر: ابن رشد، **الفتاوى**، 973/2.

(6) ابن رشد، المصدر السابق، 1281/3. بوتشيش، المرجع السابق ، ص75.

(7) وردت في النوازل صور كثيرة لتعامل المسلمين مع أهل الذمة منها ما أقره الفقهاء، وهو ما يدل على عدم تميش هذه الفئة، وهناك ما عارضه الفقهاء لما فيه من ضرر بالمسلمين. أنظر: الونشريسي، المصدر السابق،433/6.

(8) الونشريسي، المصدر السابق، 255/5.

(9) بوتشيش، المرجع السابق، ص88.

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، 77/4. بوتشيش، المرجع السابق، ص73.

(2) ابن رشد، **الفتاوى**، 1619/3 .

بينهم وبين المسلمين، ولعلّ ما يدل على ذلك أنه لم تشتك هذه الفئة من السلطة، كما لم يكن لها أثر كبير في المساهمة في إسقاط السلطة إذا ِقيست بأطراف إسلامية.

وهذا الواقع الذي عاشه النصارى في كنف السلطة المرابطية، لم يجد مثله المسلمون في المدن التي استردها النصارى، فقد تعرضوا لتضييق في كل الجوانب،وخاصة في الجانب الديني، حيث أجبروا على اعتناق المسيحية،والذين رفضوا ذلك تم استرقاقهم ومعاقبتهم بممارسة الأشغال الشاقة واستغلت سواعد المسلمين في تطوير كل القطاعات، من عمارة وصناعة وزراعة، إضافة إلى فرض الضرائب [3]والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما حدث في سرقسطة وبلنسية [4].

ب/ علاقة السلطة باليهود:

على غرار ما عرفناه من كتابات الغربيين عن علاقة السلطة بالنصارى، نجد مثله في علاقة السلطة باليهود، ومن الأمثلة على ذلك ما تقوله غارسيا مرسيدس أن اليهود عرفوا عصرهم الذهبي في عهد الخلافة الأموية، وعصر الطوائف، وهي ُتسْقِطُ بذلك ذكر فترة المرابطين [5]، أما بروكلمان فيصرح بذلك قائلا:« فلما تم السلطان للمرابطين، انتهى اليهود إلى حال من العسر بالغة» [6]وينعت كلاوديو سانشيث ألبورنوث المرابطين باللاسامية بسبب اضطهادهم لليهود وانتقالهم للمناطق المسيحية [1] فهل هذه الأحكام القطعية هي حقيقة تاريخية أم أنها مجرد تعصب ضد سلطة تمكنت من الوقوف أمام زحف المسيحين .

انطلاقاً من إدارة شؤون هذه الفئة فإن ما لاحظناه من أحكام تعلقت بالنصارى نجدها طُبقت مع اليهود، فهذه الفئة ُترك لها حق تنظيم شؤون أفرادها بحرية، عُرفت الطائفة اليهودية باسم الجماعة، ويرأس كل جماعة نفر من الطاهريين ُيدعى الواحد منهم بالبرور، وكان لهم مجلس ُيدعى البروريم، وكان لهذه الطائفة قضاتها من اليهود، فاليهودي يوسف بن سهل تولى قضاء يهود قرطبة أما الحالات التي يكون أحد طرفيها مسلم فهذه يفصل فيها قاض مسلم[2] .

---

(3) بوتشيش، المرجع السابق، ص86.

(4) ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص ص103، 104.

(5) غارسيا مرسيدس، **شتات الأندلسيين**، ص37.

(6) كارل، بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة أمين فارس و منير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط13، 1998 بيروت، ص315

(1) محمد العربي المساري، **الفترة الإسلامية من تاريخ اسبانيا** بين **قراء**تي **كل من كاسترو والبورنوث**كراسات أندلسية منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، تقديم عباس الجراري،مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 2006م الرباط، ص52.

(2) بوتشيش، المرجع السابق، ص96.

إن البحث في المصادر يقودنا إلى حقيقة مخالفة لما ذكرته الروايات الغربية، فقد ترقى اليهود في المناصب العليا وحتى الحساسة في بلاط السلطة المرابطية، ومن الأمثلة على ذلك ما أورده ابن عذاري أن يهوديا تولى منصب صاحب الشرطة والكتابة عند عمر بن ينالة عامل غرناطة وأنه كان يحشر نفسه في كل القضايا السياسية حتى اغتيل[3]، وأن طبيبا الأمير علي بن يوسف أبو أيوب سليمان بن المعلم وأبو الحسن بن ميار كانا يهوديين[4].

وعملت السلطة على إدماج هذه الفئة في المجتمع، فكان لهم دور واسع في الحياة العامة ويظهر ذلك من الأعمال التي مارسوها، فتشير النوازل إلى ممارستهم التجارة والصياغة والصيرفة وحتى ضرب السكة[5]، وهذه الحرف تنبئ عن وضع اجتماعي ميسور الحال، فقد امتلكوا الثروات والعقارات، ويتبين ذلك من نازلة تُحَرِم استفادة المسلمين من أحباس يهودي، بعد أن حبس دارًا له على مسجد قرطبة[6].

إن الروايات الغربية استندت في حكمها على تشدد المرابطين على بعض المواقف المتشددة للسلطة أو فقهائها، وتحتاج هذه المواقف إعادة النظر حتى يتم الحكم لها أو عليها، ومن تلك المواقف التشدد في التعامل مع هذه الفئة، ومن مظاهر ذلك أن يوسف بن تاشفين حاول إجبار اليهود على اعتناق الإسلام.

ونجد أن الفقهاء تشددوا في أحكامهم فابن عبدون منع ذبح اليهودي للمسلم ومنع قيام المسلم على خدمة اليهودي في الحمام، كما منع بيع الكتب لهم حتى لا يستظهروا بالعلم على المسلمين، كما أنكر ما قامت به السلطة من توظيف اليهود في مناصب الدولة كصاحب الشرطة[1].

ويُعتبر الغِيَار أو إلزام اليهود بارتداء وامتطاء ما يُميزهم ويُنقِصُ من قيمتهم، أمام المسلمين من أهم الجوانب التي انتقدت فيها السلطة؛ إلا أن ما تبينه النوازل أن بعض هذه الأحكام لم تتجاوز أفواه الفقهاء، أي أنا لم تُمارس على أرض الواقع، فتشير نازلة إلى أن رجلاً يهودياً كان يرتدي عمامة وخاتماً،ويركب السروج على فاره الدواب، ويجلس في حانوته دون غيار ولا زنار يُعرف به[2].

---

(3) ابن عذاري، المصدر السابق، 76/4.

(4) ابن عذاري، المصدر السابق، 76/4.

(5) الونشريسي، المصدر السابق، 319/6.

(6) الونشريسي، المصدر السابق، 97/7 و 250/5.

(1) ابن عبدون، **رسالة في الحسبة**، ص ص49، 51، 57.

(2) الونشريسي، **المعيار المعرب**، 254/2.

وهناك من يُفسر أعمال السلطة ويُعطيها مبررات أحيانا تكون صائبة، وأحيانا أخرى تكون بعيدة عن ذلك، فنجد أحدهم يرى أن محاولة الأمير يوسف إرغام اليهود على الإسلام هو من أجل تحصيل جباية أكثر مقابل بقائهم على ديانتهم [3]، ويُعتبر ذلك تجاوزا لضوابط العلاقة من طرف السلطة، وأعتقد أن الجانب المادي في العلاقة هو نقطة الضعف في تعامل السلطة مع عناصر المجتمع المختلفة، سواءً مسلمين أو أهل ذمة، إلا أن اليهود كانوا أكثر استهدافاً لأنهم أكثر ثراءً، بمعنى أن ثروتهم كانت وبالاً عليهم، ونظرا لأهمية هذه السياسة المالية في فتور العلاقة بين الطرفين، وأثرها في تدهور الأحوال فقد تركت الحديث عنها لآخر الفصل، أما التبرير الثاني فيتمثل في أن سبب التشدد إنما يرجع إلى عدم احترام اليهود لرموز الإسلام كسب النبي ص ولذلك حُكِم على من قام بذلك بالقتل حسب نوازل ابن سهل [4].

وهناك قضية أخرى تتعلق بالحرية الدينية وهي منع السلطة أهلَ الذمة بناء الكنائس والشنائع، فإذا قلنا أن السلطة منعت الفئة المسيحية من بناء الكنائس لأن أراضي الأندلس عنوية فلماذا شمل هذا الحكم اليهود ؟ على الرغم من أنهم لم يقفوا ضد المسلمين في فتح الأندلس بل إن بعض الروايات تذكر أنهم ساعدوا المسلمين في عملية الفتح، يبدو هنا أن السلطة المرابطية لم تفرق في تعاملها بين الفئتين، حيث نجد أن ما يجري من أحكام على المسيحيين طُبِق على الفئة اليهودية دون أي تمييز بينهما.

وما يلاحظ أن المناصب التي ترقى فيها اليهود، كانت أحياناً سبباً في كراهية المجتمع وعدائه لهم ما أدى إلى التعرض لهم، ومن الأمثلة على ذلك اغتيال كاتب عمر بن ينالة[1]، ويصف ابن عذاري أثر ذلك اليهودي في إفساد الوالي على الرعية قائلاً :« وكان له يهودي يبغض الناس ويبغضونه، أشأم قسمة على نفسه ورئيسه ومن اتصل به، فبدأ بشؤمه أميره ينالة، فجُر إليه العزل وأورده السجن، وغدا شؤمه عليه، فاستؤصل ماله ونُهبت داره، وطُلِب ليوقع به ففرّ وهلك بعد ذلك »[2]، إضافة إلى ذلك نجد منصب الجباية الذي تولاه اليهود[3]والذي زاد من استياء المجتمع وعدائه لهم الذي ظهر في شكل تمردات عليهم، ما أدى إلى هجرة بعضهم نحو الإمارات النصرانية في

---

(3) بوتشيش، **مباحث**، ص99.

(4) بوتشيش، المرجع السابق، ص 85.

(1) ابن عذاري، **البيان المغرب**، 76/4.

(2) ابن عذاري، المصدر السابق، 77/4.

(3) بوتشيش، المرجع السابق، ص109. بلغيث، المرجع السابق، ص606.

الشمال، مثل هجرة موسى بن عزرى أحد يهود غرناطة ولكنه لم يجد الحال بأفضل من حال المرابطين[4].

كما يُسجل لنا ابن عذاري في أحداث سنة (529هـ/1037م) ثورة العامة على يهود قرطبة بسبب جريمة قتل، فَفُتِحَتْ منازلهم ونُهبت أموالهم، وقُتل نفر منهم[5]، إلا أن هذا لا يعني تعصب السلطة وتغاضيها عما يجري لليهود، بقدر ما يُفسَر بضعفها وبداية إفلات الأمور من أيديها، بدليل الأحداث التي وقعت في هذه الفترة من ثورات العامة التي لم تستثن حتى العلماء والفقهاء، حيث قُتل قاضي قرطبة ابن الحاج، وفي نفس السنة(529هـ/ 1037م)ثارت العامة على القاضي أبي بكر بن العربي[6].

وعلى الرغم من هذا التسامح العام الذي لقيه اليهود في ظل السلطة المرابطية والمجتمع المسلم، إلا أن هذه الفئة لم تُعَامِل المسلمين بنفس المعاملة في كثير من المناسبات، ومثال ذلك إساءة يهود بلنسية لمسلميها، بعد أن استولى النصارى عليها[7] ، إضافة إلى أن اليهود تعاملوا مع المسلمين بمختلف أنواع الغش والمكر والحيل ولذلك حذر الفقهاء من التعامل معهم[8] .

خلاصة القول، من خلال هذه الصورة العامة لسياسة السلطة المرابطية في عهد الجيل الأول من الأمراء و الولاة في الأندلس، يمكن أن نُجمل المعالم الأساسية لهذه السياسة في الحفاظ على الأسس التي قامت عليها ومنها تأمين البلاد والعباد من تهديد النصارى الأمر الذي ألف قلوب المجتمع على المرابطين، ورأى فيهم القوة التي تستطيع أن تحميهم، ولذلك نجدهم يرغبون في استلام المرابطين لِزمَامِ الحُكم في الأندلس بدليل أنهم طلبوا ذلك صراحة على ألسنة فقهائهم وأعيانهم، والدليل الآخر أن المصادر لم تُصَوِرْ لنا أي معارضة من قِبل أي فئة من فئات المجتمع، بل على العكس من ذلك فقد كان هناك إقبال كبير على المرابطين من أول يوم وطأت فيه أقدامهم أرض الأندلس، وزادت شعبية المرابطين بتحقيق المرابطين لانجازاتهم الأمنية والاقتصادية والاجتماعية، حيث عرف أهل الأندلس يُسراً ورخاءً واستقراراً في أحوالهم المختلفة .

---

(4) غارسيا مرسيدس، المرجع السابق، ص ص40،41.

(5) ابن عذاري، المصدر السابق ، 93/4.

(6) ابن عذاري، المصدر السابق، 93/4. يذكر ابن عذاري أن الثورة التي كانت على ابن عربي، بسبب تشدده على الفساق مما أدى إلى ثورة هذه الفئة عليه.

(7) ابن عذاري، المصدر السابق ، 91/4.

(8) الونشريسي، المصدر السابق ، 433/6، 434.

وما لاحظناه على علاقة السلطة بالمجتمع المسلم، نرى مثله بالنسبة لأهل الذمة، إذ نجد أن السلطة التزمت تعاليم الدين الإسلامي في حفظ وحماية هذه الفئة، كما أنّها مارست حريتها الدينية والاقتصادية والاجتماعية، فاشتغلت بكل الوظائف حتى القريبة من السلطة، وامتلكت الثروات ودليل ذلك مساهمتها في كل مجالات الحياة.

وما تعرض له أهل الذمة من تضييق مثل إبعادهم إلى العدوة، فإن ذلك مرده إلى تجاوزات ارتكبوها، تمثلت أحياناً في استفزاز المسلمين، وأحياناً أخرى بالمساس بأمن الدولة واتصالاتهم بممالك الشمال النصرانية، وهو ما أدى إلى إجلائهم، كما أنّ عملية فرض الضرائب فهي ظاهرة لم تسلم منها حتى العناصر الإسلامية، إلا أنّها كانت واضحة عند اليهود بحكم لامتلاكهم ثروات رأت فيها السلطة ضرورة تحصيلها بطريقة أو بأخرى.

إلا أنّ صورة التسامح تبقى الأعم في عصر المرابطين، فعاملتهم السلطة على حد سواء مع المسلمين، وعلى الرغم من وجود تشدد من الفقهاء بإلزامهم بالتميز في مركبهم وملبسهم، إلا أنّ السلطة لم تعمل على إجبارهم بذلك، إذ تصورهم المصادر أنّهم امتلكوا الأموال والعقارات، وترقوا في المناصب والوظائف الإدارية، فمارسوا الجباية، وقيادة الجيوش، وتطبيب الأمراء، ولم يكونوا من عموم الفئات الثائرة على السلطة في آخر أيامها.

المبحث الثاني: التغير في سياسة السلطة (مرحلة الاختلاف والتنافر)

1/ عرض ومناقشة أسباب ما آلت إليه الأندلس في آخر عصر المرابطين:

عرفت السلطة المرابطية انطلاقة سريعة وقوية في مد نفوذها، من صحراء المغرب وبلاد السودان جنوباً إلى بلاد الأندلس شمالاً، ولعلّ ذلك يرجع إلى المبادئ والأسس التي اعتمدها المرابطون في تأسيس دولتهم، من دعوة للإصلاح ومحاربة الفساد، وتوفير للأسباب المادية بالسيطرة على طُرق التجارة؛ لكن سرعانما بدأت تضعف فلم يتجاوز عمرها في الأندلس الجيلين حتى دخلت مرحلة الضعف والسقوط، وهي المرحلة التي يصطلح عليها البعض بعصر الطوائف الثاني(1)،فما هي عوامل ذلك الضعف؟ هل يرجع إلى خروج السلطة عن مبادئها؟ أم يرجع إلى عدم توافق بين العنصر المرابطي الصحراوي البدوي مع العنصر الأندلسي المتحضر؟ أم أن ذلك يعود إلى العوامل الخارجية من تحرشات النصارى والموحدين؟

تبين لنا من خلال الفصل السابق أن العلاقة بين المجتمع والسلطة في عهد الجيل الأول من الأمراء تميزت بالتوافق بين الطرفين، تجلى في خضوع المجتمع الأندلسي لسلطة المرابطين، وتلبية السلطة لحاجات المجتمع، لكن ذلك لم يتجاوز عهد الجيل الثاني من الحكام، فوصلت الدولة إلى

---

(1) عصمت دندش، المرجع السابق، ص9.

حتمية السقوط التي عبر عنها ابن خلدون في نظريته التي ترى أن الدولة تمر بثلاثة أجيال[2] وهي نظرية تنطبق على دولة المرابطين؛ التي عرفت هذه المراحل وهي مرحلة التأسيس في بلاد المغرب والتوسع والقوة في بلاد الأندلس، التي وصفها ابن خلدون بمرحلة جني ثمار الملك، وهي المرحلة التي تكلمت عنها في الفصول السابقة، ومرحلة الضعف والسقوط التي خصصت لها هذا المبحث للبحث عن المتغير في العلاقة بين الطرفين.

للإجابة عن الإشكالات المطروحة في مدى ارتباط ضعف السلطة وزوالها بالمجتمع، نرجع إلى البحث من خلال روايات المصادر القديمة وتفسيرات المراجع الحديثة، حتى نقف على الحقيقة دون التعصب لهذا أو ذلك . يُعد المراكشي من الذين فسّروا ضعف المرابطين، انطلاقاً من السياسة التي أداروا بها أمور الدولة ابتداءً من عهد علي بن يوسف، فيبدأ بتحميل السلطة المسؤولية، من خلال سياسة الأمراء واستبدادهم، وإهمال علي بن يوسف للرعية، ونفوذ النساء في الدولة، ثم يبين انعكاسات ذلك، من توسعات النصارى، وقيام ابن تومرت، ثم بداية ثورات الأعيان[3].

ويشترك ابن الكردبوس مع سابقه في تحميل المسؤولية للسلطة المرابطية، ويلخص ذلك في فساد الملثمين، وانحيازهم عن الدين، وانتشار المنكر والظلم[4]؛أما ابن خلدون فيعطي تفسيرات عامة لضعف الدول ومنها: انتشار الترف والانغماس في الملذات وذهاب العصبية والوحشية وانتشار الظلم وسآمة أهل الأندلس من حكم البربر، وحنينهم إلى سابق عهدهم[5].

ومن التفسيرات الحديثة، نجد ما أوردته الباحثة دندش، فبدأت بالعوامل الخارجية أولاً ثم ذكر عوامل داخلية، ومن ذلك سحب الأمير ابن تاشفين لجيشه، لمحاربة الموحدين في المغرب، وتزايد هجمات النصارى، واضطراب الإدارة، والخلاف الذي وقع بين قبائل الملثمين، وفشل الفقهاء في توعية وتعبئة المجتمع لمواجهة الخطر الخارجي، وسياسة التسامح، وأخيراً استغلال الموحدين لسياسة الضرائب، وفتوى حرق كتاب "إحياء علوم الدين"[1]، وعلى غرارها ذكر الأستاذ بلغيث في أسباب سقوط المرابطين، سحب قوات المرابطين من الأندلس لمحاربة الموحدين، وقيام المنتزين بالثورات إضافة إلى الظلم والفساد الاجتماعي، وتَوحدِ قوى النصارى[2].

---

(2) ابن خلدون ،**المقدمـة**، ص ص181، 182.

(3) المراكشي، المصدر السابق، ص154.

(4) ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص124.

(5) ابن خلدون، المصدر السابق، ص ص153، 157، 179- 181، 190-291.

(1) عصمت دندش، المرجع السابق**، ص ص**26-35.

(2) بلغيث، المرجع السابق، ص86.

وخالفهم في ذلك الباحث بوتشيش، إذ حمل المسؤولية للمرابطين وسياساتم وهي استمرار السلطة في حروبا مع النصارى، واعتمادها على الجيش، في فرض شرعيتها، وتعدد عناصر الجيش المرابطي من المرتزقة، وعدم تجاوز الإطار القبلي، إضافة إلى نمو السلطة الدينية وتطرفها.[3]

بعد هذا العرض السريع، نجد أن تحميل مسؤولية ضعف السلطة وزوالها يرجع حسب التفسيرات السابقة واختلافاتا إلى أحد الأطراف الأربعة وهي: السلطة المرابطية أو المجتمع الأندلسي ويمثلان العامل الداخلي، و القوى النصرانية أو قوات الموحدين، ويمثلان العامل الخارجي.

لا ننكر أنا كلها عوامل ساهمت في السقوط، ولكن هناك تفاوت في تحمّل المسؤولية وللوصول إلى رأيٍ مدعومٍ بالمنطق والأدلة، نبدأ أولاً في البحث عن العامل الذي مهد الطريق للعوامل الأخرى، بمعنى هل الثغرة التي تسلل منها الضعف كانت داخلية أم خارجية؟

فيما يخص القوى النصرانية فهي في صراعٍ مع المرابطين منذ دخولهم الأندلس، بل وبسببهم دخل المرابطون إلى الأندلس، حقيقة طول الصراع يرهق الدولة، ولكن عزيمة المرابطين كانت صلبة في مواجهتهم، وما توسع النصارى في بلاد الأندلس، إلا بعد أن حدث الضعف، بمعنى أن الأمر لو اقتصر على النصارى لما تمكنوا من التوسع.

الطرف الثاني ويتمثل في قوات الموحدين، ولو أننا بحثنا في العوامل التي ساعدتم في ذلك لرأينا استغلالهم للسياسات المرابطية المختلفة، خاصة التي ترتبط بالمجتمع، ومنها انطلقوا في تيئة الجو العام لإعلان ثورتم[4]. أما الطرف الثالث وهو المجتمع، ويبدو أنّه لم يتحمل سياسات السلطة المرابطية في آخر عهدها الأمر الذي جعله يثور عليها، فثورته كانت نتيجة ضعف السلطة، وهو ما جعله يرفضها ويحاول التخلص منها، ويفسر ابن خلدون ذلك بالحنين إلى أجواء عصر الطوائف، فهو قد سئم حكم البربر وتشدد فقهاء المرابطين، وسياسة أمرائهم[1].

من خلال ذلك يتبين أنّ مسؤولية تدهور الأوضاع داخلية يشترك فيها الطرفان معاً سلطة ومجتمعاً، فيما يخص المجتمع فإن التنوع في عناصره وخصائصه، ونوع الحياة التي كان يعيشها من ترف ولهو إلى درجة الفساد[2]، جعلته مجتمعاً بعيداً عن الالتزام والخضوع للسلطة، كما أنه لم يعتبر مسلمو الأندلس من تديد النصارى وسقوط طليطلة في أيديهم، ونسوا أنم يقطنون ثغراً خطيراً لوقوعه في أقصى العالم الإسلامي غرباً، تحيط به الممالك النصرانية، فبقيت مظاهر الخمول والترف

---

(3) بوتشيش، **قراءات جديدة** ، ص77-86.

(4) هذا ما سنتعرض له بالشرح في سياسة السلطة.

(1) ابن خلدون، **المقدمــة**، ص177.

(2) أنظر ما ورد من مظاهر الترف والفساد في الفصل الثاني.

والإكثار من المادة تسيطر على يومياته[3]، ويقابل ذلك لا مبالاة في محاولة إصلاح الأوضاع، لعدم إدراك العواقب، كما أنني أرى أن المجتمع الإسلامي في تاريخ الأندلس، لم يستطع أن يؤثر في العناصر الأخرى بدليل بقاء جلّ أفراد أهل الذمة على دياناتهم، وندرك هذا الأمر لما نلاحظ المناطق الواسعة التي وصل إليها الإسلام، عن طريق الاحتكاك والتأثير فقط، لا عن طريق الدعوة الرسمية، وهذا ما لم يحققه الأندلسيون، فبدل أن يؤثروا في غيرهم، تأثروا بغيرهم، وهم بذلك قد فقدوا طرفاً لا يقل أهمية استغلته قوى الاسترداد المسيحي، يُقال هذا عن عموم أهل الأندلس أما خاصتهم فهم يتحملون القدر الأكبر من مسؤولية تدهور الأحوال، فهم الذين لهم صلة بالسلطة، ولهم نفوذهم السياسي، وأخص بالذكر العلماء والفقهاء، الذين كانوا أكبر المستفيدين من السلطة، كما أنهم كانوا من أكثر الذين ثاروا عليها فيما بعد، وهذا الأمر يجعلنا نُحمل السلطة ما آلت إليه البلاد، لأن هذه الفئة الاجتماعية تحسب على السلطة أكثر للعلاقة الوطيدة بينهما.

يبدو أنّ هناك خللا دب في أجهزة السلطة، ففقدت بذلك أهم عامل من عوامل القوة وهو علاقتها بالمجتمع وثقته فيها، هذه العلاقة التي تُعد أحد أهم الأسس المتينة للدولة، فكيف كان ذلك؟ إن البحث في المصادر يعطينا أمثلة عن سياساتٍ وأخطاءٍ ارتكبها الأمراء والولاة والفقهاء والجند ولا شك في أن هذه السياسات هي التي وسّعت الفجوة بين السلطة والمجتمع، وأنهت وجود المرابطين في الأندلس.

وهذه القراءة ليست تحاملاً على المرابطين، ولا تشهيراً بعيوب سياستهم، فإصلاحهم لحال المغرب وتأسيس دولة قوية ذات أسس ومبادئ تكفيهم شرفاً، وتجربتهم في إعطاء بُعداً وحدوياً للغرب الإسلامي كانت تجربة رائدة ، وتأسيسهم لمراكش، والِنتَاج الفكري الذي كان في عصرهم شواهدٌ مادية ما زالت ماثلة، والأكثر من ذلك أنهم مدّدُوا عمر الإسلام في الأندلس لقرون.

لكن الّتاريخ إذا بقي مجرد افتخار وتمجيدٍ لما سبق فرغ من محتواه وفقد قيمته، فالتجارب السابقة هي تجارب إنسانية، أصابت وأخطأت، والتجربة المرابطية هي الأخرى، تدخل ضمن هذه التجارب لها ايجابياتها وسلبياتها، وهذه السلبيات هي التي أضعفت السلطة وأوهنتها، وضيعت سنداً قوياً، يتمثل في المجتمع، ومهدت الطريق لكل مترصد للمرابطين.

(3) عبد الحليم عويس، **التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس**،مجلة الارشاد، العدد16،السنة الثالثة، رجب1413هـ/1993م الجزائر، ص21 وما يليها. إبراهيم القادري بوتشيش، **إضاءات حول تاريخ الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي**، دار الطليعة، ط1، بيروت، 2002م، ص148 وما يليها.

إنّ السياسة المرابطية تضمنت مظاهر عديدة يجب التوقف عندها إذا أردنا أن نكون موضوعيين، فلا نعتبرها أنا مجرد أعمال عفوية تلقائية، الحقيقة التي لا مراء فيها أن كل عمل تقوم به السلطة من شأنه أن يقرب التمع أو يبعده، فإذا كُنت قد تكلمت في الفصل السابق عن سياسات أدت إلى التفاف التمع حول السلطة، فهناك السياسات التي من شأنا أن باعدت بينهما، نجدها خاصة في المرحلة الثانية من حُكْم المرابطين، بداية من عهد الأمير علي بن يوسف[1] لكن لا يعني ذلك أن العهد الأول كان خالياً من كل التجاوزات، وأن العهد الثاني كان كله تجاوزات، فهناك بعض التجاوزات التي كانت منذ بداية الدولة المرابطية [2]، كما عرف العهد الثاني من الولاة والفقهاء والعسكريين من بقي متسكاً بمبادئ الدولة إلى أن سقطت، ويعني ذلك أن بعض العوامل التي كانت تنخر جسد الدولة لم تكن حديثة، بل كانت ملازمة لها منذ التأسيس، إلا أن المرحلة الثانية كانت أكثر وضوحاً في ظهور بعض السياسات التي عجّلت بإضعاف السلطة وزوال وجودها بالأندلس ويظهر لنا ذلك في أمثلة من السياسات الآتية :

2- مظاهر من سياسة السلطة المرابطية في آخر عهدها:

أ/ سياسة التمييز:

تُعد سياسة التمييز من أخطر السياسات التي تؤدي إلى إسقاط الحكومات والدول ولذلك بدأت الحديث عنها، ولا يمكن التقليل من شأن هذه السياسة، فالعدالة أساس الملك [3] ولذلك نجد أنّ الإسلام حارب كل مظاهر التمييز، وجاءت تعاليم القرآن والسنة تؤكد على العدل، ولعل ارتكاز الدولة الإسلامية على العدل والمساواة يفسر امتداد رقعة الإسلام في بلاد واسعة وضمها لشعوب مختلفة الأجناس والديانات.

ومن مظاهر التمييز في السياسة المرابطية تفضيل العنصر اللمتوني[1] على غيره من العناصر خاصة الأندلسية في إدارة وتسيير شؤون الأندلس[2] فاقتصرت السلطة على العناصر اللمتونية، أما العناصر الأندلسية فقد هُمشت[3] ونجد ذلك في الولاة وقادة الجيوش والوظائف الرفيعة، باستثناء بعض الحالات التي لم ترقَ إلى أن تكون صورة عامة.

---

(1) Vincent LAGARDERE ,*Opcit*, *p221* .

(2) أنظر مثالاً عن السياسة المالية المرابطية، الحبيب الجنحاني، **دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي**، ص90 وما يليها . أنظر: البكري، **المسالك والممالك**، 864/2.

(3) ابن خلدون ،**المقدمـة**، ص313.

(1) Vincent LAGARDERE , ,*Opcit*,*p 13*

(2) دندش، المرجع السابق ، ص123.السامرائي، **حضارة المغرب والأندلس**، ص153.

(3) بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ص127.

وأستأثر الملثمون بكثير من المناصب الإدارية عن غيرهم من الأندلسيين، وبما أن هذه المناصب لها علاقة مباشرة بالمجتمع فان الملثمين كانوا أبعد من أن يتمكنوا من إدارة أعمالهم على أكمل وجه بسبب الاختلاف في الخصائص والطبائع بين العنصر المرابطي الصحراوي والعنصر الأندلسي المتمدن،ولعل هذا ما جعل ابن عبدون ينتقد السلطة في توليتها للملثمين وظائف لها صلة مباشرة بالمجتمع، مثل صاحب المدينة وصاحب المواريث، والقاضي والمحتسب، فهذه مناصب تتطلب معرفة بأحوال الناس، ويقول في ذلك :« لا يجب أن يكونوا إلا أندلسيين، فإنهم أعرف بأمور الناس وطبقاتهم وهم أيضا أعدل في الحكم وأحسن سيرة من غيرهم، وهم أنفع للسلطان وأوثق لأن الرئيس يستحي أن يحاسب في عمله مرابطاً أو ينكر عليه شيئاً مما قد فشا له منه في الخطة التي ولاه» [4] ويصفهم بأوصاف تنم على السُخْطِ كالجهل وسوء السيرة، وفي المقابل يُثني على الأندلسيين إذ يصفهم بالعدل وحسن السيرة كما أشار إلى أن هؤلاء المرابطين كانوا يُطبقون سياسة التمييز ويظهر ذالك في تجاوز السلطة عن أخطائهم وغير ذلك من التجاوزات التي كان يشير إليها ابن عبدون في صور غير مباشرة في تعابيره .

كما كانت هناك ظاهرة تمييز فئة على أخرى، كالتمايز بين طبقات المجتمع، فالطبقة الخاصة احتكرت النفوذ السياسي والثراء المادي، في حين لم تستطع الطبقة الوسطى أن تقوم بتوسيع نشاطاتها وهناك مظهر آخر يتمثل في دور النسب والشرف والمكانة الاجتماعية في إعفاء بعض الأشخاص من الالتزامات الضريبية، أما بقية المجتمع من الفئات المتوسطة والكادحة الذين افتقروا لهذا السند أو ذاك فلم يكن لهم خيار آخر غير أدائها طائعين أو مكرهين [5].

وحمّل الباحث محمود إسماعيل السلطة ما آلت إليه البلاد، واصفاً إياها بالسلطة الإقطاعية العسكرية الطرفدارية[1] إذ تسببت في تعطيل الطبقة الوسطى من المجتمع، فأصبحت محدودة الثروة والنفوذ، بل وجدت نفسها ضمن الطبقة العامة، وهو ما أدى إلى تراجع الدور السياسي والإنتاج الاقتصادي، والأخطر من ذلك الدخول في الفراغ الذي أستغل لبحث كيفية إيجاد موقع لهم لإدارة شؤونهم، في شكل معارضة للسلطة، أما العامة من المجتمع فقد شكلت العنصر البشري لكل الثورات التي قامت ضد السلطة وهو ما يفسر لنا درجة الاحتقان من جراء سياسة التهميش والتمييز.

---

(4) ابن عبدون، **رسالة في الحسبة**، ص16. إحسان عباس، **تاريخ الأدب الأندلسي**، ص46.

(5) بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي**، ص204

(1) محمود إسماعيل، **دراسات في الفكر والتاريخ الإسلامي**، ص31 وما يليها.

ب/ تسلط الفقهاء :

كما ذكرت سابقاً، فانه لم تحظ فئة من فئات المجتمع الأندلسي المتعددة، في عصر المرابطين مثلما حظيت به فئة الفقهاء، فكانت من الطبقة الخاصة، وكانت السلطة تعتمد في سياساتها على الفقهاء وفتاواهم، فكانوا بمثابة الموجهين للسياسية المرابطية، وإليهم يُنسب نجاح السلطة أو فشلها فما دور هذه الفئة في العلاقة بين السلطة والمجتمع؟

يمكننا أن نصنف انتماء الفقهاء إلى الفئتين معاً " السلطة والمجتمع " فهم الفئة المتعلمة في المجتمع، نجدها حاضرة أثناء الاستنجاد بالمرابطين، تتكلم باسم المجتمع وما أصابه من مآسي، لكن بعد قيام السلطة وتولى هؤلاء فيها الدرجات الرفيعة، حيث كان الأمراء لا يقطعون أمرًا إلا بعد استشارتهم، فإنهم أصبحوا يشكلون تحالفاً يدعم سياسة السلطة، إلا فئة قليلة تورعت وحافظت على موقعها الاجتماعي، ومواقفها من السلطة [2].

إن المكانة التي حظي بها هؤلاء عند السلطة واتساع ثرواتهم وجاههم، بفضل الأعطيات والهبات والاقطاعات، جعلتهم يتميزون عن جميع الفئات الأخرى، فوصف ابن خلدون ذلك بقوله: « لأهل العلم بدولتهم مكان من الوجاهة » [3] أما المقري فقد وصف خطة القضاء على أنها أعظم الخطط عند العامة والخاصة [4].

إن هذا التحالف بين السلطة والفقهاء استغله كل طرف في بسط نفوذ، وكانت ضحية التحالف الطبقة العامة من جراء تسلط الفقهاء وحكامهم، وأوردت المصادر أمثلة كثيرة عن هذا التسلط ووصف الفقهاء بأوصاف الاستئثار بالسلطة والجاه والمال والهيمنة على كل عناصر المجتمع الإسلامية وغيرها من أهل الذمة، حتى مقتهم العامة، فبعد أن كانوا آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، أصبحوا يسعون في جمع الأموال، والتقرب من السلطان، فاتهمهم المجتمع بالرياء للبسهم لباس الدين لتحقيق أطماعهم الدنيوية ، وتظهر مختلف الأوصاف التي نعتوا بها من خلال شعراء العصر ومن ذلك ما قاله ابن خفاجة [1]:

درسوا العلوم فملكوا بجدالهم ... بها صدور مراتب ومجـالس
وتزهدوا حتى أصابوا فرصة ... في أخذ مال مساجد وكنائس

---

(2) بوتشيش، المرجع السابق، ص150.
(3) ابن خلدون، **المقدمة**، ص20.
(4) المقري، **نفح الطيب**، 209/1.
(1) ابن سعيد، **المغرب في حلي المغرب**، ص367.

وقال ابن البني [2] يصفهم [3] :

أهل الرياء لبستموا ناموسكـم   كالذئب أدلج في الظلام العـاتم
فملكتموا الدنيا بمذهب مـالك   وقسمتموا الأموال بابن القاسم
وركبتموا شهب الدواب بأشهب   وبأصبع صبغت لكم في العالم

وشملت مظاهر تسلط الفقهاء والقضاة جوانب مختلفة من الحياة، فهناك تسلط على عامة المجتمع، وهناك ما شمل أهل الذمة كما ذكرت آنفا، وهناك تعصب شمل أصحاب المذاهب الإسلامية غير المالكية، وتقييد لحرية الرأي[4] ومن الأمثلة على ذلك موقف الفقهاء من بعض الكتب[5] ومنها كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، حيث أصدر قاضي قرطبة ابن حمدين فتوى بحرقه سنة (503هـ/ 1109م)[6] وكان في قرار الحرق الذي اتخذه الفقهاء حجة بالغة على السلطة وفقهائها، حيث استغل ابن تومرت هذا العمل في هجومه على السلطة وإظهار جهل الفقهاء لعامة المجتمع، لقد جنت السلطة على نفسها بسبب تشدد الفقهاء، حيث نجد أن ابن تومرت على الرغم من أنه لا يأخذ بما ورد في كتاب الغزالي وعلمه، إلا أنه استغل عملية الحرق في الانقضاض على المرابطين[7].

كما شمل الأمر كُتب ابن حزم الظاهري [1] وما يثبت ذلك أن ابن رشد سُئِلَ حول شهادة الرجل الذي يعتنق المذهب الظاهري الذي ينفي القياس في أحكام التشريع الإسلامي، وكان أصحابه يأخذون بظاهر النص دون التأويل فيه، فأجاب ابن رشد عن تلك المسألة، أن من يعتنق هذا المذهب يُعتبر من أهل البدع لأن ذلك خلافٌ لما دلّ عليه القرآن، وأجمع عليه الصحابة، وانعقد به الإجماع[2]

---

(2) هو أحمد بن محمد الجياني المعروف بابن البني، أنظر: المراكشي، المصدر السابق، 130. ويقول في القاضي ابن أسود ينتقده

تَسّمع أمير المسلمـين لنبـأة   تُصَمّ لها الآذان في كل مشـهد
بمرسيـة قاض تجـاوز حده   وأخطأ وجه الرشد في مقصـد
يطالبه الأيتام في جُل مالهـم   ويطلـبه في حقه كل مسجـد
فما بّيضت كفّاك بالعدل لم تزل   تسوده بالجَور كف ابن أسـود

أنظر: ابن سعيد، **المُغرب في حلي المغرب**، 270/2.

(3) المراكشي، **المعجب**، ص130.

(4) بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ص128.

(5) بلغيث، **الحياة الفكرية**، ص151.

(6) ابن عذاري، **البيان المغرب**،4/ 59. مجهول،**الحلل الموشية**، ص105. أنظر:بلغيث، المرجع السابق نفسه.

(7) كان ابن تومرت مخالفاً للغزالي واجتهاداته في استنباط الأحكام وهو ما عليه أئمة المذاهب السنية، إذ نجده ينكر اعتماد الاجتهاد كمصدر من مصادر الشريعة، فهو ينطلق من منطلق الامام المعصوم الذي لا تناقش أحكامه، وهذه النظرية من النظريات التي عارضها الإمام الغزالي، الغزالي، **المنقذ من الضلال**، ص19. عصمت دندش، المرجع السابق، ص40.

(1) بلغيث، **الحياة الفكرية في الأندلس**، ص151.

(2) ابن رشد، **الفتاوى**، 1436/3. كمال السيد، **دراسات أندلسية**، ص24.

كما كانت لهم مواقف متشددة من المعتزلة، فقد سفهوا آراءهم[3]وهذا عكس ما ذكره أحد الدارسين[4]أن المرابطين لم يتعرضوا لأصحاب المذاهب الأخرى، فإذا كان الأمر كذلك فماذا نسمي حرق كتاب الإحياء؟

وبذه الاهتمامات السلطوية المادية التعصبية، كان جُلُ الفقهاء قد ابتعدوا عن الدور الحقيقي المنوط بم، ألا وهو إرشاد وتوجيه السلطة إلى ما فيه صلاح البلاد والعباد، ومن جهة أخرى تحصين المتمع وتعليمه أمور دينه ودنياه ضد أي مؤثرات تطرأ كتلك التي قادها الموحدون[5]. فكان الفقهاء رمزا للجشع والطمع وغيرها من الأوصاف التي تبعدهم عن الوقار والاحترام.

ج/ السياسة الجبائية:

لقد حدد الدين الإسلامي مختلف الالتزامات المالية على المسلمين وغير المسلمين في دار الإسلام، من زكاة وعشر على المسلمين، وجزية وخراج على غير المسلمين، فما مدى التزام السلطة بإتباع تعاليم الدين ونحن نعلم أنا قامت من أجل الإصلاح والدعوة للعودة لهذه التعاليم؟ وكيف كان تأثير الجانب المالي في العلاقة بين الطرفين إذا علمنا أنّ هذا الجانب يُعَدُ من الجوانب الحساسة بين السلطة والمتمع؟

لم تعرف السلطة المرابطية مع تبدل أحوالها وأمرائها ثباتاً في السياسة الجبائية، وذلك على الرغم من أن هذه الدولة انطلقت من قوانين الشريعة التي منها حددت موارد الدولة المالية، وإذا قلنا أن السلطة المرابطية أبطلت العمل بالمكوس والضرائب الباطلة في بداية عهدها[6] فهل حافظت على هذه السياسة ؟

إذا كانت هناك بعض من الكتابات رأت أن السياسة المرابطية لم تكن فيها أي تجاوز [7]فإنّ في ذلك مبالغة، فالسياسة المالية لم تخل من هذه التجاوزات، التي تتنافى مع ما جاء في الشرع من زكاة وعُشُر وجِزْية، وانطلاقاً من هذه الواجبات الشرعية، فقد وُجّهت بعض الانتقادات للمرابطين فيما يخص سياستهم المالية [1] ومِن الانتقادات [2] التي وُجهت لهذه السياسة، ما رآه الأستاذ الجنحاني

---

(3) أحمد أمين، المرجع السابق، 32/3.

(4) عصمت دندش، المرجع السابق، ص 26.

(5) عصمت دندش، المرجع السابق، ص35.

(6) ابن خلدون، المصدر السابق، ص285.

(7) ابن أبي زرع، **الروض القرطاس** .الصلابي، **دولة المرابطين**، دندش، **الأندلس** في **آخر المرابطين**.

(1) الحبيب الجنحاني، المرجع السابق، ص90.

من أن السلطة المرابطية التي قامت على أسس إسلامية لم تلتزم تعاليم الدين في سياستها المالية وذلك منذ نشأتها، ويعطي مثالاً عن تقسيم غنائم القبائل المعارضة لها، وتخميس سبيهم على الرغم من أنها قبائل ليست كافرة [3] كما أنه إذا فرضنا جواز تقسيم الخمس، فالسلطة لم تقسمه على من ذكرهم القرآن، بل كان من النصيب لفقهاء سجلماسة والمرابطين [4].

وبسبب اتساع الدولة فقد فرضت السلطة مكوس ومغارم متنافية مع ما جاء في الكتاب والسنة [5] ومن الأمثلة على ذلك فرض يوسف بن تاشفين ضريبة ثقيلة على اليهود سنة (464هـ/ 1071م) [6] وذلك فوق التزامهم بدفع الجزية، وهو ما ينفي إدعاء ابن ابي زرع من أن المرابطين لم يفرضوا سوى الضرائب الشرعية ووُصِفَ عهد علي بن يوسف بانتشار المكوس والقبالات [7] وذلك على الرغم من مظاهر الرخاء التي خلفها والده، فشملت الضرائب في عهده كل النشاطات الزراعية والصناعية والتجارية، وفسر ابن خلدون انتشار ذلك في آخر الدولة بقلة الجبابي [8] فيحتاج الحاكم إلى فرض الضرائب لتحقيق أمن ملكه من المال، وقلة الجبابي شملت الغنائم والخراج والجزية، وفي مقابل ذلك زيادة الإنفاق بسبب مظاهر المدنية المنتشرة كالترف والبذخ إضافة إلى الإنفاق على الجيش، فلم تر السلطة حلا إلا إثقال الرعية بالضرائب.

ومن الضرائب التي فرضت، ضريبة القبالة التي فرضت على المزارعين، وندد ابن عبدون بطريقة جبايتها [9] إلى جانب قبض الأعشار، كما أن غياب الرقابة جعل الجباة يستبدون في فرض المغارم فكان الفرد يدفع الضريبة أحيانا أكثر من مرة [1] وكان المتقبلون يبالغون في أخذ هذه الضرائب باسم السلطان، ومورس بذلك استبداد على العامة، وكان اتفاقهم يتم مع الوزراء من أجل جمع أكبر قدر من المال ظاهره للدولة وحقيقته لهم [2] وهو ما جعل المجتمع يتذمر من مثل هذه التصرفات.

---

(2) إذا كان ابن أبي زرع لم يفطن إلى هذه التجاوزات، أو غض الطرف عنها، فإنّ البكري -الذي كان معاصراً لفترتهم – قد انتقد المرابطين منذ بداية تأسيس الدولة، في أخذهم ثلث الأموال واقتسامه دون حق من أهالي المناطق التي توسعوا عليها. البكري، المصدر السابق، 864/2.

(3) مجهول، المصدر السابق، ص21، الحبيب الجنحاني، المرجع السابق، ص94.

(4) الحبيب الجنحاني، المرجع السابق، ص95.

(5) الحبيب الجنحاني، المرجع السابق، ص98 .

(6) مجهول، المصدر السابق، ص25.

(7) الجنحاني، المرجع السابق، ص98.

(8) ابن خلدون، المصدر السابق، ص284.

(9) ابن عبدون، المصدر السابق، ص30.

(1) بوتشيش، المرجع السابق ، ص206.

(2) دندش، المرجع السابق ، ص226.

وشملت الضرائب دواب النقل وأضاحي العيد[3]، وهناك ضريبة المرور على الأنار ومن الأمثلة كذلك على مظاهر الإهمال والنهب، ما أورده ابن عذاري أنه بعد جمع المال من أهل غرناطة لإصلاح أسوارها- ويدخل ذلك ضمن ضريبة أُصطلح عليها باسم فريضة التعتيب التي ظهرت بعد غزوة ألفونسو المحارب- [4] إذ قُدم رجل للسهر على هذا المال وحفظه، غير أنه تلاعب به واختلس قدراً كبيراً منه، وعِوَضَ أن يُجْبِرَ والي المدينة المختلسَ على رد المال، فقد ذهب إلى فرض ضريبة تعتيب جديدة على العامة، ويقول ابن عذاري في ذلك واصفاً وضع التمع « وشد الناس في دفع المال وتيب ابن ينالة والي غرناطة، فكان الناس يخافونه لشدته » [5]وضريبة التعتيب كانت سببا في ثورة عامة قرطبة حيث قاموا برجم قاضيهم ابن المناصف بالحجارة، فأمر بسجنهم، وكذلك الأمر بالنسبة لعامة اشبيلية، إذ ثاروا على قاضيهم أبي بكر بن العربي، حين طالبهم بتقديم جلود أضاحيهم لترميم أسوار مدينتهم، بعد السيل الذي أتى على جانب منها [6].

أما العُشر فقد اختلفت طرق تحصيلها من مدينة إلى أخرى، فجباة اشبيلية يخرصون [7] الزرع بالجملة، ويحصلون منه العشر دون معيار معين، وهو ما يؤدي إلى الظلم، فأفتى ابن رشد بعدم جواز خرص الزرع [8] ودعا ابن عبدون إلى أن لا يخرصوا الزرع إلا في الفشقار [9]أي حسب حزم الزرع المحصود، وشدد ابن عبدون في ضرورة مراقبة الخراصين.[10].

ومع استمرار تدهور الأحوال، زاد تفاقم هذه الضرائب التي كانت بمثابة الثغرة التي فسحت الطريق لكل من أراد أن ينهي الوجود المرابطي من الناقمين من كل الفئات الاجتماعية، ومن يؤطرها ويقودها مثل حركة ابن تومرت [1] التي ظهرت في المغرب وانتقلت دعوتا إلى الأندلس حيث عرفت هذه الفترة انتشارًا للفتن والثورات، وسوءً للأحوال الأمنية وركودا اقتصاديا.

---

(3) ابن عبدون، المصدر السابق، ص131. بوتشيش، المرجع السابق، ص206.

(4) بوتشيش، المرجع السابق، ص207. دندش، المرجع السابق، ص226.

(5) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ص ص73، 74.

(6) المقري، **نفح الطيب**، 146/2.

(7) الخرص هو تقدير الغلات، والخراص هو من يتولى ذلك. أنظر: دندش، المرجع السابق**،** ص225

(8) ابن رشد، **الفتاوى**، 1014/2.

(9) الفشقار كلمة أرغونية تعني كومة من حزمات الزرع المحصود، دندش، المرجع السابق، ص226.

(10) ابن عبدون، المصدر السابق، ص6.

(1) بوتشيش، **مباحث** في **التاريخ الاجتماعي**، ص209.

ولم تكتف السلطة بجباية الضرائب، بل نجدها كلفت يهوداً يقومون على جبايتها [2] لأن هؤلاء في نظر السلطة أكثر حزماً وأداءً للواجبات[3] ووصل التشدد بالسلطة في الجباية إلى حد التشدد مع الجباة، ومراقبتهم ومحاسبتهم، وأحياناً مصادرة ممتلكاتهم.

الأمر الآخر الذي يسجل في عدم استقرار السياسة الاقتصادية، هو سياسة إقطاع الأراضي التي تداركته الدولة في عهد علي بن يوسف، فلجأت الدولة إلى محاولة زيادة أراضي الدولة كاستصدار فتاوى لمراجعة أراضي الطوائف، وملكيات أحباس الكنائس [4] وهو ما كان سبباً في الثورة على الإمام ابن رشد [5].

وسبب هذا التراجع في الوضع الاقتصادي وانعكاساته على الجوانب الأخرى إلى اعتماد الدولة في سياستها المالية على موارد غير ثابتة، مثل الغنائم والضرائب والجزية والخراج [6] وإتباعها سياسة داخلية من شأنها أن تُقَوضَ أسس النمو، يضاف إلى ذلك سياسة الإنفاق التي زادت عمّ كانت عليه في السابق، من إنفاق على الجيش، ونفقات مسؤولي الدولة، وهو ما أشار إليه ابن خلدون أنه في آخر عهد الدولة تقل الجابي ويزيد الإنفاق [7] ولذلك آثار وخيمة على الاقتصاد وبالتالي على كل الدولة، إذ انعكست سلباً على المجتمع بإرهاقه بكل أنواع المغارم، وهو ما أدى إلى اتساع الفجوة بين السلطة والمجتمع؛ وتعد السياسة المالية من الفجوات الهامة التي فسحت الطريق للثوار والموحدين الذين ظهرت ثورتهم في أولها كثورة اجتماعية قامت بها الطبقة الفقيرة ضد السلطة التي أرهقتها بالضرائب [8] وتضررت بفعل الأزمة المالية [9].

د/ الظلم والفساد:

لم يثبت الجيل الثاني من المرابطين أمام إغراءات الحضارة الأندلسية، فانغمسوا في أنواع من الترف واللهو والملذات ومعاقرة الخمر[1] وانعكس ذلك سلبا على المجتمع، فانتشرت مظاهر الظلم والفساد التي وسعت الفجوة بين السلطة والمجتمع .

---

(2) دندش، المرجع السابق، ص 229 وما يليها.

(3) يوسف أشباخ، **الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، 239/2.

(4) الونشريسي، **المعيار المعرب**، 8/39-45.

(5) عز الدين أحمد موسى، **النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي**،دار الشرق، بيروت، ط1، 1403هـ/1983،ص141.

(6) بوتشيش، المرجع السابق، ص121.

(7) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ص284، 285.

(8) عصمت دندش، المرجع السابق، ص 37.

(9) عصمت دندش، المرجع السابق، ص45.

(1) بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين** ، 128. بوتشيش، **اضاءات**، ص 151 وما يليها.

تعرض الأندلسيون إلى مظاهر مختلفة من الظلم والجور، من قِبل مسئولي السلطة من ولاة وفقهاء، تجلى ذلك في السياسات التي سبق ذكرها، فكانت هناك حالة نفور واحتقان وكراهية من التمع للمرابطين، خاصة في آخر عهد السلطة، ومن الأمثلة على ذلك ما قام به ابن ينالة والي غرناطة فقد ذكر ابن عذاري أنه ظلم واعتدى على علماء وفقهاء جيان بسجنهم، ويصف عزله بقوله: « وفرج الله بعزلة ينالة عن المسلمين الغمة، وانفرجت الضيقة بالأندلس »[2] و « وكان ينالة إذا عاقب اعتدى، وإذا أوتي بالبريء لم يسمع منه، وكان له يهودي يبغض الناس، ويبغضونه، اشأم قسمة على نفسه ورئيسه ومن اتصل به » [3].

وعلى غرار ذلك فقد وقعت بعض الحوادث، من قِبل الجند المرابطين، ما أدى إلى إثارة أهل الأندلس، ومنها ما وقع في عهد علي بن يوسف، أنّ جندياً من جنود عامل قرطبة " أبو يحي بن داود" أمسك بامرأة من المتفرجات في عيد الأضحى، فاستنجدت بالمارين، وتطورت الحادثة إلى حرب بين السكان والجنود، وأفتى فقهاء العصر – أبوعبد الله محمد بن الحاج الشهيد وابن رشد الجد – على العامل بقتل المسئول عن الحادثة، فأغضبه ذلك، وقام يهيئ لحرب لم يدرك عواقبها، إذ أدى ذلك إلى حرق قصره، ونب دور المرابطين، وتدخل علي بن يوسف سنة(515هـ/1121م) فحاصر قرطبة، وتم تغريم أهل قرطبة من الذين أحرقوا الدور [4] .

وحادث آخر من هذا القبيل يورده ابن عذاري، وذلك أنه عسكرت محلة من المرابطين بضواحي بلنسية، فعمد لذريق – صاحب بلنسية – إلى اخراج الضعفة من النساء والولدان من المسلمين إلى المحلة، وقال: ألحقوا بأهل ملّتكم، فوقعن في أيدي السودان، وخدمة الدواب والسفلة من الباعة فغلبوا عليهن وفسقوا بن [5]

ووصلت الأوضاع إلى درجة اليأس الذي بدا واضحاً في كتابات بعض المعاصرين لهذه الحقبة، فيصف أبوبكر بن العربي هذه الحالة قائلاً: « وقد عظم الخطب في هذا الزمان حتى لا يدري العبد على أي شيء يبكي، أعلى فوات دنياه، أم على فوات دينه، أم على اخوانه في القربات، أم على أعوانه على الصالحات، أم على دروس العلم وطموسه، أم على اتفاق الخلق على انكار المعروف

---

(2) ابن عذاري، المصدر السابق، 4/ 75.

(3) ابن عذاري، المصدر السابق، 4/ 77.

(4) مجهول، المصدر السابق، ص86. بلغيث، المرجع السابق، ص77.

(5) ابن عذاري، المصدر السابق، 35/4.

وتعريف المنكر، أو على نفسه التي لا تطاوعه على طاعة، أم على ولده الذي لا يرى فيه للعين قرة أم على جاره الذي لا يغمص له على عورة، أم على أميره الذي لا يرعى فيه إلاً ولا ذمة » [1]

المبحث الثالث : انقلاب المجتمع الأندلسي على السلطة والمساهمة في إسقاطها :

إن ما جناه الجباة من أموال العامة، تجلى في مظاهر عيش فئات الطبقة الخاصة، وعلى رأسهم الولاة، ويعتبر ذلك تحولاً جذريا في سلوك مسئولي الدولة إذا ما قارناه بما كان عليه سلفهم، ويعني أن هناك تحولاً واضحاً في سياسة الحكام المرابطين، حيث الانتقال من حياة البساطة الصحراوية التي يقتصرون فيها على الضروري، إلى مظاهر الحياة المدنية التي يميزها الترف والبذخ في المأكل والملبس والمسكن، وهذا التحول كان في عهد الجيل الثاني من ولاة الأمور[2]، وهو ما أدى إلى انعكاسات سلبية ساهمت في تقويض السلطة، وبدلت نظرة المجتمع نحوهم، فأصبح الأندلسيون ينظرون إلى تأثر هؤلاء الصحراويين البدو الذين لا عهد لهم بحياة المدينة والمدنية، يتأثرون بأوصاف أهل الأندلس[3] ويسرفون في ذلك، ما أدى إلى الانتقاص من قيمتهم[4]. ولا يمكننا إنكار نظرة الأندلسيين للمغاربة عموماً التي يميزها الاستعلاء، إلا أن هده النظرة تبددت لما احتاج الأندلسيون للمغاربة واستنجدوا بهم، لكن سرعانما عادت هذه النظرة من جديد في المرحلة الأخيرة من الحكم المرابطي للأندلس ويدل ذلك على أن طبيعة نظرة الأندلسيين للمغاربة لا تحكمها أصول الأجناس وألوانهم، بقدر ما تحكمها نوع السياسة الممارسة، فمثلا السياسة المالية الجائرة باعدت بين المجتمع والسلطة[5] وهذا ما لم يحدث في بداية الحكم المرابطي الذي ميزه نوع من العدالة التي نتج عنها الالتفاف والتعايش.

إن السياسات التي سبق ذكرها من تعصب وتمييز للعنصر المرابطي على العنصر الأندلسي إضافة إلى ظلم مادي يتمثل في دفع الضرائب المتنوعة والمختلفة، وإهمال الرعية وظلمها، وهناك صور كثيرة لهذا الإهمال، كل ذلك انعكس سلباً على نفسيات أهل الأندلس، وساهم في توتر العلاقة بين المجتمع والسلطة وجر البلاد إلى حال شبيهة بما كانت عليه في عهد ملوك الطوائف، فقد خضعت من جديد لسياسة الإهمال والاستبداد السياسي، ويتجلى ذلك ابتداءً من عهد علي بن يوسف[1].

وقد أسهب المراكشي في ذكر ما آلت إليه الأندلس في هذه الفترة وتبيان أسباب ذلك ويحمل المسؤولية كاملة في ذلك للولاة المرابطين واستبدادهم حتى على أمير المسلمين نفسه الذي

---

(1) بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ص129.

(2) بوتشيش، **اضاءات**، ص151.

(3) ليفي بروفنسال، **الحضارة العربية في اسبانيا**، ص31.

(4) حسن محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص414.

(5) بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ص ص53، 54.

(1) المراكشي، **المعجـب**، ص135.

يحمله المسؤولية في تضييع شؤون الرعية، ويقول في ذلك : « فأما أحوال جزيرة الأندلس، فانه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف، اختلت أحوالها اختلالا مفرطا، أوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم وميلهم إلى الدعة،وإيثارهم الراحة وطاعتهم النساء[2] فهانوا على أهل الجزيرة وقلوا في أعينهم، واجترأ عليهم العدو،واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم،وكان أيضا من أسباب ما ذكرناه من اختلالها قيام ابن تومرت بسوس واشتغال علي بن يوسف عن مراعاة أحوال الجزيرة »[3].

يُفهم من قول المراكشي تحميله مسؤولية الأوضاع التي آلت إليها الأندلس، كاملة السلطة المرابطية من أمراء وولاة وبقية المسئولين، بسبب سياسة التواكل وإهمال الرعية، وتفضيلهم الراحة والدعة بدل الاهتمام بشؤون الدولة، وهو ما أذهب هيبتهم ومكانتهم أمام المجتمع، وأمام كل من أراد أن يتغلب على شؤون البلاد، وفي ذلك إشارة للثوار من داخل الأندلس، والموحدين الذين صرح باسم قائد حركتهم، ونخص بالذكر الثورات الداخلية، التي تدخل ضمن فئات المجتمع الأندلسي.

1/ ثورات العامة والمريدين :

لم تكن للطبقة العامة ثورة واضحة المعالم والأهداف والسياسة، بل نجدهم في حالتين: إما الغضب لسبب من الأسباب، فيثورون ثورة محدودة المجال الزمني والمكاني، وبالتالي فهي محدودة النتائج، أما الحالة الأخرى التي نجدهم فيها والتي كان لها أثر، حين يُكوِّنُونَ العنصر البشري لأي ثائر من الثوار، إذ نجد أنّ الثّوار استغلوا الواقع الاجتماعي لهذه الفئة في الثورة على السلطة، ومن الأمثلة عن الحالة الأولى التي تخص غضب العامة من سياسة السلطة ورموزها كثيرة، أخذت صوراً مختلفة ففي سنة(514هـ /1120م) وقعت بين العبيد وأهل قرطبة فتنة أدت إلى الهجوم على قصر الوالي ونهب ما فيه، وأحرقوا دور المرابطين، وتعرض عامة قرطبة ليهودها بالقتل والنهب[1]، والثورة ضد القاضي أبي بكر بن العربي باشبيلية[2] الذي يعد أحد رموز السلطة المرابطية، هذه أمثلة وجيزة تبين حالة عدم

---

(2) ذكر المراكشي أسبابًا أدت إلى زوال دولة المرابطين، ومن بين هذه الأسباب المكانة التي حظيت بها النساء في العهد المرابطي ونفوذهن في بلاط الحكم، إلا أن هذا السبب لا يلقى ما يدعمه من أدلة، ويستدل الموحدون واتهاماتهم في ذلك على انتساب كثير من المرابطين إلى أمهاتهم، لكن لا يعني بالضرورة الانتساب إلى الأم نفوذ النساء وسيطرتهن، بل لا يعدوا ذلك مجرد العادة التي جرت على ألسن اللمتونيين ، ومن الأدلة التي تضعف قول المراكشي أن هذه الرواية اقتصرت على المراكشي، فلم يذكرها أحدٌ من الكثيرين الذين أرّخوا للمرابطين، لا من المعاصرين ولا من الذين جاؤوا من بعدهم كما أنّه لا يستبعد من مؤرخ موحدي أن يُلصق تهمة بالمرابطين، حيث نجد أنّ الموحدين لم يتورعوا في طمس كل ما خلفه المرابطون.أنظر: دندش، المرجع السابق، ص28.

(3) المراكشي، المصدر السابق، ص154.

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، 93/4.

(2) ابن عذاري، المصدر السابق نفسه.

الاستقرار والتعبير عن الرفض للسياسة فهي لا تتميز لا بالتنظيم ولا الانتشار ولا القوة،حتى الأهداف لا توجد هناك أهداف مسطرة، إلا ما نسميه بمحاولة شد انتباه السلطة للأوضاع السائدة، أما النموذج الثاني فيتمثل في انظمامهم لفئة من الفئات الثائرة، ويظهر لنا خاصة في ثورة المريدين.

لقد كانت ثورات المريدين رد فعل على الأوضاع السائدة سواء الانحلال الذي ينتشر في المجتمع[3] أو الفساد السياسي والتغاضي عن حل المشاكل الاجتماعية من قِبل السلطة، إضافة إلي بنية الدولة التي انقسم فيها المجتمع إلى طبقتين خاصة ثرية، وعامة محرومة، والأساس القبلي الذي اعتمدت عليه الدولة، وتهميش دفع فئات المجتمع للظهور بشكل من الأشكال [4].

وفئة المريدين فضلت حياة الزهد والتصوف، والابتعاد عن مظاهر الفساد وحياة الملذات وانتشرت الصوفية في جُل المدن الأندلسية وأصبح لها مدارس ومشايخ[5] وتجاوز اهتمامها مجال الفرد إلى الجماعة، وهو ما يعني أنّ المشروع التغييري للأوضاع ستتولاه فئة من المجتمع، لتقوم بالثورة على الأوضاع السائدة، وهو ما سيؤدي إلى التأثير على السلطة.

هذا ما أدركته السلطة عن طريق نخبتها من الفقهاء لذلك وقفت موقفاً متشدداً من هذه الفئة، من أجل الحد من انتشار هذه الظاهرة، التي أصبح بعض منتسبيها ينشر فكر الثورة على السلطة وتغييرها باستخدام القوة[6]. فكانت هناك مراقبة صارمة لهم، وتجاوز الأمر ذلك أحيانا إلى درجة الاعتقال والسجن لكن يبدو أنّها لما عجزت عن تتبعهم، حاولت احتواءهم [7]وكانت هناك مواجهة بين المريدين والفقهاء، ومن مظاهر ذلك مهاجمة ابن العريف [8] الفقهاء فوصفهم بأشنع الأوصاف وتصدى لحملته قاضي قضاة الشرق أبو بكر محمد بن أسود، فأوغر صدر الأمير علي بن يوسف عليه، فأُرسِلَ مقيداً نحو العاصمة، فتعرض لاغتيال شنيع [1]وكان مصير ابن برجان السجن فلقي

---

(3) عصمت دندش، المرجع السابق، ص50. بوتشيش، المرجع السابق، ص127.

(4) بوتشيش، المرجع السابق، ص128 وما يليها.

(5) أنظر عن مدرسة المرية في الفصل الثاني ص 89.

(6) عصمت دندش، المرجع السابق، ص65.

(7) بوتشيش، المرجع السابق، ص ص150، 151.

(8) أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاءالله الصنهاجي الأندلسي المري،(481هـ -536) كان من كبار الصالحين والأولياء المتورعين، له مناقب مشهورة، خلّف كتاب"المجالس" وكان العباد وأهل الزهد يألفونه، وكانت بينه وبين القاضي عياض مكاتبات حسنة، توفي بمراكش بعد ان استدعاه الأمير علي بن يوسف. أنظر:ابن بشكوال، **الصلة**،ص81. الضبي **بغية الملتمس**، ص156. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، 168/1، 169. ابن سعيد، **المغرب** في **حلي المغرب**، 211/2.

(1) ابن بشكوال، **الصلة**، ص ص81، 82، ابن خلكان، المصدر السابق نفسه.

حتفه فيه [2] ولكي تبرر السلطة أعمالها، اتم الفقهاء هؤلاء المتصوفة بالخروج عن الشرع،والقول بالتأويل وهناك من يرى أنّ هذا الصراع الذي ظاهره صراع بين مذهبي لكن حقيقته صراع اجتماعي

وخطط الاتجاه المتطرف وعلى رأسه أبو القاسم أحمد بن قسي [3] للثورة على السلطة [4] فكوّن مجموعة ظاهرها دينية صوفية وحقيقتها حركة سياسية، تعمل من أجل تقويض الحكم المرابطي [5] وكان ابن قسي قد استغل الزمان المناسب للثورة، وذلك بعد أن أيقن أنه لا اعتدال مع السلطة، التي قضت على أقطاب الاتجاه المعتدل " ابن برجان" [6] و "ابن العريف"، وفي نفس الوقت فقد خلى له الجو لتزعم الصوفية، ويوجهها حسب أفكاره الثورية [7]،بعد أن أصبحت السلطة بين عدة أخطار، حيث ثورة الموحدين قد اشتدت في المغرب، مما جعل إرسال الامدادات للأندلس تتوقف، واستمرار خطر النصارى في الأقاليم الشمالية. في هذه الظروف شن المريدون هجومات على حصون المرابطين،كحصن منتيقوط سنة (538ه/1144م) وإذا كانت هذه المحاولة قد فشلت [8] فإنّ هجومهم على حصن ميرتلة قد تم اقتحامه سنة (539ه/1144م) [9] .

وخطب ابن قسي في الناس للثورة على المرابطين واستجاب له أهل شلب وأهل يابرة واستولى المريدون على حصن مرجيق، وقتلوا المرابطين الموجودين فيه، وأعلن مرابطو باجة الدخول في طاعة ابن قسي [1] وكما ذكرت فإن توسع المريدين ليس لقوتم، بل لتعدد الجبهات والثوار على السلطة وإلى جانب هذه الجبهات التي ذكرتا ثار الفقهاء والقضاة في مناطق متعددة .

---

(2) ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص249.

(3) ابا القاسم أحمد بن الحسين بن قسي، عمل في بداية حياته في الأعمال المخزنية، ثم تنسك وراسل ابن العريف، باع ما يملك وتصدق بثمنه، وساح في البلاد، ثم شرع في كتابة رسائله، انتقل إلى مدرسة المريدين بالمرية حيث التقى ابن العريف، ثم عاد إلى شلب وبدأ في جمع الأنصار وإعدادهم للثورة على السلطة، من أهم مؤلفاته "خلع النعلين واقتباس الانوار من موضع القدمين" ابن الابار، **الحلة السيراء**،197/2. بلغيث، المرجع السابق، ص430.

(4) المراكشي، **المعجب**، ص155، بوتشيش، المرجع السابق، ص163 وما يليها .LAGARDERE ,*Opcit ,226*

(5) عصمت دندش، المصدر السابق، ص70.

(6) هو أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن برجان، اللخمي الاشبيلي، أحد متصوفة قرطبة كانت له نفس المواقف مع ابن العريف، فرّ إلى ميورقة، وكانت له مراسلات مع ابن العريف، توفي (536ه/1141م) من مؤلفاته:شرح أسماء الله الحسنى، تفسير القرآن الكريم،إيضاح الحكمة بأحكام العبرة،.أنظر:بلغيث،المرجع السابق، ص428

(7) بوتشيش، المرجع السابق، ص168.

(8) ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص250.

(9) ابن الخطيب، المصدر السابق، ص250. ابن الأبار، **الحلة السيراء**، ص308.

(1) ابن الأبار، المصدر السابق، ص203.

وأصبح هذا التوسع يهدد نفوذ السلطة، فتولى ابن غانية قيادة جيش المرابطين لملاحقتهم وقضى على كثير منهم، أما البقية فقد تحصنت في حصون لبلة [2] ولما أدرك ابن قسي التهديد المرابطي لحركته لجأ إلى سياسة التحالف ضد السلطة مع الموحدين [3] إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً ومن الأمثلة عن ذلك، أنه أمد أحد الثائرين ضد الموحدين بالمساعدات وهو محمد بن هود الماسي الذي ظهر بالسوس [4] ثم انه لم يتحرج من التحالف مع ملك البرتغال هنركيز [5] وهو ما نفر عنه مريديه وأتباعه، وأضعف حركته [6] فكان حتفه على يد أحد أتباعه [7] إلا أنّ حركته تبقى من أكبر ثورات غرب الأندلس التي تعبر عن رفض المجتمع لسياسة السلطة .

2/ ثورات الفقهاء وغيرهم من الخاصة:

لقد أدت هذه الأوضاع إلى انتشار الفوضى والفتن والثورات، ليس من قِبل العامة والمريدين فحسب إنما من قِبل عناصر الطبقة الخاصة، من الفقهاء والجند والبيوتات الكبرى، هذه الفئات التي كانت تعيش وضعا اجتماعيا مريحا ومستقراً؛ فراح كل طرف يستبد بإقليمه، وبدأت تظهر من جديد ملامح عصر ملوك الطوائف.

ويصف المراكشي هذا الوضع قائلا: « ولما رأى أعيان تلك الجزيرة ما ذكرناه من ضعف أحوال المرابطين، أخرجوا من كان عندهم من الولاة، واستبد كل منهم بضبط بلده، وكادت الأندلس تعود إلى سيرتا الأولى بعد انقطاع دولة بني أمية» [8] وهذا ما يفسر لنا هشاشة العلاقة بينها وبين السلطة حتى في فترة الاستقرار، وضعف الولاء الذي كان يتبدد يوماً بعد يوم مع اقتراب زوال السلطة، معنى ذلك أن الولاء للسلطة يرتبط بقوتا وضعفها، إلى جانب سياستها التي قد تجذب المجتمع أو تنفره، فتبدل السياسة المرابطية أدى إلى ثورة اجتماعية على السلطة، وشملت الثورة أوجه

---

(2) ابن الأبار، المصدر السابق، 206/2. بوتشيش، المرجع السابق، ص170.

(3) بوتشيش، المرجع السابق، ص170.

(4) الماسي أصله من سلا، خرج بالسوس داعياً ضد الموحدين، وجمع لمحاربتهم جيشاً كبيراً، حقق انتصاراً عليهم لكنه هُزم وقُتل. أنظر: ابن الخطيب، المصدر السابق، ص251. ابن الخطيب، **الإحاطة**، ص263 .

(5) ابن الأبار، المصدر السابق، 308/2.

(6) ابن الأبار، المصدر السابق، 309/2.

(7) ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص252.

(8) المراكشي، **المعجب**، ص154.أنظر: ابن الخطيب، المصدر السابق، ص248.

مختلفة، فقد مهد الشعراء والكتاب، الذين نعتوا المرابطينَ بأرذل الأوصاف، مهدوا نفسيات أهل الأندلس للثورة، ومن الأمثلة على ذلك ما قاله اليكي [(1)].

وعلى غرار الشعراء الذين لم يكونوا من المحظوظين بقدر كبير لدى السلطة، فإننا نجد أن الكتاب الذين كانوا من الطبقة الخاصة، لا يتورعون في وصف المرابطين بشتى نعوت السخرية والانتقاص من مكانتهم، ويتجرؤون في ذلك، ومن أهم الأمثلة على ذلك أنه لما طلب الأمير علي بن يوسف من ابني أبي الخصال [(2)] أبي عبد الله وأبي مروان أن يكتبا لجند بلنسية حين تخاذلوا وتواكلوا حتى هزمهم ابن الرذمير، وقتل منهم عدد كثير فكتب أبو عبد الله رسالته المشهورة بانتشارها في التمع الأندلسي، ومن بين ما جاء فيها: « أي بني اللئيمة وأعيار الهزيمة إلام يزيفكم الناقد، ويردكم الفارس الواحد؟ فليت لكم بارتباط الخيول ضأنا لها حالب قاعد، لقد آن أن نُوسِعَكُمْ عقاباً، وألا تلوثوا على وجه نقاباً، وأن نعيدَكم إلى صحرائكم، ونُطَهِّرَ الجزيرة من رحضائكم » [(3)] ويُفهم من ذلك أنّ ابن أبي الخصال على الرغم من تنعمه من قربه للأمير إلا أنّه لم يستطع أن يكبح ما في خلده من كره وضغينة، يكنها للمرابطين، وصب غضبه على الحامية المرابطية، وكشف ما يُكنه جُلُ الأندلسيين، بدليل أن رسالته حفظها معظم أهل الأندلس، لما جاء فيها من سخط وذم صريح [(4)] .

---

(1) اليكي هو أبوبكر يحي بن عبد الجليل بن سهل اليكي (ت 560هـ)، أديب وشاعر تصرف في فنون، ومنه الهجاء، يصفه ابن سعيد قائلاً: هجّاء المغرب، ابن رومي عصرنا، وحطيئة دهرنا، ولا تجيد قريحته إلا في الهجاء. أنظر: ابن سعيد، **المُغرب** في **حلي المغرب** 266/2، 267. الضبي، **بغية الملتمس**، ص467. المقري، المصدر السابق، 181/4.

يقول في هجاء المرابطين:

إن المرابــط باخــل بنوالــه ... لكنــه بعيالــه يتكــرم

الوجه منه مخلق بقبيح مــا ... يأتيه فهو من أجله يتلثم

وفي كل من ربط اللثام دناءة ... ولو أنه يعلو على كيــوان

المنتمون لحمــير لكنهــم ... وضعوا القرون مواضع التيجان

لا تطلبن مرابطاً ذا عفــة ... واطلب شعاع النار من الغدران

إنّ المرابط لا يكون مرابطاً ... حتى تراه إذا تــراه جبانــاً

تجلوا الرعية من مخافة جوره ... لجــلائه إذ يلتقي الأقرانــا

إن تظلمونا ننتصف لنفوسنا ... يجني الرجال فنأخذ النسوانا

أنظر : المقري، المصدر السابق، 181/4 . ابن سعيد، **المغرب** في **حلي المغرب**، 267/2، 268.

(2) من كتّاب علي بن يوسف بن تاشفين، وكان محمد بن مسعود بن عبد الله بن أبي الخصال(ت 540هـ) من أنبه الكتاب متقدم في اللغة والآداب، والكتابة والخطابة والشعر، توفي مقتولاً. كما كان أبو مروان بن عبد الملك بن عبد العزيز من الكتاب البارزين . أنظر: الضبي، **بغية الملتمس**، ص124. المراكشي، **المعجب**، ص132. ابن خاقان، **قلائد العقيان**، ص 199. ابن بشكوال، **الصلة**، ص458. ابن سعيد، **المُغرب** في **حلي المغرب**، 68/2.

(3) المراكشي، **المعجب**، ص ص 134، 135.

(4) جمعة شيخة، المرجع السابق، ص129.

ومن أهم ثورات الطبقة الخاصة ثورات الفقهاء التي انطلقت من قرطبة، حين خرج الأمير أبو زكريا يحي بن غانية منها متجهاً إلى اشبيلية لمنع توسع حركة المريدين، حيث ثار عامة قرطبة على نائب ابن غانية أبوعمر المسوفي[1] وخلعوا دعوة المرابطين، واتفقوا على مبايعة القاضي أبي جعفر بن حمدين سنة (539هـ/1144م) فسكن قصر الإمارة وتسمى بأمير المسلمين وناصر الدين، وهاجم أهل قرطبة المرابطين، وهو ما جعل ابن غانية يعود مسرعا.

لقد ازدادت حال قرطبة سوءً، وذلك بسبب تعدد ولاءات أهلها، فهناك من وقف إلى جانب ابن حمدين، وهناك من ناصر ابن قسي وهم مريدو الربض الشرقي، وفئة أخذها الحنين لحكم سيف الدولة ابن هود، كما لا ننسى أن هناك من القرطبيين من بقي محافظاً على ولائه للسلطة المرابطية[2] على الرغم من ضعفها، والأمر الذي شهدته قرطبة من صراع متعدد الأطراف، امتد إلى غرناطة[3].

وصاحب هذه الأجواء دخول الموحدين في الصراع للسيطرة على المدن الأندلسية، وهو الأمر الذي يفسر خضوع ابن غانية للصلح مع أعدائه من النصارى[4] ولم يقتصر التحالف مع النصارى على المرابطين، بل إننا نجد القاضي ابن حمدين هو الآخر يحالفهم؛ ومن القضاة الثائرين القاضي أبو الحكم بن حسون الذي دعا لنفسه بمالقة (539هـ/1145م) وحاصر اللمتونيين وأخرجهم وتلقب بالأمير[5] وثار ببلنسية القاضي أبو عبد الملك مروان بن عبد العزيز[6] على واليها عبد الله بن غانية[7] وتوسع على قلعة شاطبة ولقنت، إلا أن عدم قدرته على إدارة شؤونا أدى إلى الانقلاب عليه هو الآخر[8] وظهر بمرسية القاضي أبا جعفر محمد بن أبي جعفر الخشني [9] وتسمى بالأمير الناصر لدين الله، وحرض أهلها على قتال المرابطين، ولم يدم الأمر له بعد مقتله من قبل المرابطين (540هـ/1145م) [10].

---

(1) كان يحي بن غانية قد غادر قرطبة متجها بقواته إلى اشبيلية لحمايتها من المريدين، وهو الأمر الذي فسح المجال لثورة أهل قرطبة.

(2) عصمت دندش، **الأندلس** في **نهاية المرابطين ومستهل الموحدين**، ص77.

(3) عصمت دندش، المرجع السابق، ص77.

(4) ابن الخطيب، المصدر السابق، ص254.

(5) ابن الخطيب، المصدر السابق، ص255.

(6) هو ابن القاضي الحسن بن عبد العزيز قاضي بلنسية، أنظر الضبي: **بغية الملتمس**، ص296.

(7) هو ابن أخ الأمير أبي زكريا يحي بن غانية.

(8) عصمت دندش، المرجع السابق، ص89.

(9) ابن الخطيب، المصدر السابق، ص258.

(10) ابن الخطيب، المصدر السابق، ص258.

غير أن بعض القضاة وقفوا موقفا معارضاً من هذه الانقلابات، ومن بينهم القاضي أبو جعفر بن الحسين بن الحسن الأزدي، فنجده حين طلب منه القاضي مروان بن عبد العزيز أن يشهد على بيعته، رفض قائلا له : « والله لا أفعل وبيعة تاشفين في عنقي » [1].

واستمرت مرسية وغيرها من مدن الأندلس على هذا الحال من الصراع حتى آلت للموحدين وسارع هؤلاء المتمردين والثوار من الفقهاء والمريدين إلى إعلان الولاء لهم الواحد تلوى الآخر [2].

ومن الخاصة الذين انقلبوا على السلطة نجد الجند، إلا أن ما ميز الجند أنم لم يكونوا يتولون أمر الحكم، بل كان دورهم الإطاحة بمن يشاءوا، وتعيين من يريدوا، ومن بين هؤلاء الجند علي بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول المرابطي، الذي دخل في طاعة الموحدين (540هـ/1145م) [3].

3/ نهاية السلطة المرابطية:

ومن الأسباب التي زادت الأندلس سوءً ظهور ثورة الموحدين بالمغرب، وهو ما شغل السلطة عن الرعية، حيث أستدعي تاشفين بن علي إلى المغرب وأخذ معه عدداً من قوات المرابطين وهو ما يعني أن قوات المرابطين أصبحت بين عدة جبهات للمواجهة، النصارى من الشمال والموحدين من الجنوب فساهم ذلك في تأجيج تمردات الأندلسيين، الذين كانوا بمثابة قوة ثالثة ضد السلطة، وهي قوة التمع الذي أصبح يرى أن هذه السلطة ضعيفة ولا تستطيع أن تدير شؤونه[4] ويصف صاحب الحلل هذا الواقع قائلا: « وكان أعظم ما تأيد به عبد المؤمن على المرابطين، قيام أهل الأندلس عليهم لكونم أخلوها من حماتا وأسلحتها »[5]، وفسح الال أكثر لهؤلاء الثوار خاصة بعد مصرع الأمير تاشفين بن علي الذي كان يمثل حينذاك قوة السلطة في الأندلس[6].

وتتبع الموحدون وعلى رأسهم ابن تومرت المصمودي جميع الانزلاقات التي وقع فيها المرابطون بسياساتم فكانت بمثابة الثغرات التي توغل من خلالها الموحدون، فكانت ثورة ابن تومرت ثورة منظمة مستغلة لجميع الظروف والأطراف؛ ومن هذه الثغرات حمل لواء محاربة الظلم الاجتماعي الذي يظهر في الأعباء المالية، وتدني الأحوال الاجتماعية، وهو ما جعله يكتسب قاعدة شعبية واسعة

---

(1) ابن الأبار، التكملة، 636/1، 241 .

(2) ابن الخطيب، المصدر السابق، 264.وفي هذا الصدد يستثنى ابن مردنيش من ثوار الأندلس الذين لم يستسلموا لدخول الموحدين، فقد استمر مسيطرا على شرق الأندلس حتى وفاته(567هـ/1171م) ، أنظر: ابن الخطيب، المصدر السابق 263. دندش، المرجع السابق، ص94.

(3) ابن عذاري، المصدر السابق، ص83.

(4) عصمت دندش، المرجع السابق، ص34.

(5) مجهول، المصدر السابق، ص132. دندش، المرجع السابق نفسه.

(6) عصمت دندش، المرجع السابق، ص49.

واستغل موقف عامة التمع من الفقهاء، فشن هجوماً عليهم، واتهمهم بالتعصب والجهل الذي ظهر في إحراق إحياء علوم الدين، فكان له بذلك أن هيأ النفوس لتقبل دعوته ومن ثم القيام بثورته، إذ أن نشأة الدعوة الموحدية كانت في أوساط العامة من التمع.

ولم يشرع الموحدون في اقتحام الأندلس إلا بعد أن سيطروا على المغرب، وقضوا على المرابطين فيه،حيث تم القضاء على الأمير تاشفين بن علي في وهران، وتتبع أثرهم في حواضر المغرب وعلى رأسها مراكش عاصمة المرابطين التي سقطت سنة(541هـ/1147م) [1].

فالموحدون استغلوا ثوار الأندلس في دعمهم للإطاحة بالسلطة، حتى أن عبد المؤمن بن علي كان يرسل بعض جيوشه للأندلس لمساعدة الثوار، وتمهيد الطريق للموحدين [2] وكان هؤلاء الثوار قد أعلنوا ولاءهم للموحدين[3] واثر تيئة الظروف والتنسيق مع الثوار، أرسل عبد المؤمن بن علي أول جيش موحدي بقيادة أبي إسحاق برلز بن محمد المسوفي، وهو أحد قادة الجيش المرابطي وصاحب هذا الجيش الثائر أحمد بن قسي[4] فاستولى الموحدون على الجزيرة الخضراء وطريف[5] واتجه التوسع الموحدي نحو الجهة الغربية، ثم الاستيلاء على اشبيلية(541هـ/1147م)،وأعلن أهلها البيعة بقيادة القاضي أبي بكر بن العربي[6]وعلى الرغم من وقوع بعض الأحداث في المغرب والأندلس التي كادت أن تقضي على دعوة الموحدين، مثلما قام به الموحدون لأهل اشبيلية، إذ سفكوا الدماء ما أدى إلى حدوث ثورة ضدهم، شارك فيها المرابطون[7]وثار حليف الموحدين ابن قسي، وأكثر تلك الثورات أثرا تلك التي قادها الماسي[8]بالمغرب، فلم تبق لهم من السيطرة إلا على مراكش وفاس [9] وكذلك ثورة أهل سبتة، التي انتهت بقمع الثوار[10] إلا أن المرابطين لم يكن بمقدرتم مقاومة

---

(1) ابن عذاري، المصدر السابق ، ص ص27، 30. مجهول، المصدر السابق، ص137.

(2) دندش، المرجع السابق، ص104.

(3) من بين الذين اتصلوا بالموحدين من الثوار هناك قادة الجند والفقهاء والمريدين، ومنهم القاضي ابن حمدين، وزعيم المريدين ابن قسي، و أمير البحر علي بن عيسى بن ميمون بعبد المؤمن معلنا ولاءه(540هـ/1145م)ولما عاد للأندلس خطب للموحدين بجامع قادش، أنظر: ابن عذاري، المصدر السابق،34، ابن الخطيب، المصدر السابق، ص251.

(4) ابن عذاري، المصدر السابق، ص35.

(5) ابن الأبار، المصدر السابق، ص199.

(6) ابن عذاري، المصدر السابق، ص33.

(7) ابن عذاري، المصدر السابق، ص38.

(8) ابن عذاري، المصدر السابق، ص320 . مجهول، المصدر السابق، ص146.

(9) دندش، المرجع السابق، ص108.

(10) ابن عذاري، المصدر السابق،27. من رواد هذه الثورة القاضي عياض، وهذا يؤكد أنّ هناك من الفقهاء من بقي موالياً للمرابطين. أنظر: محمد زنيبر، **التبادل الثقافي** بين **الأندلس والمغرب**، **وأثره** في **التطور العلمي**، مجلةكلية الآداب والعلوم الإنسانية ص33.

الزحف الموحدي، عدا محاولات ابن غانية التي باءت بالفشل هي الأخرى، وما ميز هذه الفترة هو نشاط النصارى الذي تضاعف في توسعهم في بعض المناطق الأندلسية،كاحتلال المرية سنة(542هـ/1147م)[1] والاستيلاء على مناطق الثغر الأعلى.

وعلى إثر هذه الحالة المتردية التي عرفتها البلاد، استدعى عبد المؤمن بن علي شيوخ الأندلس وبايعوه على الطاعة[2]وتم استلام غرناطة(551هـ/1156م) واستعادوا المرية، وانتهى الصراع الموحدي المرابطي بزوال المرابطين، لتبدأ علاقة جديدة بين المجتمع الأندلسي والسلطة الموحدية.

---

(1) المقري، **نفح الطيب**، 219/6.

(2) ابن عذاري، المصدر السابق، ص44.

خــــاتـمـــــــة:

في ختام هذا البحث، يمكن القول أنّ السلطة المرابطية ظهرت في أوضاع متردية في جميع المجالات سواءً تعلق الأمر بمنطقة ظهورها في الصحراء والمغرب الأقصى، أو تعلق الأمر بالأندلس (المجال الجغرافي للبحث) هذه المنطقة التي كادت أن تسقط في يد القوى النصرانية، وهو ما أنذر بتهديد عام لكل الأندلس،ففقدت بعض مدنها كبربشتر سنة(456هـ/1064م) وطليطلة سنة (478هـ /1085م) فكان ظهور هذه السلطة الصحراوية في الوقت المناسب لإنقاذ ما بقي وإصلاح ما فسد كما يتبين أنّ ظهورها كان نتيجة الفراغ السياسي في المنطقة، فأخذت السلطة المرابطية زمام المبادرة لإقامة وحدة سياسية بين العدوتين، لم تستطع القوى السابقة تحقيقها، وعلى نهجها سار الموحدون فيما بعد.

ولعل تحقيق هذه الوحدة والذود عن الأندلس يبين مدى صلابة الأسس التي اعتمدتها السلطة في بناء دولتها، ومدى التنسيق بين الجوانب المادية والروحية في تكوين السلطة، فكانت انطلاقتها بدعوة إصلاحية للأوضاع، وكان ذلك بعد تكوين إطارات الدولة من أئمة الجهاد والدعوة، وذلك في "مدرسة" الرباط التي أنشأها ابن ياسين، ومنها خرجوا في تغيير الأوضاع معتمدين في ذلك على الكتاب والسنة وفق مذهب الإمام مالك بن أنس آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر، ومجاهدين في سبيل الله، وهو ما جعل أهل العدوتين يستنجدون بالمرابطين للقضاء على مظاهر الفساد الذي شمل مجالات الحياة.

أما الأساس الثاني الذي اعتمده المرابطون في إقامة سلطتهم، هو اعتمادهم على العصبية واستمر ذلك إلى أن سقطت الدولة، ولم تكن هذه التجربة لتوحيد قبائل الملثمين هي الأولى من نوعها، بل عرفت محاولات سابقة، من أجل إثبات وجودها ومكانتها بين مملكة غانة جنوباً والقبائل الزناتية شمالاً، إلا أنّ عمرها كان قصيراً، وتجربتها كانت آنية، ولذلك يبدو أن الملثمين الذين أسسوا السلطة المرابطية اهتدوا إلى تعزيز عصبيتهم بأساس دائم وهو الدعوة الدينية، ما جعل ابن خلدون يربط الدعوة الدينية بالعصبية، ويربط نجاح العصبية بالدعوة الدينية، إلا أنّ هذه العصبية نتج عنها سياسة التمييز والظلم أحياناً في إدارة الأندلس وهو ما يعني أنها كانت سلاحاً ذو حدين، ساهمت في تأسيس السلطة في أول الأمر، إلا أنها أيضاً ساهمت في تقويضها في آخر عهدها.

ولعل من أهم العوامل التي ساعدت على ظهور السلطة المرابطية، هو الموقع الجغرافي لقبائل الملثمين على مسالك التجارة الصحراوية، فاستطاعت أن تستغل المكان للسيطرة على التجارة الصحراوية، وهي

بذلك توفر مداخيل معتبرة من الذهب من خلال عائدات التجارة والضرائب وذلك مقابل توفير الأمن للتجار وتخفيض الضرائب والمكوس وهو ما شهده العهد الأول من حكم المرابطين، وخير دليل على هذه المكانة الاقتصادية، انتشار الدينار المرابطي في أصقاع العالم الإسلامي والأوروبي حينذاك.

هذه الأسس الثلاثة (العصبية- الدعوة- المال) هي المرتكزات التي قامت عليها السلطة وأعطتها قوة تمكنت من خلالها مد نفوذها عبر المغرب الأقصى ثم إلى الأندلس، حيث استطاعت أن توقف زحف النصارى طيلة الفترة التي حكمها المرابطون. لكن هل استطاعت السلطة المرابطية أن تحدث توافقاً مع المجتمع الأندلسي؟

يبدو أنّ هناك بوناً شاسعاً في الخصائص بين السلطة الصحراوية البدوية المالكية، والمجتمع الأندلسي، متعدد الاثنيات المسيحية الأوربية والإسلامية الأسيوية العربية والإفريقية البربرية، كما أنّ هناك عدم تناسق طبقي بين فئات المجتمع فهناك الطبقة الخاصة ذات النفوذ المادي والسياسي،وتشكل السلطان وحاشيته، من أمراء وفقهاء وقضاة، وقادة الجند، وذوي الجاه والنسب من البيوتات الكبرى، وكل هذه العناصر كانت تسير وفق إملاءات السلطة، مقابل عيشها في مظاهر الترف والرفاهية من أموال وقصور وجوار.

وهناك الطبقة المتوسطة التي تتكون من التكنوقراط والتجار والحرفيين وأصحاب المهن الحرة، إلا أنّ همها لم يتجاوز إرضاء السلطة تحقيقاً لأهداف خاصة كما أنها كانت مهددة بالسقوط في الطبقة العامة، ويعني ذلك أنّها لم تكن فعالة على المستوى السياسي، ولم تشكل أي معارضة سياسية أو تساهم في إدارة شؤون الأندلس من قِبَل الأندلسيين، كما أنّ دورها الاقتصادي كان محدوداً بسبب نفوذ السلطة وتحكمها في الاقطاعات وإرهاق التجار بالضرائب في العهد الأخير للدولة .

أما الفئة الثالثة فهي الطبقة العامة، وأفرداها من المعلمين والطلبة والفقراء والأسرى والعبيد وهم من المهمشين الذين نعتوا بكل أوصاف التحقير، ولم يكن لهم أي دور، ونتج عن هذا التعدد في العناصر تنوع في الخصائص، امتد ما بين النقيضين، من اللهو والمجون إلى التصوف والزهد، فقد حاولت السلطة إبطال مظاهر الفساد في المجتمع الذي لا ننكر أنه كان يتوق إلى التحرر من قيود السلطة للعودة إلى سالف زمانه من الحريات، وذلك ما أدى إلى ظهور حركة معارضة شكلها المريدون للإطاحة بالسلطة، إلا أنها لم تستطع إلى ذلك سبيلاً بسبب انحسار فئتها.

فيما يخص دراسة العلاقة بين السلطة والمجتمع يتبين أنها مرت بمرحلتين: المرحلة الأولى وهي التي تم فيها التوافق بين الطرفين، أي أنّ هناك قبولاً من المجتمع للسلطة والتفافاً حولها، وكان ذلك في عهد إمارة يوسف بن تاشفين، والفترة الأولى لحكم الأمير علي بن يوسف، وأهم ما ميز سياسة السلطة في هذه الفترة هو توفير الأمن، وتحسن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بفعل الرواج التجاري الذي جاء نتيجة للأمن وإبطال المكوس، لكن في آخر عهده بدأت العلاقة تضعف لتكون لنا المرحلة الثانية التي ميزها التنافر بين الطرفين، وكانت مظاهر التنافر عديدة كالامتناع عن دفع الضرائب، وحدوث بعض الثورات للإطاحة بالسلطة، ويعني ذلك أن خللاً وقع في هذه العلاقة.

بعد التطرق لطرفي العلاقة السلطة والمجتمع والتحولات التي وقعت، تبين أنّ التحول الذي حدث يتمثل في سياسة السلطة التي عرفت تحولاً ظهر من خلال المقارنة بين فترتي الحكم لجيلين من ممثلي السلطة المرابطية في الأندلس، ولما أتكلم عن تباين في سياسة الجيلين فإنّ ذلك لا يعني أنّ هناك تبايناً مطلقاً فقد كانت هناك بعض التجاوزات كالتشدد في الدعوة مثلاً، كما أن الجيل الثاني لم يكن كله منغمس في الاخطاء، فنجد مثلاً أن الأمير تاشفين بن علي لقي إلتفافاً مِن قِبل المجتمع الأندلسي لحسن سيرته وسياسته.

إلا أنّ ما يميز السلطة في أول عهدها أنها استطاعت أن تحقق أمناً سياسياً واجتماعيًا واقتصادياً بفضل سياسة محكمة كالاهتمام بشؤون الرعية وإبطال الظلم وإزالة الضرائب والمكوس الجائرة، لكن المرحلة الأخيرة من حكمهم ميزتها بعض التجاوزات فظهرت مظاهر الإهمال للرعية والتمييز بين الفئات الاجتماعية المختلفة، أما من الجانب المالي فقد اعتمدت الدولة على موارد غير ثابتة كالجزية والغنائم والخراج وهي موارد غير مضمونة، كما أنها لا تلبي المتطلبات، وأثرت سياسة احتكار الإنتاج والمداخيل والحد من نفوذ الملكيات الفردية إلى تهميش شريحة عريضة من المجتمع وجعلت المجتمع أسيراً للضرائب- التي كان معفياً منها في بداية عهد المرابطين- لتعويض العجز وهو الأمر الذي عمق الفجوة بين الطرفين.

وإذا كانت السلطة تتحمل الشطر الأكبر في مسؤولية الركود والفشل في العلاقة، فإنه لا يمكن إنكار دور المجتمع في تحمل جانب من المسؤولية، فعلى الرغم من أنه مرّ بتجربة التهديد النصراني، إلا أنه بقي يحن إلى مظاهر التحرر من قيود السلطة المركزية، والخضوع لسلطة العصبية أو سلطة الأهواء كل حسب رغباته، وهو ما أدى إلى الانقسام والتشتت والصراع، بدليل ظهور عصر طوائف ثان، بل إن المجتمع يتحمل نصيباً في سقوط الأندلس بيد النصارى. يعني ذلك أنّ استعدادات المجتمع ورغباته وطبائعه قد تسهل دور السلطة أو تعيقها.

وما نخلص إليه هو أنّ التباين بين خصائص السلطة الصحراوية البربرية والمجتمع الأندلسي المدني لم يشكل عائقاً في إدارة المرابطين للأندلسيين، بقدر ما كانت طبيعة السياسة المتبعة هي المتحكم الأساسي في العلاقة، فنجد أنّ السياسة المحكمة في إدارة شؤون المجتمع تعمل على امتصاص رغباته وأهوائه التي من شأنها الضرر بمصالح الدولة، وهو ما افتقده مسئولو السلطة في المرحلة الثانية من الحكم، وجعل عقباتها كثيرة ونهايتها حتمية.

ولعل ذلك يثبت شمولية وعدالة النظام الإسلامي، حين سَوّى بين الأجناس عربهم وعجمهم أبيضهم وأسودهم، وجعل لهم من القوانين السياسية والمدنية ما يجعل التوافق بين المجتمع والسلطة أمراً هيناً يزيد الدولة حكاماً ورعية قوة وتماسكاً.

تم بحمد الله

المـلاحق:

الملحق رقم 01 :

التعريف بتواريخ من ولي اشبيلية من مشاهير اللمتونيين المرابطين من حين استلائهم عليها إلى انقراض دولتهم

الملحق رقم 02 :

وصف ابن الخطيب لعرب غرناطة وأنسابم

الملحق رقم 03:

صورة من مكانة اليهود في ظل السلطة المرابطية من خلال نوازل ابن الحاج

الملحق رقم 01 :

التعريف بتواريخ من ولي اشبيلية من مشاهير اللمتونيين المرابطين من حين استلائهم عليها إلى انقراض دولتهم [1]

فأوّل من وليها بعد خلع المعتمد بن عباد عنها بتقديم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، **الأمير سير**-رحمه الله- فوليها في رجب الفرد من سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وتوفي على مقربة من اشبيلية وهو زافاً بنته فاطمة ومشيعاً لزوجه حواء بنت تاشفين، فكانت وفاته فجأة من ذي القعدة من سنة سبع وخمسمائة، فكانت مدة ولايته بها ثلاثاً وعشرين سنة؛ ثم وليها **يحي بن سير** بن أبي بكر في ذي الحجة من عام سبعة وخمسمائة، وعُزل عنها في ذي الحجة أيضا عام ثمانية وخمسمائة،فكانت ولايته سنة واحدة؛ ثم وليها **عبد الله بن فاطمة** [2]الشهير بالنيولان في محرم سنة تسع وخمسمائة وتوفي بها في رمضان المعظم من عام إحدى عشرة وخمسمائة؛ ثم وليها **إبراهيم بن يوسف بن تاشفين** [3]، بعد ولايته سبتة، ووليها في شوال عام أحدى عشرة وخمسمائة، وعُزِلَ عنها في جمادي الأولى عام ستة عشر وخمسمائة، فكانت ولايته لها أربعة أعوام وتسعة أشهر؛ ثم وليها **تميم بن يوسف بن تاشفين** بعد ولايته غرناطة في جمادي الثانية عام ستة عشر وخمسمائة فكانت ولايته إلى أن عُزل سنة واحدة وأربعة أشهر؛ ثم وليها **ابوبكر بن علي بن يوسف** فكانت ولايته إلى أن عُزل أربعة أعوام وخمسة أشهر أولها محرم ثمانية عشر وخمسمائة، وآخرها رجب عام اثنين وعشرين وخمسمائة؛ ثم وليها عمر بن سير فكانت ولايته إلى أن عُزل خمسة أشهر أولها شعبان وآخرها ذو الحجة عام اثنين وعشرين وخمسمائة؛ ثم وليها **يحي بن مفوز** فكانت ولايته إلى أن عُزِلَ عاماً واحداً وشهرين اثنين أولها محرم عام ثلاثة وعشرين وخمسمائة وآخرها صفر عام أربعة وعشرين وخمسمائة؛ ثم وليها **عمر بن مفوز** فكانت ولايته إلى أن قُتِل عامين وثلاثة أشهر أولها ربيع الأول عام اربعة وعشرين وخمسمائة وآخرها رجب عام ستة وعشرين وخمسمائة؛ ثم وليها **عبد الله بن أبي بكر** بن تاشفين فكانت ولايته إلى أن قبض عليه وحبس في القصر شهرين اثنين أولها شعبان المكرم وآخرها شوال المعظم، وكلاهما في عام ستة وعشرين وخمسمائة ثم وليها الأمير **تاشفين بن علي** بن يوسف، فكانت ولايته إلى أن عُزِلَ سنة واحدة أولها شوال عام ستة وعشرين وخمسمائة وآخرها رمضان عام سبعة وعشرين وخمسمائة؛ ثم وليها **ينتان بن علي** الذي كان والياً على بلنسية فكانت ولايته إلى أن عُزل سنة واحدة وستة أشهر أولها شوال عام سبعة وعشرين وخمسمائة وآخرها صفر عام تسعة وعشرين وخمسمائة؛ ثم وليها **أبوزكريا يحي بن اسحاق**، فكانت ولايته إلى أن عزل تسعة أعوام وعشرة أشهر أولها ربيع الأول عام تسعة وعشرين وخمسمائة وآخرها ذو الحجة عام ثمانية وثلاثين وخمسمائة؛ ثم وليها **أبو بكر بن مزدلي**، في شهر محرم عام تسعة وثلاثين وخمسمائة، فظهرت في الأندلس دعوة الموحدين بالعام المذكور،

---

(1) ابن عذاري، **البيان المغرب**، 4/ 105 وما يليها.

(2) كان لعبد الله بن فاطمة دور كبير في بسط سلطة المرابطين بالاندلس منذ سنة 495هـ حيث ساهم في إنقاذ بلنسية من يد "دونا خيمينا"(زوجة السيد) ثم ولي بلنسية حتى سنة 503هـ، ثم نُقل إلى فاس، ثم تولى اشبيلية(509-511هـ)

(3) ابراهيم بن يوسف بن تاشفين، ابو اسحاق، (ويعرف بابن تغيشت أو تاغيشت، وهو اسم امه) ولي مرسية بعد ابن عائشة، الذي اعتل بصره بعد غزوة البورت سنة 507هـ، ثم نقل منها إلى اشبيلية.

وقام أهل مارتلة بدعوة المهدي في السابع عشر لربيع الاول عام تسعة وثلاثين وخمسمائة وخالفت بعد ذلك طلياطة على المرابطين، وكذلك جميع الغرب إلى أن صارت أكثر بلاد الأندلس في طاعة الموحدين.

الملحق رقم 02 :

وصف ابن الخطيب لعرب غرناطة وأنسابهم (1)

أحوال هذا القطر في الدين وصلاح العقائد، أحول سَنَية، والنحَلُ فيهم معروفة، فمذاهبهم على مذهب مالك بن أنس، إمام دار الهجرة جارية، وطاعتهم للأمراء محكمة، وأخلاقهم في احتمال المعاون الجبائية جميلة، وصورهم حسنة، وأنوفهم معتدلة، غير حادة، وشعورهم سود مرسلة، وقدودهم متوسطة معتدلة إلى القصر، وألوانهم زهر مشربة بحمرة، وألسنتهم فصيحة عربية، يتخللها غرب كثير، وتغلب عليهم الإمالة، وأخلاقهم أبية في معانى المنازعات، وأنسابهم عربية، وفيهم من البربر والمهاجرة كثير؛ ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاشي بينهم الملف المصبوغ شتاء، وتتفاضل أجناس البز بتفاضل الجدة والمقدار، والكتان والحرير، والقطن والمرعزي، والأردية الإفريقية، والمقاطع التونسية، والمآزر المشفوعة صيفاً، فتبصرهم في المساجد أيام الجُمَع، كأنهم الأزهار المفتحة في البطاح الكريمة، تحت اتلأهوية المعتدلة، وأنسابهم حسب ما يظهر من الاسترعات، والبيعات السلطانية والاجازات عربية: يكثر فيها القُرَشي، والفِهري، والأموي، والأمي، والأنصاري، والأوسي، والخزرجي، والقحطاني، والحميري والمخزومي، والتنوخي، والغساني، والأزْدي، والقيسي، والمعافري، والكناني، والتميمي، والهُذَلي، والبكري، والكِلابي، والنمري، واليعمُري، والمازني، والثقفي، والسلمي، والفزاري، والباهلي، والعبسي، والعنسي، والعذري والحِجَجِي، والضبي، والسكوني، والتيمي، والعبشمي، والمُري، والعُقيلي، والفهمي، ووالصريحي، والجزلي، والقشيري، والكلبي، والقضاعي، والأصبحي، والهواري، والرعَيني، واليحصبي، والتجيبي، والصدفي، والحضرمي، والحِمى، والجُذامي، والسّلولي، والحَكمي، والهمذاني، والمذحجي، والخُشَني، والبلوي، والجُهني، والمزْني، والطائي والغافقي، والأسدي، والأشْجُعِي، والعاملي، والخولاني، والأيادي، واللّيثي، والخَثْعمِي، والسّكْسَكِي، والزبيدي والتغلبي، والثعلبي، والكِلاعي، والدوسي، والحوارى، والسّلماني، هذا ويرد كثير في في شهاداتهم، ويقلمن ذلك السلماني نسباً، وكالدوسي، والحوارى، والزبيدي، ويكثر فيهم كالأنصاري، والحُميدي، والجُذامي، والقيسي، والغساني، وكفى بهذا شاهداً على الأصالة، ودليلاً على العروبية.

---

(1) ابن الخطيب، **الإحاطة** في **أخبار غرناطة**، 134 وما يليها.

الملحق رقم 03:

مكانة اليهود في **ظل السلطة المرابطية**[1]

مسألة وردت في نوازل ابن الحاج الشهيد تبين واقع ومكانة اليهود الاجتماعي.

نص المسألة:

حضر عند ابراهيم بن يحي صاحب الأحكام، جماعة فقالوا أنم خرجوا مع جماعة من أهل ترجيلة، للضرب على جليقية، إلى جهة طليطلة، فأخذوها ومن كان فيها من النصارى، فألفوا في جملتها تاجرين يهوديين، من تجار أهل جليقية، هما من أهل حصن قاشرس، وأتوا بذلك إلى ترجيلة وتقاوموهما بست مائة مثقال وثمانية عشر مثقالا وأتوا باليهوديين رجاء أن يفدوهما بيهود قرطبة.

وحضر اليهوديان فقالا إنّ الحال جرت على ما قاله القوم، إلا أنه أخذا في بلاد الاسلام من نظر طليطلة التي أهلها مصالحون، وقال الآخرون إن أخوهم كان مع الرفقة في بلاد العدو، وإن الحرب بينهم وبين العدو في جميع جهات بطليوس، وإن اليهوديان كانا قد قاطعاهم بترجيلة على أنفسهما بألفي مثقال وخمس مائة مثقالا، وأنقذ اليهوديان ذلك من قولهم وقالا إنما لم يقاطعاهم بشيء شهد عليهم بذلك من حضر قول جمعهم.

فجاوب أني تصفحت خطابك وهذه فصة رويت في وجود منها فروعاً وروايات عن الائمة مالك وربيعة ويحي بن سعيد وابن القاسم وسحنون، وغيرهم، وربما ظهر أن في بعضها خالص بالبعض، وليست كذلك بل ذلك لمعان، أو سبب أوجبه والله أعلم أن يفادا باليهوديين أسارى من أسارى المسلمين، ويقايض بم في الفداء، بأقصى الاجتهاد، وأبلغ الطاقة، ولا يتكلم للذين هما بأيديهم في ذلك، ولا اعتراض لهم فيه، إذ ليسوا بأحق منها، من جميع المسلمين، قولهما أنما تاجرين من تجار جليقية، وأنما كانا في رفقة خارجة إلى جهة طليطلة، ولم يقولوا إنما كانا في عسكر أو جيش، أو مقاتلين فالوجه فيه صرفه إلى المفاداة بالأسارى، خاصة لا بما سواهم من أحكام الأمر فيه والتوثق، في ذلك منهم وهذه جملة كافية، والروايات معلومة، بجميع ما قلته في الموطأ لابن وهب، وفي المدونة والمستخرجة، وكتاب ابن المواز، والواضحة، ولذلك تركت استجلاب بشيء ومنها، والذي أدعوه من مقاطعة اليهوديين لهم بترجيلة، ساقط عن اليهوديين، ولا يتبعان با، وهذا الجواب في اليهوديين خاصة لوجوه إذ لم يكن السؤال إلا فيها.

ولما تقدم من قول الآخذين با قد عود اليهوديان الاختلاف للمسلمين في تجاراتم، وهذه نكتة قد نص عليها مالك، وذكر لها حكماً رواها عنه ابن القاسم، وأشهب، وابن وهب، ومطرف، وابن الماجشون.

---

(1) **نوازل ابن الحاج الشهيد**، 293، 294(اعتماداً عن محمد الأمين بلغيث، **الحياة الفكرية**، 698، 699)

الخرائط:

- خريطة مضارب قبائل الملثمين
- خريطة أقصى توسع للمرابطين في الأندلس
- خريطة مواقع سكن أهل الذمة في الأندلس

المصادر والمراجع:

1/ المصادر:

1. **القرآن الكريم**
2. **الحديث النبوي**

- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن القضاعي (ت685هـ/ 1286م):

3. **الحلة السيراء**، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت، (1381هـ/1962م).

- ابن الأثير، أبو الحسن علي(ت 630هـ/ 1222م) :

4. **الكامل** في **التاريخ**، دار صادر، بيروت، (1399هـ / 1989م)

- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحمودي(564هـ/1169م):

5. **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق**، تقديم إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، (ت256هـ/840م):

6. **صحيح البخاري**، المكتبة الثقافية، بيروت(دون سنة طبع).

- ابن بسام، أبو الحسن علي الشنتريني، (ت542هـ/1147م):

7. **الذخيرة** في **محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق سالم مصطفى البدري،دار الكتب العلمية، ط1 (1419هـ/1998م).

- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت578هـ/1183م):

8. **كتاب الصلة**، الجزءان الأول والثاني تقديم وشرح صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية،ط1 (1423هـ/2003م).

- ابن بطوطة،محمد بن عبد الله (777هـ/1375م):

9. **تحفة النظار** في **غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، دار بيروت للطباعة والنشر، (1400هـ/1980م)

- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي (ت487هـ/1094م):

10. **المسالك والممالك**، تحقيق أدريان فان ليوفن و أندري فيري، الدار العربية للكتاب، قرطاج 1992م.

- ابن بلكين، عبد الله الزيري (483هـ/1090م):

11. **مذكرات الأمير عبد الله، المسماة التبيان**، نشر وتحقيق ليفي بروفنسال،دار المعارف بمصر،باريس 1955 .

- ابن تومرت، محمد بن عبد الله (ت524ه/1129م):

12. **أعز ما يطلب**، تقديم وتحقيق عمار الطالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م.

- أبو حامد الغرناطي، محمد بن عبد الرحيم المازني(ت 565 ه/1169م)

13. **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**، تح إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية، الجزائر، 1989م.

- ابن حزم، علي بن أحمد(456ه/1064م):

14. **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط3(1391ه/1971م) مصر.

- الحميري، محمد بن عبد المنعم (866ه/1461م):

15. **كتاب الروض المعطار** في **خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت،1975م.

- ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي الاشبيلي(ت529ه/1134م):

16. **مطمح الأنفس ومسرح التأنس** في **مُلَح أهل الأندلس**، تقديم وتحقيق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، ط1 (1422ه/2001م) ، مصر.

17. **قلائد العقيان** في **محاسن الأعيان**، تقديم محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس (1386ه/1966م).

- ابن الخطيب لسان الدين محمد بن عبد الله، بن سعيد بن أحمد(ت 776ه/1374م):

18. **الإحاطة** في **أخبار غرناطة**، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، مج 1، ط2 (1393ه/1973م)

19. **أعمال الأعلام** في **من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، ط2، بيروت، 1956م.

- ابن خلدون، عبد الرحمن(ت808ه/1406م):

20. **العبر وديوان المبتدأ والخبر** في **أيام العرب والعجم و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1968م.

21. **المقدمــة**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، (1426ه-1427/2006م).

- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت681ه/1282م):

22. **وفيات الأعيان وأنباء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1994.

- الرازي، أبوبكر بن عبد القادر(ت923م):

23. **مختار الصحاح**، مكتبة لبنان ناشرون، 1995.

- ابن رشد، محمد بن أحمد بن محمد ، أبو الوليد (ت 520ه/ 1126م):

24. **فتاوى ابن رشد**، ثلاثة أجزاء، تحقيق المختار الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت (1407ه/1987م).

- ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله (ت 726ه/ 1325م)
25. **الأنيس المطرب بروض القرطاس** في **أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والورق، الرباط، 1973.
- ابن سعيد، علي المغربي (685ه/1274م):
26. **المُغرب** في **حُلي المغرب**، تحقيق تعليق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ج1، ط3، 1953م
27. **المُغرب** في **حُلي المغرب**، تحقيق تعليق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ج2، ط2، 1955م
- الضبي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن عميرة الضبي (ت 599ه/ 1203م):
28. **بغية الملتمس** في **تاريخ رجال الأندلس**، تقديم وشرح صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، ط1 (1426ه/2005م).
- الطرطوشي، أبو بكر، محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الفهري (ت520 ه/1126م):
29. **كتاب الحوادث والبدع**، تحقيق عبد ا ليد تركي، دار الغرب الإسلامي،ط1 (1410ه/1990م)
30. **كتاب الحوادث والبدع**، تحقيق بشير محمد عيون، مكتبة المؤيد، الطائف. مكتبة البيان،دمشق،ط2 1991م .
- ابن عبدون، محمد بن أحمد بن عبدون التجيبي الاشبيلي.
31. **رسالة** في **الحسبة** (ضمن ثلاث رسائل في آداب الحسبة والمحتسب) تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955.
- ابن عذاري المراكشي(ت706ه/1306م):
32. **البيان المغرب** في **اخبار الأندلس والمغرب**، الاجزاء1، 2، 3، تحقيق ج .س.كولان وليفي بروفنسال دار الثقافة، ط2، (1400ه/ 1980م).
33. **البيان المغرب** في **أخبار الأندلس والمغرب**، ج4، تحقيق ومراجعة إحسان عباس، دار الثقافة بيروت ط2 (1400ه/1980م).
- ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري الاشبيلي(543 ه / 1148م):
34. **رسائل** أبي **بكر المعافري**، نشر وتحقيق عصمت عبد اللطيف دندش، دار الغرب الإسلامي، ط1 (1408ه/ 1988م).
- ابن القيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، (ت751ه/1350م):
35. **أحكام أهل الذمة**، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الكتب العلمية، بيروت،ط 1(1415ه /1995م).
- ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك (عاش في أواخر ق6ه/12م):

36. **تاريخ الأندلس**، تحقيق أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الاسلامية بمدريد، 1971م.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت450ﻫ/1058م):
37. **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1، (1405ﮬ/1985م).
- مجهول، (عاش في ق8ﻫ/14م):
38. **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة،دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء،ط1،(1399ﮬ/1979م).
- المراكشي، أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي(ت647 ﻫ/1250م):
39. **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**،شرح صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، ط1،صيدا،بيروت (1426ﮬ/2006م)
- المقري، أحمد بن محمد(ت1041ﮬ/1631م):
40. **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، شرح وضبط مريم قاسم الطويل و يوسف علي الطويل دار الكتب العلمية، بيروت، ط1،(1415 ﮬ /1995م).
- ابن منظور،محمد بن مكرم (ت719ﻫ/1319):
41. **لسان العرب**، دار صادر ، بيروت، ط3، 1994م.
- النبهاني،أبو الحسن عبد الله بن الحسن المالقي، (حي793ﻫ ـ /1390م):
42. **تاريخ قضاة الأندلس**، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت (1400ﻫ /1980م)
- الوزان، حسن (ليون الافريقي):
43. **وصف إفريقيا**،ترجمة محمد محي ومحمد الأخضر، الرباط، الشركة المغربية لدور النشر المتحدة 1980م.
- الونشريسي، أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد (ت914ﻫ/1514م):
44. **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب**، تحقيق محمد حجي دار الغرب الإسلامي، (1401ﻫ /1981م).

2/المراجـع العربيـة :

- أمين، أحمد :
1. **ظهر الإسلام**، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط1،(1425ﮬ/2004م)ج3 بيروت، لبنان.
- بلغيث، محمد الأمين:

2. **النظرية السياسية عند المرادي،** المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م.

- الجنحاني، الحبيب:

3. **دراسات** في **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي**، دار الغرب الإسلامي، ط2 (1406هـ / 1986م) بيروت.

- الجابري، محمد عابد:

4. **فكر ابن خلدون العصبية والدولة**، دار الطليعة، بيروت، ط 3، 1983 .

- حركات، إبراهيم:

5. **المجتمع الإسلامي والسلطة** في **العصر الوسيط**، إفريقيا الشرق، بيروت، 1998م .

6. **السياسة والمجتمع** في **العصر النبوي**، منشورات دار الأفاق الجديدة، المغرب(دون سنة طبع).

- خليفة، حامد محمد :

7. **يوسف بن تاشفين موحد المغرب وقائد المرابطين ومنقذ الأندلس من الصليبيين**، دار القلم،ط1 سوريا (1424هـ/2003م).

- دندش، عصمت عبد اللطيف:

8. **أضواء جديدة على المرابطين،** دار الغرب الاسلامي، ط1، 1991م، بيروت، لبنان.

- زبادية، عبد القادر :

9. **الحضارة العربية والتأثير الأوربي** في **إفريقيا الغربية جنوب الصحراء**،المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1989م.

- زغلول، سعد عبد الحميد:

10. **تاريخ المغرب العربي**، نشر المعارف بالإسكندرية، مصر، 1990م.

- السامرائي، عبد الحميد حسين أحمد:

11. **تاريخ حضارة المغرب والأندلس** في **عهد المرابطين والموحدين**، دار شموع الثقافة، ط1، 2002م ليبيا.

- السيد عبد العزيز سالم:

12. **تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس،** مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر الإسكندرية، 1984م.

- السيد، كمال أبو مصطفى:

13. **دراسات أندلسية** في **التاريخ والحضارة**، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، 1996م.

- الشريف،محمد:

14. **المغرب وحروب الاسترداد**، مطبعة الخليج العربي، ط1، تطوان،2005.

- عباس، إحسان:

15. **تاريخ الأدب الأندلسي** في **عصر الطوائف والمرابطين**، نشر وتوزيع دار الثقافة، ط6، بيروت 1981 م.

- عبد الله، نافع:

16. **الأعياد والمهرجانات** في **الشعر الأندلسي**، منشورات دار الوسام، ط1، 2003م، بيروت.

- عنان، محمد عبد الله:

17. **تراجم شرقية و أندلسية**، ، مكتبة الخانجي، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط2 (1390ه/1970م).

- بن عميرة، محـمد:

18. **دور زناتة** في **الحركة المذهبية** في **المغرب الإسلامي**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

- فروخ، عمر:

19. **إخوان الصفا**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، (1401ه/1981م).

- محمود، إسماعيل :

20. **دراسات** في **الفكر والتاريخ الإسلامي** 3، سينا للنشر،ط1، 1994م.

- القادري، إبراهيم بوتشيش:

21. **إضاءات حول تاريخ الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي**، دار الطليعة، ط1 بيروت، 2002م.

22. **المغرب والأندلس** في **عصر المرابطين**،منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، ط2 2004م.

23. **مباحث** في **التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، دار الطليعة، ط1 بيروت، 1998م.

24. **تاريخ الغرب الإسلامي**، دار الطليعة، ط1، بيروت، 1994م.

- الصلابي، محمد علي:

25. **الجوهر الثمين** في **معرفة دولة المرابطين**، مكتبة الإيمان، القاهرة، ط1، (دون سنة طبع).

- الممي حسن :

26. **أهل الذمة** في **الحضارة الإسلامية**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت،1998.

- موسى، عز الدين أحمد موسى:

27. **النشاط الاقتصادي** في **الغرب الإسلامي**، دار الشروق، ط1، (1403ه/1983م).

- مؤنس، حسين:

28. **تاريخ المغرب وحضارته**، المجلد الأول، العصر الحديث للنشر والتوزيع،ط1، (1412هـ/1992م).
29. **سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين**، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1 (1420هـ/2000م).
- النبهان، محمد فاروق:
30. **الفكر الخلدوني من خلال المقدمة**، مؤسسة الرسالة، ط1، (1418هـ/1998م).
31. **أبحاث إسلامية** في **التشريع والفكر والحضارة**،مؤسسة الرسالة، ط1،(1406هـ/1986م)،بيروت
- نصر الله، سعدون عباس:
32. **دولة الأدارسة** في **المغرب والأندلس**، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1996.
33. **دولة المرابطين** في **المغرب والأندلس** في **عهد يوسف بن تاشفين**، دار النهضة العربية، ط1 بيروت (1405هـ/1985م) .

ب/ المراجــع الأجنبيــة:

- بالنثيا، أنخل جنثالث :
34. **تاريخ الفكر الأندلسي**، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1955م.
- بروفنسال، ليفي:
35. **الحضارة العربية** في **اسبانيا**، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ط2، (1405 هـ/1985م)
- بروكلمان،كارل:
36. **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة بنية أمين فارس و منير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط13 1998، بيروت.
- بل، الفريد :
37. **الفرق الإسلامية** في **الشمال الإفريقي من الفتح الإسلامي** إلى **اليوم**، ترجمة عبد الرحمن بدوي،دار الغرب الإسلامي، ط3، 1987.
- غارسيا، مرسيداس :
38. **شتات الأندلسيين**، ترجمة محمد الصالح النوار والوناس قوباعي، منشورات زرياب،الجزائر،2003م
39. ستانوود كب، **المسلمون** في **تأريخ الحضارة**، ترجمة محمد فتحي عثمان، ديوان المطبوعات الجامعية ط1، (1406ه/ 1982م)، الجزائر.
- يوسف أشباخ:
40. **تاريخ الأندلس** في **عهد المرابطين والموحدين**، ترجمة عبد الله عنان، مؤسسة الخانجي، ط2 القاهرة 1958.
41. Vincent LAGARDERE , Les Almoravides, Le Djihad Andalou 1106-1143, Éditions L'Harmattan, paris, 1998.

42.PIERRE GUICHARED, Structures sociales, &é « orientales » et « occidentales » dans l'Espagne musulmane, Mouton, paris, 1977.

الرسائل الجامعية:

- بلغيث، محمد الأمين:

1. **الحياة الفكرية بالأندلس** في **عصر المرابطين**، رسالة دكتورة (مستخرجة من قرص مضغوط) جامعة الجزائر، قسم التاريخ، 1424هـ/2003م .
2. **الربط بالمغرب الاسلامي ودورها** في **عصري المرابطين والموحدين**،رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، 1987م.

- دندش، عصمت عبداللطيف:

3. **الأندلس** في **نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني**، رسالة دكتورة(مطبوعة) دار الغرب الإسلامي، ط1، ، بيروت، لبنان، 1408هـ/1988م.
4. **دور المرابطين** في **نشر الإسلام** في **إفريقيا**، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى (1408هـ/ 1988 م).

- مسعد، سامية مصطفى محمد:

5. **الحياة الاقتصادية والاجتماعية** في **اقليم غرناطة**، رسالة دكتورة (مطبوعة) مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ط1،(1423هـ/2003 م).

- ملاخ، عبد الجليل:

6. **المذاهب غير المالكية** في **الأندلس**، رسالة ماجستير، نوقشت بجامعة الجزائر، في جوان (1428هـ /2007 م).

- هيبة، سيف الدين:

7. **الطريقة الشيخية**، (رسالة ماجستير في علم الاجتماع الثقافي) من جامعة الجزائر، 2006م.

الدوريات والمـجـلات:

- جمعـة شيخة:

1. **الشعر الأندلسي حدوده وأبعاده كمصدر للتاريخ** ، المجلة العربية للثقافة، السنة الرابعة عشر،العدد 27، (عدد خاص بالأندلس) ربيع الأول(1415هـ/1994م) تونس.

- الحمد، علي توفيق:

2. **المستشرقون وتاريخ المسلمين** في **الأندلس،** ندوة الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ط1، (1417هـ/1996م).

- زنيبر، محمـد:

3. **التبادل الثقافي** بين **الأندلس والمغرب، وأثره** في **التطور العلمي بالبلدين،** مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، العدد16، 1991م.

- عويس، عبد الحليم:

4. **التكاثر المادي وأثره** في **سقوط الأندلس ،** مجلة الإرشاد، ، العدد 16، السنة الثالثة، رجب 1413ه/1993م، الجزائر،21 وما يليها.

- بن قربة، صـالح:

5. **انتشار المسكوكات المغربية وأثرها على** تجارة **الغرب المسيحي،** كتاب الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلا القرون الوسطى، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، ط 1995م.

- مكي، محمود علي:

6. **فضل العرب المسلمين على الحضارة الإنسانية،** دوريةكراسات أندلسية1، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 2006م، الرباط.

الفهارس العامة:

- الأعلام
- الشعوب والقبائل والطوائف
- الأماكن والمواضع

فهرس الأعلام :

- أ -

- ل -

- م –

- هـ -

- و -

فهرس الشعوب والقبائل الطوائف:

- ن -

- هـ -

- و -

- ي-

فهرس الأماكن :

- أ -

-ب-

- ن -

- و -

- ي -

الفصل الثالث : العلاقة بين المجتمع و السلطة وتطوراتها